AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01039 2698

04-B3166

D
106
I5
1944

محمد عبد الله عنان

١٨

المآسي والصور الغوامض

١٨

مزين بالصور التاريخية

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٤

920
Enl/t
٩٢٠
ع٢٤
٢٠٢

كتب أخرى بقلم المؤلف

- ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى .
- مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام .
- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية .
- ابن خلدون، حياته وتراثه الفكرى .
- دولة الإسلام فى الأندلس (العصر الأول) .
- المذاهب الاجتماعية الحديثة .

وبالانكليزية :

Decisive Moments in the History of Islam.
The Life and Work of Ibn Khaldun.

الطبعة الأولى ١٩٤٤ — الحقوق كلها محفوظة

23667

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مضت أعوام طويلة مذ أصدرت كتابى "ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى" محتويا على طائفة كبيرة من أشهر المحاكمات والمآسى التاريخية، وكنت أرجو نظرا لما ناله هذا النوع الجديد من الأدب التاريخى القضائى، فى أدبنا العربى من عطف وتقدير، أن يتاح لى غير بعيد أن أصدر مجموعة مماثلة أخرى؛ ولكنى شغلت طيلة هذه الأعوام بطائفة من المباحث الاسلامية استغرقت منى كل جهد ووقت.

على أنه قد أتيح لى خلال هذه الفترة أن أعالج طائفة جديدة من المآسى والمحاكمات التاريخية، وأن أدرس بعض الشخصيات الفذة، التى تمتاز ...ان من الروعة أو الخفاء. والتاريخ الأوربى يحفل فى عصوره الحديثة ...ادة غزيرة من هذه المآسى والصور، وهى تمتاز فى وقائعها وظروفها بألوان القصص الشائق، تسبغ عليها سحرا خاصا، وتخرجها من حيز الوقائع الجافة، ... حيز الأسمار الممتعة، مع احتفاظها فى الوقت نفسه بصبغتها التاريخية؛ ... المادة التاريخية الفريدة هى التى استقينا منها موضوع هذا الكتاب.

وقد يلوح لأول وهلة أن هذه المجموعة الجديدة من أحداث وصور ...ابع الى عصور مختلفة، إنما هى مجموعة من مباحث متناثرة لاتجمعها رابطة ...تركة؛ ولكن الواقع أن هناك وحدة فى النوع والقصد والمغزى تجمع بين ...احث الكتاب؛ فهى لا تخرج عن شقين: إما محاكمة تاريخية أو قضية ... تمثل لنا صور الجريمة والعقاب، وروح العدالة فى عصر معين، وطرفا ... لاجراءات الجنائية فى ذلك العصر، وهذا هو العنصر الغالب فى الكتاب؛

وإما شخصية تاريخية أو اجتماعية تمتاز بخواصها الفريدة، وتنعكس على حياتها روح العصر الذى عاشت فيه، وهذا ما يضمه القسم الثانى بالأخص وهو الموسوم "بعصر الخفاء". وهذه وتلك هى بعينها محتويات كتابى "ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى" فالمجموعة التى يضمها الكتاب الحالى والتى نقدمها اليوم الى القارئ بعنوان جديد هو "المآسى والصور الغوامض" إنما هى حلقة جديدة من "ديوان التحقيق".

وإذا كان عنصر القصص الشائق يبدو واضحا فى سياق بعض هذه الفصول فليس معنى ذلك أنى قصدت الى كتابة القصة، أو حاولت تغليب الطابع القصصى، على مباحث تاريخية محضة؛ وإنما تحريت فى عرضها وكتابتها نفس الأسلوب التاريخى والتمحيص العلمى الذى جريت عليه فى "ديوان التحقيق" ولم أدخر وسعا فى استشارة المراجع، ومقارنة الروايات. وكل ما هنالك أن اللون القصصى الشائق قد يرجع الى الحوادث ذاتها، وهذا ما تحريته فى اختيار الموضوعات التى تمتاز بهذا الطابع؛ والحقائق التاريخية تبدو أحيانا أغرب وأروع من القصة ذاتها.

وقد حرصت فيما يتعلق بالمحاكمات والقضايا الشهيرة على إبراز الناحية القانونية الى جانب الناحية التاريخية، وتحرى الدقة فى استعراض الاجراءات والنظم الجنائية، والمرافعات القضائية، وخصوصا فيما تضمنه الكتاب الثالث من المحاكمات والقضايا الحديثة.

وقد زينت الكتاب بطائفة من الصور التاريخية التى استطعت الحصول عليها، وأوردت ثبت المراجع التى استشرتها وانتفعت بها.

القاهرة فى ربيع الثانى سنة ١٣٦٣
أبريل « ١٩٤٤

محمد عبد الله عنان

فهـــرس

صفحة

الكتاب الأول — صور من عصر الأحياء

الفصل الأول : لوكريسيا بورچيا ٩
الفصل الثانى : محاكمة مكيافيللى ٤٢
الفصل الثالث : حياة تشلينى العجيبة مكتوبة بقلمه ٤٨
الفصل الرابع : قصص الأيام العشرة بقلم چوڤانى بوكاشيو ... ٧١

الكتاب الثانى — عصر الخفاء

الفصل الأول : جرائم السحرة ٨٦
الفصل الثانى : ذو القناع الحديدى ١٠١
الفصل الثالث : البارون فون أوفنباخ ١١٠
الفصل الرابع : الكونت سان جرمان ١١٧
الفصل الخامس : يوسف بلسامو... ... ... ١٢٤
الفصل السادس : چاكومو كازانوڤا ١٣٢
الفصل السابع : روسو ومدام دى ڤرنس... ... ... ١٦٠
الفصل الثامن : رستم مملوك الامبراطور ١٧٥

الكتاب الثالث — أعاصير السياسة

الفصل الأول : مصرع القيصر اسكندر الثانى ١٨٢
الفصل الثانى : القيصرة اليزابيت ٢٠٧
الفصل الثالث : پارنل زعيم الوطنية الإرلندية ٢١٨
الفصل الرابع : قضية لورور وزولا... ... ... ٢٢٧
الفصل الخامس : قضية الفيجارو ومدام كايو ٢٣٧

فهرس الصور

صفيحة

نيكولو مكيافيللي ــ صورة الصدر ٨
البابا اسكندر السادس ١٦
لوكريسيا بورچيا ١٨
شيزارى بورچيا ٢٤
بنڤنوتو تشلليني ٥٣
حصن القديس آنجلو ٥٩
چوڤاني بوكاشيو ٧٥
لويس الرابع عشر ٩٦
لويس الثالث عشر ١٠٣
البارون فون أوفنباخ ١١٣
كاجليوسترو ١٢٨
چاكومو كازانوڤا ١٤٠
مدام دى ڤرنس ١٦٣
چان چاك روسو ١٦٧
القيصر اسكندر الثانى ١٨٩
القيصرة اليزابيت... ... ... ٢١٢
بارنل ٢٢١
الفريد دريفوس... ... ... ٢٣٠
اميل زولا... ... ... ٢٣٢
مدام كايو... ... ... ٢٤١

ثبت المراجـــع

L. Collison—Morley: The Story of the Borgias.

G. Portigliotti: The Borgias.

F. F. Brentano: Lucrèce Borgia.

A. Dumas: Les Crimes Célèbres.

V. Hugo: Lucrèce Borgia.

F. Guicciardini: Histoire de l'Italie de 1492-1532.

Gregorovius: Geschichte der Stadt Rom in Mittelalter.

P. Villari: The Life and Times of Machiavelli.

Sismondi: Histoire des Républiques Italiennes.

Machiavelli: The Prince; Florentine History.

B. Cellini: Memoirs of Benvenuto Cellini.

G. Vasari: The Lives of the Painters, Sculptors and Architects.

Giovanni Boccacio: Gesamelte Werke; Herausgegben von Max Krell v Bde.

F. F. Brentano: Le Drame des Poisons à la Cour de Louis XIV.

F. F. Brentano: Légendes et Archives de la Bastille.

Voltaire: Siècle de Louis XIV.

Fr. von Buelau: Geheime Geschichten und raetselhafte Menschen.

Milman: History of the Jews.

J. Le Gras: L'Extravgante Personalité de Jacques Casanova.

J. J. Rousseau: Les Confessions.

R. B. Mowat: J. J. Rousseau.

G. Le Nôtre: Vieilles Maisons, vieux Papiers.

Rambaud: Histoire de la Russie.

V. Soukhomline: Procès Cèlèbres de la Russie.

Von Mitis: Kronprinz Rudolf.

Elizabeth von Oesterreich. (Art. Neue Zuericher Zeitung 25 Dez. 1937).

J. Reinach: Histoire de l'Affaire Dreyfus.

نیکولو مکیاڤلی

الكتاب الأول

صور من عصر الإحياء

الفصل الأول

لوكريسيا بورچيا

١٤٨٠ — ١٥١٩

عصر الإحياء — إحياء العلوم — وشروق الأنوار على ظلمات العصور الوسطى، وتفتح العبقريات العظيمة فى مختلف ضروب النبوغ الانسانى : العلوم والآداب والفنون؛ وعصر المعارك والتطورات السياسية والاجتماعية العظيمة ، وعصر اضمحلال المشرق ونهوض المغرب ، وذوى الحضارات الاسلامية الزاهرة، ونشأة الحضارة الأوربية الحديثة : ذلك هو عصر الإحياء الأوربى ، الذى ينبثق فجره فى إيطاليا منذ القرن الرابع عشر، فى تلك الجمهوريات والدول الصغيرة الزاهرة التى تسطع تواريخها كاللآلئ فى حلك العصور الوسطى، ثم لا يلبث حتى يغمر معظم أمم الشمال والغرب .

ولكنه أيضا عصر الإنقلابات السياسية والاجتماعية العنيفة ، والشهوات المضطرمة، والمؤامرات والدسائس المروعة، وعصر المعارك الدينية والفورات المذهبية ، وطغيان الأحبار وعصف مجالس التحقيق[1] ؛ وإذا كان يبدو فى ايطاليا من بعض النواحى فى أسطع وأبهى ألوانه، فانه يبدو من بعض نواحيه الأخرى فى ألوان قاتمة، فيما يحرف المجتمع الايطالى يومئذ من عوامل الفساد والانحلال ، وغمر اللهو والفجور والترف ، وتدهور معانى الفضيلة والحشمة والحياء، واضطرام نزعة العدوان والإجرام والشر ، وعلى الاجمال فى تغلب الغرائز والشهوات المادية على المثل الروحية العليا .

---

(١) نقصد بها المحاكم الكنسية التى تعرف خطأ «بديوان التفتيش» (Inquisition)

كان المجتمع الايطالى يومئذ، كالمجتمع الرومانى فى عصوره الأخيرة، يسطع بأشعة عظمته الأخيرة، ويسطع فى نفس الوقت بحياة المجون العاصف، والترف الناعم .

+
+ +

فى أواخر القرن الخامس عشر تألق فى أفق ذلك المجتمع الايطالى الزاهر، نجم أسرة جديدة طبعت تلك المرحلة من تاريخ رومة بطابعها الخالد، وأسبغت مدى حين على المجتمع الرومانى آية من الفخامة والبهاء، ونثرت عليه ألوانا من المرح الصاخب، ولكنها بسطت عليه فى نفس الوقت ريحا من التوجس والخشوع والروع .

تلك هى أسرة بورچيا التى اعتلى مؤسسها وعميدها ردريجو بورچيا عرش البابوية باسم اسكندر السادس، وأنشأ ولده الطاغية شيزارى (سيزار) بالسيف والنار مملكة رومانية قصيرة المدى، وأثارت حياة ابنته الحسناء لوكريسيا ثبتا حافلا من التواريخ والأساطير الذائعة .

لوكريسيا (أولوكريس) بورچيا ! تلك الحسناء الفاتنة التى تحيطها الروايات المعاصرة أحيانا بألوان ساحرة من البهاء والفخامة، وأحيانا بألوان مثيرة من الإثم والرذيلة، وتصورها أحيانا ملكا كريما يسمو عن ذلك المجتمع الرومانى الفياض بالدسائس والمثالب والجريمة، وأحيانا غانية آثمة تنحط الى أسفل درك من الفجور والدنس، هى نموذج لتلك الشخصيات النسوية الساحرة التى يثير جمالها وسحرها حولها نوعا من الغموض والخفاء، فلا يستطيع التاريخ أن يقول فيها كلمته بعيدة عن مؤثرات الرواية والخيال .

كانت لوكريسيا ابنة للكردينال ردريجو بورچيا من خليلته الرومانية روزا ڤانوزا (وهو مختصر چوڤانوزا) . وكان ردريجو ينتمى الى أسرة اسبانية نزحت قبل ذلك الى ايطاليا وسمت إلى بعض الوظائف الكنسية الرفيعة،

وتولى أحد أعضائها كرسى البابوية باسم كالستوس الثالث ، ورقى ردريجو ولد أخيه الى مرتبة الكردينال . وكانت ڤانوزا كانتانى فتاة حسناء من أسرة طيبة ، وكانت زوجة لسيد يدعى دى كروتشى ، يشغل وظيفة فى الديوان الرسولى ، فهام بها الكردينال ردريجو ، وأغضى كروتشى عن تلك العلاقة الغرامية لما غمره به الكردينال من صنوف الرعاية والبذل . ورزق الكردينال من خليلته بأربعة أولاد هم : بيدرو لويس الذى توفى حدثا ، وچوڤانى (چان) وشيزارى (سيزار) ولوكريسيا ، وچوفرى . وكانت ڤانوزا تقيم مع أولادها فى منزل يجاور قصر الكردينال ، ولم تكن علائقهما سرا ، بل كانت أمرا ذائعا فى المجتمع الرومانى ، حتى ان ڤانوزا كانت تدعى ڤانوزا بورچيا .

وعهد الكردينال ردريجو بتربية ابنته لوكريسيا الى ابنة عمه أدريانا دى ميلا أورسينى ، وهى سيدة رفيعة المقام والخلال يثق بها أعظم ثقة ، فبعثت بالطفلة الى دير القديس سكستوس فى وادى «الأبنين» على مقربة من رومة ؛ وتلقت لوكريسيا هنالك تربية دينية عميقة ، ودرست الايطالية والاسبانية والفرنسية واللاتينية والرسم والموسيقى ، وتلقت بالجملة تربية تليق بأميرة عظيمة .

وفى سنة ١٤٨٩ ، هجر الكردينال ردريجو خليلته ڤانوزا واستبدلها بفتاة رائعة الحسن تدعى چوليا فارنيسى من أسرة فارنيسى الشهيرة ، ورأى حرصا عليها أن يزوجها ، فزوجها بفتى يدعى أورسينوس وهو ابن لابن عمته أدريانا . وكانت لوكريسيا عندئذ فى التاسعة من عمرها — لأنها ولدت سنة ١٤٨٠ — وبعد عامين فقط رأى والدها أن يزوجها ، وعقدت خطبتها على فتى نبيل اسبانى يدعى الدون شيرو بينو ؛ ثم ألغيت هذه الخطبة بعد بضعة أشهر فقط ، وعقدت خطبة لوكريسيا على نبيل اسبانى آخر يدعى الدون جسبارو وذلك فى أبريل سنة ١٤٩٢ ، وكانت لوكريسيا عندئذ فى الثانية عشرة ، وكان خطيبها فى الخامسة عشرة .

ولم تمض سوى أشهر قلائل حتى وقع حادث عظيم فى حياة ردريجو بورچيا . ذلك انه فى ١١ أغسطس سنة ١٤٩٢، انتخب لعرش البابوية ، وتولاه باسم اسكندر السادس، وكان عندئذ فى الحادية والستين .

وكان اسكندر السادس من أعظم الأحبار الذين تولوا كرسى القديس بطرس ؛ وكان رجلا وافر الذكاء والعزم، وافر الدهاء والجرأة، قوى الشكيمة، مقداما لا يحجم عن وسيلة لتحقيق مشاريعه ؛ وكان يعشق حياة المجون واللهو ويشغف بالمرح الخليع ، ويهيم رغم سنه بالنساء الحسان ، ويعيش فى بذخ طائل ؛ وكانت مآدبه وحفلاته الشائقة من أعظم ظواهر الحياة الرومانية يومئذ ، ولكنه كان رغم بذخه ومجونه وخلاعته يقبض على مصاير الكنيسة والبابوية بيد من حديد، ويوجهها وفق إرادته ، ويأخذ بقسط وافر فى مجرى الحوادث السياسية العظيمة التى كانت تجوزها الدول الايطالية يومئذ ؛ وكان يقرن مصاير الكنيسة بمصاير أسرته ، ويعمل لمجد أسرته وأولاده ما استطاع سبيلا ، ويعد ابنه الأكبر شيزارى لمستقبل عظيم باهر ؛ وقد ترك لنا الكردينال دى قتربو زميل اسكندر السادس ومعاصره عنه وعن مجتمع عصره تلك الصورة القوية الآتية :

"كان اسكندر ذا ذكاء خارق ؛ وكان بارعا ، حازما ، نشطا، ثاقب النظر ؛ ولم يعمل أحد من قبل قط بمثل براعته، ولم يسر بمثل صرامته ؛ أو يقاوم بمثل ثباته . وكان يبدو عظيما فى كل شىء، فى تفكيره وفى كلامه وفى عمله وعزمه ؛ ولو تفتحت المواهب التى يتمتع بها ولم تخنقها رذائله العديدة، لكان أميرا وافر العظمة ؛ وكان يخيل لمن يشهده فى القول أو العمل أنه لم يكن ينقصه شىء ليقود العالم ؛ فقد كان دائما على أهبة لأن يحرم نفسه متعة الراحة، وكان يسرف فى ملذاته، ولكنها لم تحل مطلقا دون حمله عبء الشئون العامة . بيد أنا لا نستطيع رغم اتصافه بهذه الخلال أن نقول إن

عهده امتاز بيوم سعيد؛ ظلمات وليال عميقة . ولنضرب صفحا عن هذه المآسى المنزلية المروعة ؛ ولكن الاضطراب فى الأراضى الكنسية لم يكن أشد وأبلغ، ولم يكن السطو أكثر ، والقتل والعيث فى الطرق العامة أروع، ولم تكن طرق السفر أخطر، ولم تشهد رومة من قبل قط أياما أسوأ ساد فيها الشر والجريمة واللصوص ؛ ولم يك ثمة حق ولا حرية . كان المال والقوة والفجور صاحبة السلطان والحول؛ ولم تتحرر إيطاليا من النير الأجنبى إلا يوم انهار ذلك الطغيان البربرى "

* * *

كان اسكندر السادس أبا رحيما، يحب أولاده حبا جما؛ وكان أول عمل عائلى قام به إثر ارتقائه عرش البابوية ، هو إلغاء خطبة ابنته لوكريسيا لدون جسبارو؛ ذلك أنه لم يبق بعد قرينا كفؤا لابنة سيد الكنيسة وخليفة النصرانية؛ وأرغم دون جسبارو على التنازل عن الخطبة نظير مبلغ من المال، وطرحت مسألة زواج لوكريسيا على بساط البحث كرة أخرى . وهنا تدخلت العوامل السياسية التى أخذت تملى على اسكندر السادس خططه ومشاريعه فى تقرير مصير ابنته؛ ذلك أن صديقه الكردينال اسكانيو سفورزا الذى كان أكبر عون له على ارتقاء عرش البابوية سعى لعقد التحالف بينه وبين أخيه لودفيكو سفورزا طاغية ميلان ضد آل أورسينى أقوى أمراء رومة الاقطاعيين وحماتهم آل أراجون ملوك نابولى، ورأى توطيدا لهذا التحالف أن تزوج لوكريسيا من ابن أخيه جان (چوڤانى) سفورزا أمير بيزارو؛ وأثمر سعى الكردينال ، وعقد الزواج فى رومة فى أبريل سنة ١٤٩٣ ؛ وكانت لوكريسيا يومئذ فى نحو الثالثة عشرة ولكن سجل فى عقد الزواج أنها بلغت السن المرغوبة، وكان جان سفورزا فى السادسة والعشرين .

واحتفل بزفاف لوكريسيا فى قصر الڤاتيكان فى ١٢ يونيه احتفالا فخما

شهده أكابر الأحبار والأمراء والسفراء، ومثل چان سفورزا على يد وكيله المختار طبقا لرسوم العصر ؛ وفى المساء أقيمت حفلة شائقة فى قصر بلڤيدير، تحت إشراف چوليا فارنيسى حظية البابا ونخبة من سيدات رومة، وشهدها اسكندر السادس وأعضاء أسرته ؛ ويصف البابا شاهد عيان لهذا الحفل فى قوله : "كان عظيم القامة، مورّد الوجه ، أسود العينين ، يفيض صحة ظافرة، تمكنه من تحمل أعباء المنصب، وشئون الدولة، وعصف الملاذ، وكان دائما متألقا ظريفا رقيقا" . أما لوكريسيا بورچيا فقد كانت عندئذ فتاة صغيرة القد، شقراء تسطع كالذهب، خفيفة الروح والخلال، دائمة المرح ، يزيد فى سحرها الطبيعى القاهر، مسحة من الحياء ومحيا عذرى أو كما يصفه بعض الرواة المعاصرين محيا كاثوليكى، هو مظهر تربيتها الدينية ، وحياتها فى الدير، وتفيض نظراتها رقة ووقارا" .

وأفرد البابا لابنته قصر سان مارتينللو المجاور للڤاتيكان، وعين لها خليلته چوليا فارنيسى وصيفة شرف تقيم معها ، وكان قد فرق نهائيا بينها وبين زوجها ؛ وكانت كلتاهما آية ساطعة من الجمال والسحر ؛ واستمرت لوكريسيا مقيمة فى رومة حتى صيف سنة ١٤٩٤، وعندئذ حل برومة وباء الملاريا، فبادرت لوكريسيا الى مغادرة رومة مع زوجها الى قصره فى مدينة بيزارو تصحبها فى هذه الرحلة والدتها ڤانوزا ، وچوليا فارنيسى ، وعمتها ادريانا أورسينى ، فوصل الركب الى بيزارو فى ٨ يوليه . وكانت بيزارو مدينة متواضعة، ولكن بديعة تشرف على وديان نضرة على مقربة من الأدرياتيك ؛ وكانت إمارة متواضعة لا تقاس بإمارات فيرارا، وأربينو ومانتوا وغيرها من الإمارات الزاهرة فى ذلك العصر ؛ ولكن لوكريسيا كانت ذهنا رضيا متواضعا ، فتذوقت حياتها الجديدة بسرعة ، وقضت فى بيزارو زهاء عام كامل .

البابا اسكندر السادس — بريشة بنتوريكيو

ثم استدعتها بواعث الأسرة والسياسة الى رومة، فعادت اليها مع زوجها بمناسبة زواج أخيها الأصغر چوفرى من دوناسانشا وهى ابنة غير شرعية لألفونسو الأرجونى ملك نابل (نابولى) ؛ وأقامت لوكريسيا مع زوجها الى جانب أبيها واخوتها فى رومة، وكان اسكندر السادس يحرص على أن يستبق أولاده حوله فى المدينة الخالدة؛ فكان ولده چان أو دوق جانديا يقيم معه فى قصر الڤاتيكان، ويقيم شيزارى فى حصن سانت آنجلو المجاور للڤاتيكان ، وأخوه چوفرى على مقربة منه ، وتقيم لوكريسيا وزوجها فى قصر آخر مجاور لقصر الڤاتيكان .

وغدت لوكريسيا وزوجة أخيها سانشا زينة الحفلات الرسمية والاجتماعية فى الڤاتيكان، وكانت سانشا فتاة وافرة الحسن ، وافرة الجرأة ، عنيفة

الأهواء ، يقال إنها كانت تصطفى العشاق من الأمراء والكرادلة . وأما لوكريسيا فكانت متحفظة ، ولكنها كانت ترغم بحكم الظروف على خوض هذه الحياة الباهرة المنحلة التى كانت تسود قصر الڤاتيكان ، وكانت أداة مسيرة فى يد أبيها البابا وأخيها الطاغية شيزارى ، ولكنها كانت دائما فياضة المرح فياضة البهجة ، وكانت روح هذه الحفلات الباذخة الصاخبة التى كان يعشقها البابا ، والتى كانت دائما مثار الأقاويل والظنون .

وكان يسود ذلك المجتمع الرومانى الرفيع يومئذ نوع من الفساد الشامل وتغلب فيه حياة الفجور والمرح ، وما قولك فى مجتمع يقدّم فيه سيده وزعيمه الروحى — البابا — أسوأ المثل الأخلاقية فيصطفى الخليلات جهارا ، وينتزع الزوجات من أزواجهن ؛ ويقتنى فيه شيوخ الدين من كرادلة وأساقفة الخليلات جهارا ، وتتنقل فيه الزوجات الشرعيات ، زوجات الأمراء والكبراء بين أحضان العشاق من مختلف الطبقات ، ويغمره ظمأ التهتك والخلاعة ، ويغفل فى حفلاته وفى مرحه ومجونه كل مظاهر الحشمة والحياء ؟ هكذا يصف لنا بوركارت[1] مجتمع رومة فى عصر آل بورچيا . وقد كان بوركارت يومئذ مدير التشريفات البابوية ، وكان شاهد عيان لكثير من الحوادث والمظاهر والظروف التى امتاز بها العصر ؛ وقد ترك لنا عن حوادث عصره ومجتمع عصره مذكرات نفيسة سنعود إليها من آن لآخر .

كانت لوكريسيا بورچيا من آلهة هذا المجتمع ؛ وكان يثور حولها من الريب والظنون ما يثور عادة حول "آلهة" الجمال والحب . هل كانت هذه الفتاة الشقراء الفاتنة التى لم تجاوز السابعة عشرة من عمرها كما تصورها الرواية المعاصرة بغيا سافلة تتقلب بين أذرع عشاق لا حصر لهم ؛ بل تتقلب بين ذراعى أبيها — البابا ! — وبين أذرع إخوتها ؟ أم ظلمتها الرواية

(١) فى كتابه أو مذكراته اللاتينية المسماة Diarium أو "اليوميات" .

لوكريسيا بورچيا — بريشة بنتوركيو

وبالغت فى اتهامها اعتمادا على ظواهر خادعة ؟ هذا ما سنحاول أن نناقشه فى هذا البحث .

* * *

أقامت لوكريسيا فى رومة مدى حين ، أداة لمشاريع أبيها البابا وأخيها شيزارى ، ومستودعا لدسائس البلاط الرومانى ؛ وكانت تشعر أنها فى هذا المعترك تعيش فى نوع من الأسر ؛ وقد قالت فيما بعد : " إن رومة كانت سجنى " . وكان زواجها من چان سفورزا كما رأينا ، لبواعث سياسية ترجع الى رغبة اسكندر السادس فى تقوية التحالف بينه وبين لودڤيكو سفورزا طاغية ميلان وعم چان ؛ ولكن لودڤيكو لم يلبث أن ارتد عن هذا التحالف

الى محالفة شارل الثامن ملك فرنسا وتحريضه على غزو إيطاليا، والاستيلاء على مملكة نابل اعتمادا على زعم قديم بوراثة عرشها . عندئذ رأى البابا أنه لم تبق حكمة لبقاء هـذا الزواج ، فاعتزم الغاءه حتى يستطيع بعـد أن تسترد لوكريسيا حريتها أن يتخذها أداة لعقد صفقة أخرى .

ولكن چان سـفورزا لم يقبل الانفصال عن زوجته الحسـناء طوعا، فهدده شـيزارى بالقتل وفر الى بيزارو ؛ ولجأت لوكريسيا حزينة باكية الى دير القديس سكستوس لأنها كانت تحب زوجها، وعمد البابا لإبطال الزواج الى إجراء مدهش، فانتدب لجنة مؤلفة من كردينالين لتهيئة أسـبابه؛ ورأى الحبران أن يسندا الفسخ الى أن لوكريسـيا ما تزال بكرا عذراء ، وأن زوجها چان سـفورزا كان عنينا ولم يكن رجلا كاملا ؛ وأرغم البـابا ابنته على أن توقع إقرارا بأنهـا ما تزال بكرا عذراء كيوم مولدها ، وعلى ذلك أعلن فسـخ الزواج؛ ودهشت رومة، ودهشت إيطاليا كلها لهذا الزعم، لأن چان سفورزا كان فتى متين البنية، وكان أرمل توفيت عنه زوجته الأولى بعـد أن رزق منها طفلة ؛ وحاول چان أن يثور على هذا القرار وأن يقاوم ، ولكنه أذعن لنصح عمه لودفيكو وعمه الآخر الكردينال اسكانيو وكيل الكرسى الرسـولى، وارتضى مصيره صاغرا؛ وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٤٩٧؛ وكانت لوكريسيا يومئـذ قد بلغت عامها السـابع عشر . وهنا يصـيح مؤرخ معاصر هـو جيشارديني : "لم يحتمل البابا أن ينافسـه فى ابنتـه أحد حتى زوجها ! " وثار حول لوكريسيا سيل من أروع الاشاعات والأقاويل .

وحدث فى ذلك الحين أيضا حادث اهتزت له رومة، وهو مقتل چان دوق جانديا ابن البابا؛ وكان الى جانب الطلاق مستقى خصبا لهذه الإشاعات الغريبة التى تصور الأسرة البابوية عرينا من الضوارى التى جردت من كل عاطفة بشرية . وكان دوق جانديا أكبر أبناء اسكندر السادس، فى الرابعة

والعشرين من عمره، وأخوه شيزارى فى الحادية والعشرين؛ وكان البابا يعتبر ابنه البكر عميد أسرته من بعده ، ويرشحه دون شيزارى لكل مشاريعه السياسية العظيمة . أما شيزارى فقد زجه أبوه الى الحياة الكنسية ورقاه بسرعة كردينالا لبلنسية؛ ولكن شيزارى كان بطبيعته الوثابة المغامرة، وأطماعه الدنيوية البعيدة يزهد فى الحياة الكنسية ويتلمس وسيلة الفرار منها؛ وكان يرى فى أخيه الأكبر دوق جانديا حائلا دون أطماعه . ففى ربيع سنة ١٤٩٧ ، كان البابا قد عاد الى التفاهم مع مملكة نابل ، واتفق مع ملكها الجديد فردريك الارجونى على أن يتلقى التاج من قبل الكرسى الرسولى ، وأن يقطع بعض ولاياتها الجنوبية لدوق جانديا ولد البابا؛ وانتدب البابا ولديه چان وشيزارى للسفر الى نابل ، الأول ليتسلم اقطاعه الجديد ، والثانى ليمثله فى تتويج ملك نابل . وفى مساء ١٤ يونيه، قبيل رحيلهما، أقامت لهما والدتهما ڤانوزا مأدبة عشاء حافلة فى قصرها المتواضع؛ و بعد العشاء انصرف دوق جانديا مع أخيه شيزارى، ثم افترق الاثنان فى منتصف الطريق، وسار الدوق مع تابع له واختفى فى جوف الظلام؛ ولم يعرف قط ما حدث له بعد ذلك، ولكن تابعه وجد ملقى فى صباح اليوم التالى على شاطئ التڤيرى (التيبر) جثة هامدة ، وانتشلت جثة الدوق بعد ذلك من النهر، وقد أثخنت طعنا، ولم يكشف سر الجريمة قط .

وطار الخبر فى رومة بأن دوق جانديا قد قتل، وحزن البابا لمصرع ولده الأكبر أيما حزن ، ولبث يذرف الدمع الثخين مدى يومين وهو معتكف فى غرفته لا يتذوق طعاما ولا يرى أحدا . من اجترأ على ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء؟ ولأى الأسباب؟ كثرت فى ذلك الظنون والريب، وتنوعت التهم والبواعث، فقيل إن الجريمة من تدبير چان سفورزا انتقاما للتفريق بينه و بين زوجه؛ وقيل إنها من تدبير عمه الكردينال أسكانيو انتقاما لشرف

الأسرة؛ وقيل إنها من تدبير آل أورسينى ألد خصوم البابا؛ ولكن هذه التهم لم تلق كبير سند، أما أولئك الذين يعرفون آل بورچيا فقد ألقوا تبعة الجريمة على شيزارى بورچيا نفسه .

أجل، قتل شيزارى أخاه چان دوق جانديا لأنه يفوز دونه بعطف أبيه ويخصه أبوه دونه بمشاريعه السياسية، ويعتبره لسنه زعيم الأسرة . وشيزارى لا يطيق أن يرى دون أطماعه عقبة إلا سحقها . ولذلك التعليل ظاهر من الوجاهة، ولكن الرواية تذهب الى أبعد من ذلك، فنقول إن شيزارى قتل أخاه لأنه ينافسه فى غرام أختهما لوكريسيا !

أرأيت كيف تميل الرواية دائما الى تصوير هذه الغادة الفاتنة إلهة للحب الأثيم والفجور فى أروع مظاهره ؟ كانت لوكريسيا خليلة أبيها، خليلة أخويها ! وكانت ثمة معارك خفية تضطرم فى ذلك العرين بين عباد الجمال والهوى المحرم؛ وكان چان سفورزا زوج لوكريسيا أشد الناس تأييدا لهذه التهم، يؤكد لزملائه الأمراء ولصحبه وللناس جميعا أنه اذا كان البابا قد عمل على تمزيق العلائق التى تربطه بزوجته لوكريسيا، فذلك بسبب الهوى الأثيم الذى بثته الى أبيها، وأنه اذا كان شيزارى قد دبر مقتل أخيه وألقاه فى التيبر، فذلك بسبب المنافسة بينهما على حب لوكريسيا . وكانت الفضيحة رائعة، والتهم أروع، تجوب ايطاليا من أقصاها الى أقصاها، وتجوب قصور أوربا كلها، ويتناولها الرواة والسفراء والشعراء بالتدوين نثرا ونظما باعتبارها من أهم حوادث العصر وأعجب السير .

وهنا يرى بعض النقدة المحدثين الذين يميلون الى تبرئة لوكريسيا من هذه التهم الشنيعة، ان هذه الخصومة الزوجية هى أصل هذه التهم وهى روحها، وان هذه التهم قد تلقاها المعاصرون من الأفواه الخصيمة، ثم زادوا عليها

وبالغوا فى تصويرها، ثم تناقلتها أجيال الخلف، واستمرت على كر العصور مستقى خصبا للشعراء وكتاب القصص (١).

* * *

لم تمض أشهر قلائل حتى وضع مشروع جديد لزواج لوكريسيا ؛ وكان اسكندر السادس يتجه يومئذ نحو مملكة نابل، ويلتمس وسيلة لبسط نفوذه عليها ؛ وكان يرى هذه الوسيلة فى تزويج ابنه شيزارى من ابنة فردريك ملك نابل، ولكن ملك نابل أبى أن يزوج ابنته "لقس ابن قس". بيد أنه ارتضى أن يتخذ ابنة البابا زوجة لألفونسو ولد أخيه غير الشرعى، وعقد الزواج الجديد فى قصر الفاتيكان فى يوليه سنة ١٤٩٨ ؛ وكان الزوج الجديد فتى حدثا لا يجاوز السابعة عشرة، وكان جميلا، حلو الشمائل، تصفه الرواية المعاصرة بأنه أجمل فتى فى رومة ؛ وكانت لوكريسيا عندئذ فى الثامنة عشرة ؛ ومنح الفونسو دوقية بيزيليا، وغدت لوكريسيا دوقة بيزيليا ؛ واشترط أن يقيم الفونسو مدى عام فى رومة، وألا تغادر لوكريسيا رومة إلا بعد وفاة أبيها ؛ وشغفت لوكريسيا بزوجها الفتى النضر، وعاشت مدى حين فى نوع من السعادة والسلام .

ولكن هذه السكينة لم يطل أمدها . ذلك أن اسكندر السادس ألفى فرصة جديدة للعمل السياسى ؛ وكان ملك فرنسا الجديد لويس الثانى عشر يتوق الى التخلص من زوجه آن دوقة برى، والتزوج من الدوقة جنه أرملة سلفه شارل الثامن لكى يستطيع أن يضم إمارتها بريتانيا الى مملكته ؛ وكان لابد له لاجراء الطلاق من مرسوم بابوى ؛ فرأى اسكندر السادس أن يجيز هذه الرغبة، وبعث ولده شيزارى الى فرنسا، ليلقى صيغة الطلاق،

(١) هذا ما يقوله العلامة فونك برنتانو فى كتابه عن لوكريسيا وعصرها : Lucrèce Borgia; p. 60 وسنعود الى هذا الكتاب فيما بعد .

فاستقبله ملك فرنسا أعظم استقبال، وأنعم عليه بلقب دوق ڤالنتنوا؛ وعندئذ خلع شيزارى ثوبه الدينى، وزوجه لويس الثانى عشر من أميرة فرنسية هى شارلوت دلبير أخت ملك ناڤار، وبذلك وثقت أواصر التحالف بين فرنسا والڤاتيكان، وكلاهما خصم لمملكة نابل وكلاهما يدعى فيها حقوقا .

وهنا فكر شيزارى فى التخلص من زوج أخته الجديد إذ غدا يراه عقبة فى سبيل مشاريعه، وشعر الفونسو دوق بيزيليا بحرج مركزه فى الڤاتيكان إزاء تطورات الحوادث على هذا النحو، وخشى بالأخص غدر شيزارى وعدوانه ففر من رومة والتجأ الى آل كولونا فى جينازارو، تاركا زوجه الفتية حاملا تبكى فراقه؛ واستمر يكاتب لوكريسيا ويتوسل اليها أن تلحق به، ولوكريسيا مستسلمة الى حزنها لا تجرؤ على تلبية دعوته . فلما رأى البابا يأس ابنته، فكر فى وسيلة للجمع بينها وبين زوجها، لاتؤذى كرامته فى نفس الوقت، فعين ابنته حاكمة لسبوليتو؛ وسافرت لوكريسيا الى سبوليتو مع أخيها الأصغر چوفروا؛ وهنالك لحق بها زوجها؛ وأقاما هنالك مدى حين حتى هدأت العاصفة، ثم عادا معا الى رومة؛ ولم تمض على عودتهما أيام قلائل حتى وضعت لوكريسيا ولدا سمى ردريجو باسم جده البابا ردريجو بورچيا (٣١ أكتوبر سنة ١٤٩٩) .

واحتفل البابا بمولد حفيده فى حفلات شائقة، وغدت لوكريسيا كأنها ملكة رومة يحف بها الحب والعطف والاجلال أينما حلت، وأقطعها والدها حكم عدة مدن وجهات من أملاك الكرسى الرسولى .

ولكن القدر المروع كان جاثما يتربص . ففى مساء ١٥ يوليه سنة ١٥٠٠، بينما كان الفونسو دى بيزيليا زوج لوكريسيا يصعد درج الڤاتيكان المفضى الى الجناح البابوى، إذ فاجأه عدة رجال مقنعين وأثخنوه طعنا بالخناجر حتى خر صريعا يتخبط فى دمه؛ ثم فر الجناة دون أن يراهم أو يظفر بأثرهم أحد .

شيزارى بورجيا — بريشة رافائيل

ولكن الفونسو لم يمت عل الأثر؛ بل استطاع أن يجرجر نفسه حتى الجناح البابوى وهناك تلقاه البابا ولوكريسيا فى دهشة وانزعاج؛ وأغمى على لوكريسيا وأصابتها الحمى، وحمل الجريح الى إحدى القاعات، ولزمته زوجه تعنى به، وأقام البابا حرسا خاصا على غرفته؛ وأخذ يتماثل الى الشفاء سريعا.

ولم يك ثمة ريب فى مدبر هذه الجريمة الشنعاء، فقد كان شيزارى؛ وكان يرى بعد أن رزقت أخته بهذا الغلام، أن لاسبيل الى فسخ زواجها، وأن لاسبيل الى التخلص من الفونسو غير الجريمة؛ ولما لم تحقق هذه الجريمة الأولى غرضها، قرر شيزارى أن يعيد الكرة، فدخل ذات يوم الى حيث يرقد الجريح ومعه ميشليتو وصيفه وساعده الأيمن فى مشاريعه السوداء، وأبعد أخته عن غرفة زوجها، وأمر ميشليتو فأجهز على الفتى الجريح خنقا.

هكذا يقول لنا بوركارت مدير التشريفات البابوية فى مذكراته . ولم ينكر شيزارى الجريمة بعد أن حققت غايتها، وكان يقول إن الفونسو كان يزمع قتله فسبقه هو الى القصاص . ولم يفه البابا بكلمة احتجاج أو تذمر خشية بطش ولده الأثيم .

أما لوكريسيا الأرمل الثاكل والأم الحزين، فلم تستطع البقاء فى رومة، وذهبت بإذن أبيها تجرجر أذيال الحزن والعزلة فى قصر نيبى على مقربة من سبوليتو، وهنالك فعل النسيان فعله سريعا ، فلم يمض عام حتى استعادت الأرمل الفتية كل بهجتها، وعادت بسرعة الى رومة تخوض غمار هذه الحياة العنيفة الباهرة التى كأنما خلقت لها .

* * *

وفى يوليه سنة ١٥٠١ ، غادر اسكندر السادس رومة على رأس حملة عسكرية ليتم الاستيلاء على بعض المناطق والحصون المجاورة للولايات البابوية والتى يزعم للكنيسة حقا فى انتزاعها . وهنا وقع حادث فريد فى نوعه ومغزاه؛ ذلك أن اسكندر السادس انتدب ابنته لوكريسيا للقيام بالشئون البابوية أثناء غيابه؛ ويقول لنا بوركارت إن قداسته "عهد بالقصر كله، وتصريف الأمور الجارية الى ابنته السيدة لوكريسيا، وفوّض اليها أن تفتح كل الرسائل التى ترد لقداسته ، وأن تستعين فى المسائل الصعبة برأى كردينال لشبونة" وفى ذلك ما يدل على تقدير خاص من البابا لمواهب ابنته ومقدرتها على الاضطلاع بمهام الأمور . والواقع أن لوكريسيا بورچيا كانت فتاة وافرة العقل وافرة الذكاء ، تتبع سير الشئون العامة بدقة ، وتفهم بالأخص آراء والدها واتجاهاته المختلفة ؛ وكانت عند ثقة أبيها حيث قامت بمهمتها زهاء شهرين بفطنة وذكاء .

ثم عاد البابا الى رومة، واستأنف بلاط الڤاتيكان حياة البذخ والحفلات

الشائقة ، وكانت لوكريسيا يومئذ قد ناهزت عامها الحادى والعشرين ، واكتملت زهرة شبابها وجمالها .

وهنا ، وفى تلك الفترة ، تقدّم لنا الروايات المعاصرة ، أغرب الصور وأروعها عن تلك الحياة الأثيمة الفاجرة التى كانت تنتظم وراء جدران الڤاتيكان ، وتخوض لوكريسيا بورچيا غمارها الى جانب أبيها الحبر المتهتك وأخيها الطاغية الفاجر .

ومن ذلك تلك الحفلة الراقصة الشهيرة التى تفيض فى تفاصيلها روايات العصر وتسميها " مرقص الكستنه " والتى كانت مسرحا لأسفل ما يتصوّر الذهن الخليع من مناظر التهتك والفجور .

ويقول لنا بوركارت فى مذكراته إن تلك الحفلة الشهيرة كانت فى مساء ٣١ أكتوبر سنة ١٥٠١ ؛ وفيه استقدم البابا خمسين غانية من أجمل نساء رومة ، ومثلن جميعا عاريات أمام البابا وابنه شيزارى وابنته لوكريسيا ، وقمن بأغرب المناظر الراقصة والماجنة التى يمكن تصوّرها ؛ ومن ذلك انهنّ كنّ يركضن عاريات على أربع وراء حبات الكستنه التى كان يلقيها البابا وابنه وابنته تحت الأضواء الساطعة ، وتعطى الجوائز للسابقات ، كما تعطى لأبرعهنّ فى عرض أغرب المناظر والأوضاع .

هذا ما يرويه بوركارت مدير التشريفات البابوية فى مذكراته الشهيرة بإفاضة مثيرة تحمر لها الوجوه وتندى الجباه حياء وخجلا ، وهذا ما ترويه معظم الروايات والتواريخ المعاصرة مع فرق فى بعض الوقائع والتفاصيل .

كانت هذه الحفلات والمناظر الشائنة تتكرر وراء جدران الجناح البابوى فى الڤاتيكان فى تلك الأبهاء الشهيرة التى أنشأها اسكندر السادس ، وأفاض عليها أقطاب الفنانين والمصوّرين أروع بدائعهم ، والتى ما زالت

تعرف حتى اليـوم " بجناح آل بورچيا " وتعرض لأنظار السائح المتجوّل ، فيحمله التأمل والخيال الى تلك الأيام والذكريات المرحة البعيدة .

* * *

وينكر بعض الباحثين المحدثين هذه الروايات المثيرة ولا يرون فيها سوى حديث خرافة أو على الأقل أحاديث مغرقة لاتؤيدها أدلة مقنعة ؛ ويستبعدون بالأخص أن تمثل لوكريسيا بورچيا فى مثل هذه الحفلات العاصفة الشائنة الى جانب أبيها وأخيها .

ولكن الرأى الغالب يميـل الى الاتهـام ؛ ويرى فى أقوال بوركارت ما يؤيد تهمة مخزية أخرى تنسب الى لوكريسيا ، هى عشرة المحرم التى أشرنا اليها ؛ والتى تزعم أنها كانت خليلة أبيها ، خليلة أخويها .

و إليك واقعة خطيرة يستشهد بها الاتهام . فى أوّل سبتمبر سنة ١٥٠١ ، أصـدر البابا اسكندر السـادس مرسومين ما زالا يحفظـان حتى اليـوم فى محفوظات موديـنا ، فى أوّلهما يعلن البابا بأن ابنه شيزارى قد رزق غلاما غير شرعى يدعى چوڤانى فى نحو الثالثة من عمره ، وأنه يبرئه من عيب هذا المولد غير الشرعى ، ويباركه ويعتبره ابنا شرعيا لولده شيزارى ، يتمتع بكل حقوق الوراثة الشرعية ، وينعم عليه بلقب دوق نيبى ؛ وفى المرسوم الثانى يقرّر البابا ، انه وإن كان يبرئ هذا الغلام ويرفعه الى مرتبة الولد الشرعى ، فإنه يقرّر بأن عيب هذا المولد لايرجع الى ولده شيزارى بل يرجع اليه هو (أى البابا) وسيدة حرة (من قيود الزواج) ، وان كل مايؤول اليه من الحقوق والمزايا طبقا للمرسوم السابق يؤول إليه أيضا بصفته ولد البابا وليس ولد ولده شيزارى ؛ أو بعبارة أخرى يعترف البابا فى هذا المرسوم بأن هذا الطفل هو ولده وثمرة غرامه .

فمن هى أم هذا الطفل " الرومانى " ؟ ومن هى هذه السيدة الحرّة ، حظية البابا أو حظية ولده شيزارى أو حظيتهما معا ؟ .

يقول المؤرخ الكبير اميل جبهارت فى الردّ على ذلك : إن مولد هـذا الغـلام الرومانى " چوڤانى " الذى تولت لوكريسيا فيما بعـد، حين غدت دوقة فيرّارا تربيته، باعتباره أخاها، هو أشدّ ما فى حياة اسكندر السـادس وحياة شـيزارى غموضا وإيلاما . والواقع أن لوكريسيا قد وضـعت فى سنة ١٤٩٨ ولدا يتفق مولده بالضبط مع تفاصيل المرسومين البابويين ، وتوجد مراسـيم أخرى فى محفـوظات الڤاتيكان تنسب هـذا الولد الى شيزارى . يقول جبهارت، فهذا الاعتراف المزدوج بالأبوّة، وهذا التناقض مما يسمح لنا بالاشارة الى عناصر هذه المسألة المحزنة دون أن نحاول بسطها .

وبعبارة أخرى يرى جبهارت أن هذا الغلام هو ولد اسكندر السادس من ابنته لوكريسيا أو ولد شيزارى من أخته، وأن ما كان ينسبه چان سفورزا الى زوجته عندئذ من أنها كانت خليلة أبيها، خليلة أخيها، انما هو حق صراح .

بيد أن العلامة فونك برنتانو يعترض على هذا الإيضاح بشـدّة ، ويقول إن بوركارت الذى يعـنى فى مذكراته بكل ما يتصـل بالفضـائح البابوية وبالأخص بفضائح لوكريسيا لا يشـير الى مولد هذا الغلام بشىء ؛ وليس بمعقول أن تعنى لوكريسيا بتربية غلام غير شرعى ينسب اليها فى بلاط زوجها دوق فيرّارا، وهو أمير رفيع الخلال والكرامة؛ وكيف تفعل ذلك، وقد تركت ولدها الشرعى ردريجو لعناية جده؟ ويرى هذا العلامة أن مصدر هذه الشنائع كلها هم سفراء البندقيـة لدى الڤاتيكان، وقد كانت مهمتهم الحقيقيـة أن يشهروا باسكندر السادس وأسرته وكل ما يتصل بها[1] .

ويرى بعض الرواة المعاصرين أن هذا الغـلام انمـا هو ولد البابا من خليلتـه چوليا فارنيسى؛ ويرى آخرون أنه ولد لوكريسيا من وصيف البابا المدعو پيروتو ، وقـد عاقبه البابا بأن زجه الى ظلام السجن ؛ أو أنه على

(١) برنتانو فى كتابه السالف الذكر ص ٩٢ وما بعدها .

أى حال ولد غير شرعى للوكريسيا من أب مجهـول، وأن اسكندر السادس أراد بمرسوم الاعتراف به أن يدرأ عن ابنته وصمة العار والإثم .

وعلى أى حال ، ففى هـذه الروايات والشواهد كلها ، ما يسبغ أشـد الريب على خلال لوكريسيا بورچيا؛ تلك الفتاة الطروب الفاتنة، التى كانت تخوض بلا انقطاع حياة فياضه بالفتنة والغواية،والتى كان جمالها الساحر يثير حولها ضراما من الشهوات الخطرة ؛ وربما كان فيها فوق ذلك ما يسبغ ريبا على علائقها بأبيها ذلك الحبر الفاسق الذى يسحق تحت قدميه كل مبادئ الأخلاق والحشمة ، وأخيها الطاغيـة الذى كانت الجريمة وسيلته الوحيدة الى كل غاية .

* * *

ننتقل الآن الى صفحة جديدة فى حياة لوكريسـيا بورچيا .

لم يكد يزهق زوجها الثانى الفـونسو دى بيزيليا، حتى وضع مشروع جديد لزواجها . وكان المرشح هـذه المرة ألفونسـو ديستى ولد دوق فيرارا وولى عهده؛ وكان الترشيح لنفس البواعث السياسـية التى ما زالت تملى على اسكندر السادس وشيزارى تلك المشاريع الزوجية المتعاقبة. وقد تردد الدوق وولده فى قبول هذه المصاهرة بادئ بدء لما يعلمانه من غدر البابا وولده، وما توصم به لوكريسـيا من شنيع التهـم ؛ ولكن سـفراء فيرارا قدموا عن لوكريسيا تقارير حسـنة وصفت فيها بالحشمة والتواضع والتحفظ، وبأنها ضحوك يغلب عليهـا المرح . وتمت الصفقة على أن يدفع البابا لابنتـه مهرا قـدره أربعون ألف دوقه ، وأن يتنازل لدوق فيرارا عن بعض الحصون والجهات، وأن يخفض أتاوته للكنيسة الى أدنى حد . وتم العقد فى فيرارا فى أول سبتمبر سـنة ١٥٠١؛ وفى اليوم الخامس احتفل البابا باشهار زواج ابنته فى كنيسة القديس بطرس احتفالا شائقا .

وفى أواخر ديسمبر قدم وفد حافل من أمراء فيرارا وأعيانها وعلى رأسه فرديناند ديستى أخو الزوج لينوب عنه فى استقدام زوجه، وشهدت رومة مدى أيام سلسلة من الحفلات والمآدب الباذخة والليالى الساطعة المرحة ؛ وفى السادس من يناير (سنة ١٥٠٢) أجريت مراسيم الوداع ؛ وغادرت لوكريسيا رومة فى ركب فخم من الأمراء والفرسان الى وطنها الجديد فيرارا، فوصلت اليها فى الثانى من فبراير بعد رحلة باهرة، واستقبلت بأعظم مظاهر الفخامة والتكريم .

وكان مقامها الجديد فى قصر قاتم موحش لا يتناسب مع مقامها الفخم فى رومة، ولكنها اعتادت حياتها الجديدة بسرعة، وعاشت فى هدوء وبساطة ولم تفقد شيئا من مرحها وبهجتها ؛ وكان هذا المرح الفياض يسحر أهل فيرارا ويجذبهم اليها، وكان زوجها ألفونسو ديستى فتى متين الخلق والخلال، كثير الخطورة والجد، يؤثر الاهتمام بالشئون الحربية، ولكن رقيق الشمائل وافر الثقافة، يعشق الفن ويحميه ؛ وكانت لوكريسيا تعيش معه فى وفاق، يحيط بها حب الأسرة الجديدة واحترامها .

بيد أن هذه الحياة الهادئة كانت تكدرها عن بعد مشاريع شيزارى وأعماله . وكان شيزارى يومئذ يخترق أواسط إيطاليا بجيشه، ويمزق العدو والصديق معا، ويحاول بتلك الوسائل الدموية الغادرة — التى أثارت إعجاب مكيافيللى وجعلته يعتبر شيزارى مثله الأعلى للأمير البارع — أن ينشئ مملكة رومانية كبرى ؛ وكانت لوكريسيا تقاسى فى عزلتها من التبعة المعنوية التى تلحقها من جراء هذه المشاريع والأعمال المثيرة .

ثم نزل بها مصاب فادح، ذلك أن ولدها ردريجو الذى كان يربى فى نابل فى أسرة أبيه توفى فى الثالثة من عمره (أغسطس سنة ١٥٠٢) فحزنت عليه أيما حزن، وأثر الحزن فى هيكلها الدقيق، فلزمت فراشها مدى حين

وجدا وأسى، ولكنها لقيت من عطف زوجها ووفائه فى محنتها ما خفف لوعة وجدها وعاونها على استكمال صحتها .

وهنا يحمل بعض المؤرخين على لوكريسيا ، ويتهمونها بالقسوة والنذالة لأنها لم تعن بتربية ولدها بنفسها فى حين أنها عنيت بتربية «الطفل الرومانى» الذى أشرنا الى قصته .

ولم يمض عام آخر حتى فقدت لوكريسيا أباها اسكندر السادس ، وكانت وفاته فى ١٨ أغسطس سنة ١٥٠٣ فى سن الثالثة والسبعين .

ويصف لنا المؤرخ جيشارديني وقع وفاته فى رومة فيما يأتى : «هرعت رومة بأسرها، وقد غمرها فرح لا يوصف ، الى كنيسة القديس بطرس، تتأمل ذلك الميت ؛ ذلك الشيطان الذى يضطرم طمعا ويفيض غدرا؛ ذلك الذى سممت قسوته الوحشية وبخوره المروع، وجشعه، وجرأته المثيرة فى ادارة الشئون المدنية والدينية ، جو العالم كله » .

ووقع النبأ كالصاعقة على لوكريسيا . ذلك أنها كانت تحب أباها رغم كل رذائله وآثامه ، حبا جما ؛ وكانت تشعر بأن هذا الحنان الفياض الذى كان يغدقه عليها دائما، هو ملاذ حياتها وعزها، فغمرها الحزن مدى حين . ولكن زوجها وأسرته استقبلا النبأ بارتياح؛ ولم تر لوكريسيا أباها مذ غادرت رومة عقب زواجها، لأن زوجها كان يأبى دائما أن تزور رومة أو يزورها أبوها فى فيرارا .

وقد كانت وفاة اسكندر السادس خاتمة ذلك السلطان الذى تبوأه آل بورجيا فى إيطاليا مدى ثلاثة عشر عاما ، وكان نكبة حقة لولده شيزارى . ذلك أن مشاريعه انهارت فى الغداة كما ينهار قصر أسس على الرمال بعد أن فقد ذلك العضد القوى الذى كان مصدر كل قوته وبطشه ، فالتجأ الى جونزالفو دى كردوفا قائد الجيوش الاسبانية فى نابل ، ولكنه اعتقله وسلمه الى ملك

اسبانيا فرديناند الكاثوليكى ، فزجه الى السجن معتزما أن يحاكمه على جرائمه التى أصابت كثيرا من أفراد أسرته ؛ ولكن شيزارى استطاع أن يفرّ من سجنه بعد خطوب جمة ، وأن يلتجئ الى حميه ملك ناڤار ، وهنالك جرح فى إحدى المعارك ، وتوفى فى سنة ١٥٠٧ ؛ واختتمت بذلك حياته المدهشة التى اتخذها الفيلسوف ما كيافيللى مادة لشرح كثير من آرائه فى خلال "الأمير" الأمثل .

* * *

فى يناير سنة ١٥٠٥ توفى هرقل ديستى دوق فيرارا ، فخلفه ابنه ألفونسو فى الحكم ، وغدت لوكريسيا بورچيا دوقة فيرارا .

وكانت فيرارا تجمع فى ذلك العهد طائفة من أكابر الكتّاب والشعراء والفنانين يظلهم الدوق برعايته ، أسوة بباقى القصور والعواصم الايطالية الزاهرة ؛ وكان ذلك السحر الذى تنفثه لوكريسيا أينما حلت يجذب اليها هذه الصفوة ، فتجتمع حولها فى ذلك البلاط الزاهر ، وتشملهم الدوقة المستنيرة النابهة بعطفها وحمايتها .

وكان من هؤلاء الشاعر الشيخ شتروتسى وولده هرقل شتروتسى وهو شاعر أيضا ، وأنتونيو تبالديو ، وكالكانينى ، ونيكوليو كوريجيو وهو من أعظم شعراء العصر ، وچاكوبو كانيشيو أسقف فيرارا ، وهو كاتب قاص ، ثم الشاعرين الفتيين لاريوستى و بيترو بمبو .

وكانت هذه الصفوة المفكرة تتغنى بسحر الدوقة الحسناء ، وتشيد بخلالها ومواهبها فى نثرها وشعرها ، وتهدى اليها كتبها وقصائدها . ومما يذكر أن شتروتسى الشيخ وصفها فى بعض قصائده بأنها "مجمع عجائب الأرض والسماء كلها ، وليس يوجد لها نظير فى العالم بأسره" .

وكانت لوكريسيا تبادلهم القريض أحيانا ، وتنظم باللاتينية قصائد ساحرة فتذكى بذلك إعجابهم وهممهم .

بيد أن هذا الجو الأدبى الزاهر كانت تكدره سحب الريب والظنون ؛ وكان أشد أولئك الشعراء تأثرا بسحر لوكريسيا بيترو بمبو ؛ وكان بمبو من سادة البندقية، فتى جميلا بديع الخلال والمواهب، بارعا فى التاريخ والشعر، وكان من شعراء بلاط فيرارا ومن أخصاء الدوق، يضطرم نحو الدوقة الحسناء إعجابا وحبا ، وكان يوجه اليها كثيرا من الرسائل والقصائد فى مختلف المناسبات ؛ ومن ذلك تلك القصيدة التى نظمها باللاتينية للاشادة بمعبودته : الى لوكريسيا بورجيا .

"أيتها الحسناء، أنت أجمل من أوربا، أنت ابنة ملك آجنور، ولست مثل هيلانة الاسبارطية التى اختطفها باريس الترواى ، تسمحين لجمالك أن يطغى على عبقريتك . واذا تناولت القلم لتكتبى القريض بنفسك، فانه لقريض يجدر بوحى الشاعر ؛ واذا راق لك أن تهزى أوتار القيثارة ، فان أمواج نهر پو ترتجف فى مجراها سحرا من غنائك ؛ واذا راق لك أن تستسلمى الى الرقص بقدمك الطائر، فآه ! انى لأخشى أن تلفتى نظر إله ما، فيأتى لاختطافك من قصرك ، ويحملك الى السماء ، ويجعل منك أيتها الحسناء الرائعة، إلهة كوكب جديد " .

كان بمبو يشعر نحو لوكريسيا بأكثر من الاعجاب والحب ، كان يشعر نحوها بهيام مبرح، وكان هذا الهيام يبدو فى قصائده ورسائله مع شىء من التحفظ تمليه عليه الظروف واتقاء الريب . ذلك أن ألفونسو ديستى كان أميرا صارما عنيف الأهواء ، وكان يحب زوجه ، وان لم تكن كل شىء فى حياته الغرامية ؛ وكان يحيط الزوجة بسياج منيع من غيرته وصرامته ، ويرد العواطف المتوثبة الى سحرها وجمالها فى مهادها .

بيد أن الروايات المعاصرة تقول إن لوكريسيا كانت تقابل حب بمبو بمثله ، وان علائقهما الغرامية اتصلت مدى حين أثناء اقامة الشاعر فى فيرارا

حتى سنة ١٥٠٦ ؛ وقد كان طبيعيا أن يتفتح قلب لوكريسيا فى مثل هـذه الظروف؛ فقد كان ألفونسو ديستى مشغولا عن حب زوجه بمشاريعه السياسية والعسكرية ،وكانت لوكريسيا تتأثر بجمال الشاعر ورقة شمائله وفيض هيامه، وكانت تبادله الرسائل؛ وما زالت رسالة منها تحفظ فى مكتبة امبرواز بميلان ومعها خصلة من شعرها، ذلك الشعر الذهبى الأشقر الذى كان يبث من حولها النور والسحر، وقد كانت نفحة الوداع . ذلك أن بمبو رأى أن يغادر فيرارا بغتة (سنة١٥٠٦) بعد أن أقام بها ثلاثة أعوام؛ وقد كان ذهابه نوعا من الفرار ، ولعله كان، اتقاء لريب الدوق وبطشه، وربما رأى المحبان أن الفراق خير وسيلة للسلامة من عواقب غرام خطر .

وقد لبث بمبو يكاتب معبودة قلبه من أوربينو مقامه الجديد حتى وفاتها فى سنة ١٥١٩ ؛ وهناك من يرى أن علائق لوكريسيا بالشاعر لم تتعد الصداقة الحميمة ، وأن هيامه بها لم يكن سوى نوع من عبادة الجمال والحب الفلسفى .

ولا ريب أن بمبو كان فتى حريصا فطنا حين خشى نقمة الدوق . ذلك أن زميله الشاعر الفتى شتروتسى وجد ذات يوم قتيلا مخضبا بدمائه (يونيه سنة١٥٠٨) وطارت الاشاعة فى الحال بأنه ذهب ضحية لغيرة الدوق وبطشه، ذلك أنه كان يهيم بالدوقة ويشيد بجمالها فى شعره دون تحفظ . ولكن رواية أخرى تقول إن لوكريسيا لم يكن لها فى تلك المأساة شأن ، وان الدوق كان يهوى فتاة حسناء هى بربارة توريللى، وقد تزوجت من شتروتسى، فقرر الدوق موته لكى يزيله من طريق هواه .

وعلى أى حال فان الرواية تقرن اسم لوكريسيا بكثير من مآسى الحب الخفية التى وقعت يومئذ فى بلاط فيرارا .

* * *

كانت لوكريسيا الى جانب هـذه الرعاية الأدبية التى تبذلها لأقطاب الشـعر والأدب تعاون زوجها فى حكم ولايتـه معاونة قيمة؛ وكانت تتولى ادارة الشئون العامة أثناء غيابه وتبدى فى تصريفها حزما و براعة .

وكان زواجا موفقـا فى البنين، فقـد رزقت لوكريسيا بغلامين أحدهما فى سنة ١٥٠٨ ويدعى هرقل ، والثانى فى العام التـالى ويدعى ايبوليت، ورزقت بعـد ذلك بعدة أعوام بابنـة دعيت الينور ، فغلام ثالث يدعى فرنشيسكو .

وخاضت ايطاليا مدى حين حروبا أهلية طاحنة، وحملت فيرارا قسطها من هـذه المعارك ، وتقلبت فى صعاب وأزمات شديدة ؛ ولكن لوكريسيا كانت فى هذه الأعوام العصيبة مثال الثبات والجلد، وكانت تعمل على تخفيف آلام الشعب ما استطاعت، وكان الشعب يحبها ويعتبرها كالأم الرؤوم .

وكانت لوكريسيا عندئذ فى عقـدها الرابع ، أمّا ناضجة ، وكأنمـا طوت كل مراحل هـذه الحياة فتية؛ وكانت قـد اختتمت منذ بعيد هـذا العهد الضاحك الذى كان قلبها يشع فيه مرحا وغبطة ، واستقبلت عهـدا جديدا تسوده الرزانة والخطورة، ويسوده الزهد والترفع عن متاع هذه الحياة، فكانت فى أعوامها الأخيرة فى فيرارا تذهب كل صباح الى "المعترف" .

أجل، كانت لوكريسيا تقترب بسرعة من الخاتمة المحتومة، ففى ١٤ يونيه سـنة ١٥١٩ وضعت لوكريسيا طفلة ميتة ، وكانت فى أشهر حملها الأخيرة تشكو آلاما مبرحة؛ وكان الوضـع هو الضربة القاضية، اذ اشتدّت عليهـا الآلام والمرض ، وشعرت بقضائها يدنو، فأملت فى يوم ٢٢ يونيـه خطابا وجهته الى البابا ليون العاشر، وفيه تلتمس من البابا أن يباركها فى عبارات بليغـة مؤثرة ؛ و بعـد ذلك بيومين فقط ، كان القضاء المحتوم ، وصعدت

الى بارئها تلك الروح الوثابة الساطعة ، وأغلقت لوكريسيا بورچيا عينيها الساحرتين الى الأبد، وقد أشرفت فقط على الأربعين من عمرها .

* * *

هكذا كانت حياة تلك التى أثارت فى عصرها بشخصيتها الساحرة وحياتها الساطعة، كثيرا من الحب والعطف ، والنقمة والروع؛ ثم غدت سيرتها بعد ذلك على كر العصور مستقى لكثير من القصص الشائق المثير معا .

والآن وقد فرغنا من تتبع هذه الحياة فى أدوارها المختلفة ، نعود فنحاول أن نتلمس فيها مواطن الحقيقة والخيال .

هل كانت لوكريسيا بورچيا تلك التى تصفها الرواية المعاصرة شيطانا للرذيلة والإثم ؟ وهل كانت تلك البغى السافلة التى تتقلب بين أذرع أبيها وأخويها ؟ أم هل كانت ضحية اتهام شائن تمليه الخصومة والحقد ؟

ان هذه التهم الشائنة التى تنسبها الرواية والقصة الى لوكريسيا بورچيا، والتى أشرنا اليها فيما تقدّم ترجع الى الروايات المعاصرة ذاتها، وهذا ما يسبغ عليها مسحة من القوّة ؛ وقد رأينا كيف أن بوركارت مدير التشريفات البابوية يثبتها فى مذكراته كوقائع حقيقية، وقد كان بوركارت بمركزه واتصاله المستمر باسكندر السادس وأفراد أسرته ، ممن يستطيعون الوقوف على الحقائق من مصادرها .

وقد حذا حذو بوركارت عدّة من المؤرّخين والرواة المعاصرين مثل جيشاردينى المؤرّخ والسياسى البارع، وقد كان من أعلام العصر؛ فهو يردّد فى كتابه " تاريخ ايطاليا " معظم التهم والآثام التى نسبت الى لوكريسيا والى أسرتها، إذ يقول :

"كان اسكندر السادس يغمره سيل من الفضائح . وقد أبدت أسرته من البغى والقسوة ما يثير أشدّ الأمم بربرية . وكان قد اعترم منذ ولايته

للبابوية أن يخص ولده البكر دوق دى جانديا بمجد أسرته الزمنى . ولكن كردينال بلنسية (شيزارى) كان يثور سخطا لكل رفعة تصيب أخاه ، وكان يتوق الى الحلول مكانه . وكان فوق ذلك يضطرم نحو أخيه حقدا، إذ كانت اختهما لوكريسيا تؤثره عليه وقد كانا يهيمان بها حبا . وكان هذا الساخط المتبرم لا يصغى إلا لحقده وأطماعه ، ولم يكن يتورع فى سبيلها عن ارتكاب أية جريمة . وهكذا دفعه الحقد الى اغتيال أخيه وإلقاء جثته فى التيبر بينما كان يتريض فوق جواده وحيدا فى رومة . وقد كانت الاشاعة تجرى فيما لو صحت مثل هذه النذالة المروعة، أن الأب كان ينافس الأخوين فى حب أختهما...[1]" .

ومن أدلة الاتهام المعاصر أيضا وثيقة خطيرة ، هى خطاب كتب فى سنة ١٥٠١ ووجهه كاتبه الى سيلفيو ساڤيللى ،وهو أحد النبلاء الاقطاعيين الذين نزع اسكندر السادس أملاكهم ؛ وكان فى ذلك الحين يقيم فى بلاط امبراطور ألمانيا مستنجدا به ؛ ولم يعرف كاتب الخطاب ، ولكن ذكر فى ختامه أنه حرر فى تارانتو فى المعسكر الملكى (الاسبانى) .

وفى هذا الخطاب يعدد الكاتب آثام اسكندر السادس وآل بورچيا ، ويتحدث عن أطماعهم وجرائمهم السياسية والاجتماعية ، وعما يرتكبونه من صنوف العيث والفجور والتهتك ، وعن انتهاكهم لسائر الحرمات الدينية والاجتماعية ، وسحقهم لكل مبادئ الحياء والحشمة ؛ ويتحدث بنوع خاص عن شيزارى بورچيا وجرائمه الدموية ، وعن لوكريسيا وعلائقها الأثيمة مع أبيها وأخويها ، وعن الحفلات الخليعة الشائنة التى يقيمها البابا وأبناؤه ؛ ويخص بالذكر حادث الحفلة الراقصة التى اجتمع فيها خمسون من غانيات رومة عراة أمام البابا وأولاده ، وارتكب فيها من صنوف التهتك المثير ما ارتكب وما أشرنا اليه فيما تقدم ، ويتحدث بوجه عام عن حالة المجتمع الرومانى فى ذلك

(١) F. Guicciardini: Histoire d'Italie de 1492-1532. Livre III. Ch. VI.

العصر، وما بثه اليه آل بورچيا من صنوف الفساد والإثم والروع، كل ذلك فى إفاضة ومنطق قوى، يدل على تمكن الكاتب من الشؤون التى يتناولها .

وقد ترجم هذا الخطاب الذى يعرف بخطاب "ساڤيللى" الى معظم اللغات الأوربية، ونشر فى سنة ١٥٠٢ فى جميع العواصم، وكان له وقع هائل فى ايطاليا، وفى أوربا كلها. وسجلته أيضا جميع التواريخ والروايات المعاصرة .

وترى هذه التهم ماثلة لا فى الروايات المعاصرة فقط، ولكن فى كثير من الكتب والرسائل السياسية المعاصرة، وفى شعر بعض أكابر الشعراء المعاصرين.

ويرى المؤرخ الألمانى جريجورڤيوس فى كتابه "تاريخ رومة فى العصور الوسطى"[1] فى هذا الخطاب وثيقة حقيقية تمثل صورة رومة فى عصر آل بورچيا، وأنه لا تفضلها وثيقة أخرى فى تصوير سياستهم الفاجرة، وما بثوه من الروع فى المدينة على يد أعوانهم وجواسيسهم .

غير أن جريجورڤيوس من جهة أخرى، يميل فى كتابه عن "لوكريسيا بورچيا" وهو من أهم الكتب فى موضوعه، الى تبرئتها من كثير من الروايات والتهم المغرقة التى نسبت اليها .

وما زالت سيرة آل بورچيا، وسيرة لوكريسيا، بما يتخللها من تلك الصور المروعة المثيرة، حتى العصر الحديث مستقى القصص والشعر، وقلما يخترع القصص أو الشعر فيها شيئا لم تدونه الروايات المعاصرة؛ ومع ذلك فان هذه القطع القصصية أو الشعرية تقوم على كثير من الوقائع المغرقة أو الخيالية المحضة التى لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها .

مثال ذلك ما كتبه اسكندر ديما عن « آل بورچيا » فى كتابه « الجرائم الشهيرة »[2] فقد تناول سيرة آل بورچيا ولوكريسيا فى فصل طويل فياض

(١) Gregorovius : Geschichte der Stadt Rom in Mittelalter

(٢) Les Crimes Célèbres

بالوقائع والصور المدهشة ، وقدّم لنا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى ، وابنته لوكريسيا فى أشنع الصور وأسفلها : طغمة من الأبالسة ، تسحق الحياة البشرية تحت أقدامها ، وتبث الدمار والموت فى أرجاء المدينة الخالدة ، بالسم والخنجر وكل وسيلة آثمة ؛ وقدم الينا لوكريسيا فى صورة بغى سافلة تعاشر أباها وتعاشر أخويها ، و جمعا كبيرا من الصحب والخلان .

ووضع ڤكتور هوجو قطعته المسرحية الخالدة « لوكريسيا بورچيا »[1] فجاءت مزيجا من تلك الروايات المغرقة المعاصرة . ولا بأس من أن نقدّم خلاصتها ليرى القارئ كيف أن الشاعر لم يلحظ فى مادته إلا أن تكون مثار السحر والروع :

هى قطعة نثرية فى ثلاثة فصول ، خلاصتها أن عدّة سفراء فتيان من فلورنس شهدوا فى مدينة البندقية (ڤنيزيا) مرقصا محجبا ، كانت تمثل فيه لوكريسيا بورچيا محجبة ، وكان معهم فتى يدعى جنارو ، وهو فتى مجهول النشأة لا يعرف له أما ولا أبا . وجلس الفتية الفلورنسيون يتحدّثون عن آل بورچيا و يرددون مايذاع عنهم من قصص القتل والآثام الشنيعة ؛ وجلس جنارو الى جانبهم وقد أخذته سنة من النوم ؛ و بعد هنيهة قدمت امرأة محجبة ، وهوت على جنارو بقبلة فاستيقظ من نومه . من هى ؟ هى لوكريسيا وهى أمه ، وهو ولدها الطبيعى ؛ ولم تستطع حين رؤيته أن تقاوم هذا الاغراء . ورفعت لوكريسيا قناعها لجنارو خلسة ، ولكن الفتية الفلورنسيين رأوها وعرفوها ، وظنوها خليلته ، واعترموا زيارتها معه فى فيرارا مقامها . وظن زوجها (دوق فيرارا) أن جنارو صاحبها ، فأمر بالقبض عليه وأراد أن يرغم لوكريسيا على إعدامه بيديها بحجة أنه أهان اسم آل بورچيا وذلك بازالة بعض حروفه المنقوشة على شرفة القصر ، ونفذ الدوق مشروعه فعلا ،

---

(١) Lucrèce Borgia

فأرغم لوكريسيا على أن تضع السم فى كأس جنارو، وأن تقدّمه اليه . ولما شرب الفتى الكأس المسمومة، تركها الدوق؛ فبادرت لوكريسيا الى إنقاذ جنارو وقدمت له الترياق ، فتردّد الفتى لأنه كان يعتبرها أشدّ إجراما من الدوق ، ولكنه شرب الترياق أخيرا ونجا من الموت .

وأرادت لوكريسيا أن تنتقم من الفتية الفلورنسيين الذين عرفوها وأذاعوا اسمها ، فاحتالت لدعوتهم الى العشاء عند إحدى صاحباتها، وبينما هم فى أرق لحظات المرح إذا بهم يسمعون أناشيد الحزن، ومن ورائهم صف من الرهبان والنعوش، فاعتقد الفتيان أنها مزحة مدبرة، ولكنها كانت الحقيقة الرائعة ؛ ذلك أنهم تناولوا السم فى الطعام والشراب، ولم يبق بينهم وبين الموت سوى لحظات ، ولكن شاء نكد الطالع أن يكون بينهم جنارو ، فتقدّم الى لوكريسيا يطلب نعشه؛ فذهلت لوكريسيا ، وحاولت أن تبادر الى إنقاذه، ولكنه لم يقبل، ولم يمهلها حتى أخرج خنجره، وما كاد يطعنها حتى صاحت : « إنى أمك ! » .

هذه هى خلاصة قطعة هوجو المسرحية الخالدة التى مازالت منذ نحو قرن تسحر ملايين النظارة ، وهى كما ترى قطعة من الخيال المغرق لم يراع الشاعر فيها شيئا من التاريخ الحق .

ومع ذلك فان ما كتبه اسكندر ديما وهوجو إنما هو نموذج فقط لمئات السير والقصص التى كتبت عن لوكريسيا بمختلف اللغات، وكلها نماذج للخيال المغرق والقصص المثير .

* * *

بيد أننا نرى فى عصرنا مؤرخا بارعا هو العلامة الفرنسى فرانز فونك برنتانو يحاول فى كتابه الذى أشرنا اليه من قبل أكثر من مرة أن ينتزع شخصية لوريسيا بورچيا من تلك الغمر المروعة التى أحاطت بسيرتها، وأن

يمحص تلك الروايات المغرقة التى امترجت بحياتها، وأن يرد كثيرا من التهم التى نسبت إليها .

وفى رأى هذا المؤرخ البارع الذى يدعم عرضه فى معظم الأحيان بمنطق خلاب، أن التاريخ قد ظلم لوكريسيا أشنع ظلم، وأن هذه الفتاة التى صورتها الروايات المعاصرة غانيـة فاجرة لم تكن سوى ضحيـة وأداة ذلول فى يد أبيها وأخيها، وأنها كانت تدفع دفعا الى مشاطرة هذه الحياة المثيرة التى كانت تنتظم فى قصر الفاتيكان ؛ ولكنه يرد عنها تهم الفجور الشنيعة التى نسبت إليها ، ولا سيما تهمة عشرة أبيها وأخيها، ويرتاب فى أقوال بوركارت وغيره من الرواة المعاصرين، ويرى أن هذه التهم ترجع فى الأصل الى الحملة القاذفة التى شهرها چان سفورزا زوج لوكريسيا الأول عليها انتقاما لفصله منها ، والى الحملات القاذفة التى دبرت أيضا ضدها وضد آلها فى بلاط نابل على أثر مقتل زوجها الثانى الفونسو الأرجونى، وهى حملات ظهر أثرها فى نظم الشعراء المعاصرين الذين يغذيهم بلاط نابل .

ويصور لنا برنتانو لوكريسيا فتاة ناعمة وافرة السحر والرقة، وافرة الذكاء والحزم، ويصورها لنـا فى فيرارا أميرة رفيعة الخلال تحمى الآداب والفنون، ويكاد يصورها لنا فى أعوامها الأخيرة قديسة فياضة الورع والتقوى .

وكتاب برنتانو قطعة بديعة من التدليل التاريخى، وقد يدفع بدقة منطقه كثيرا من التهم التى نسبت الى ابنـة اسكندر السادس ، ولكنـه مع ذلك لم يستطع أن يهدم كثيرا من العناصر الأساسية التى تمثل فى هذا الاتهام .

ومع أننا بالرغم من محاولة برنتانو البديعة ، ما زلنا نؤثر ناحية الاتهـام فى سيرة لوكريسيا بورچيا، فاننا نميل مع برنتانو الى الاعتقاد بأن كثيرا من الاغراق والمبالغـة يشوب تلك الصـور المروعة الآثمة التى تركتها لنـا سير العصر، عن تلك الشخصية الباهرة المظلمة معا .

الفصل الثانى

محاكمة مكيافيللى

سنة ١٥١٣

يتبوأ تراث مكيافيللى الفيلسوف والسياسى الإيطالى فى التفكير الغربى مكانة رفيعة . وقد مضت أكثر من أربعة قرون مذ وضع مكيافيللى كتاب « الأمير » الذى يعرض فيه آراءه فى الملك والحكم ، وأسبغت حوادث التاريخ ومبادئ الأخلاق على تلك الآراء سحبا من الإنكار والريب ، وأضحت فى عصرنا نعتا ذائعا لكل سياسة تقوم على مبادئ العنف والغدر وانتهاز الفرص ؛ ومع ذلك فإن هذه الآراء مازالت تحمل طابع الطرافة والقوة ، وما زالت عنوان السياسة العملية التى تقوم على تقدير الحقائق الواقعة ، وتحقيق النتائج المنشودة .

كان مكيافيللى فى تفكيره وفى فلسفته يسبق عصره بمراحل ، كما كان مفكرنا العظيم ابن خلدون يسبق عصره ومجتمعه بمراحل ؛ وابن خلدون يسبق مكيافيللى بأكثر من قرن ، ولكن يجمع بين المفكرين العظيمين تماثل عجيب فى العصر والظروف الاجتماعية والسياسية التى عاش كل منهما فيها ، وقد استمد كلاهما كثيرا من مبادئه وآرائه الاجتماعية والسياسية من دراساته وتجاربه الشخصية فى ميدان الحياة العملية التى خاض غمارها .

كانت حياة مكيافيللى وآراؤه إذا صورة بارزة من صور الحياة السياسية والاجتماعية فى عصره — عصر الإحياء الزاهر — وكانت فلورنس (فيرنتزا) وطنه ومسقط رأسه تسطع يومئذ كالمصباح المنير وتأخذ بأوفر قسط فى إحياء العلوم والفنون والآداب . وفى هذا المجتمع الساطع ولد نيكولو مكيافيللى

(سنة ١٤٦٩) فى أسرة عريقة فى النبل، وتلق تربية تؤهله للانتظام فى سلك الحياة الرفيعة . وكان مكيافيللى فتى فى عنفوانه حينما سقطت حكومة الطغيان التى أقامها آل مديتشى فى فلورنس قبل ذلك بنحو ربع قرن. وعادت الجمهورية فوطدت أقدامها (سنة ١٤٩٢) وانتظم مكيافيللى فى خدمة الجمهورية منذ عودها حتى سقوطها، وعود آل مديتشى فى سنة ١٥١٢، وتدرج فى وظائف الدولة حتى عين مستشارا وأمينا لمجلس العشرة أو مجلس الحكم .

وهنا يغدو مكيافيللى من رجال الدولة البارزين، ويأخذ بقسط ظاهر فى شئون الدولة والحكم، وتغدو خلاله ومواهبه موضع التقدير من زعماء الجمهورية، وتؤهله دائما للقيام بطائفة من المهام السياسية الدقيقة . ففى سنة ١٤٩٩ نراه سفير الجمهورية الى كاترينا سفورزا أميرة فورلى، وفى العام التالى نراه سفير الجمهورية الى فرنسا ليعقد مع ملكها لويس الثانى عشر اتفاقا بشأن محاربة بيزا . وكانت إيطاليا تضطرم يومئذ من أقصاها الى أقصاها، بمشاريع البابا اسكندر السادس (اسكندر بورچيا) وولده شيزارى؛ وكان مكيافيللى يشهد الحوادث العظيمة التى تجرى يومئذ ويدرسها عن كثب، ويكون بشأنها آراءه وملاحظاته، وقد كانت هذه الدراسة عماد كتابه «الأمير» فيما بعد. وفى سنة ١٥٠٣ نراه مبعوث الجمهورية الى روما ليشهد انتخاب البابا الجديد (چوليوس الثانى)، وهناك يتصل بشيزارى بورچيا، ذلك الأمير الذى أعجب بجرأته وروعة وسائله فى الحرب وفى الحكم، واعتبره فيما بعد «أميره» الأمثل، وخصه فى كتابه بفصل شائق يبدو فيه عميق إعجابه وتقديره . وما زال مكيافيللى رجل الجمهورية وسفيرها المختار فى جميع المهام السياسية الدقيقة، يمثلها تارة لدى البابا، وتارة لدى ملك فرنسا أو امبراطور ألمانيا، أو لدى الجمهوريات الإيطالية المختلفة؛ ويشهد أحداث الحرب والسياسة عن كثب، ويدرس طبائع الملوك والقادة، حتى

دخلت الحوادث الإيطالية فى طور جديد بانتصار البابا چوليوس الثانى وحلفائه على الفرنسيين وإجلائهم عن إيطاليا (سنة ١٥١١) وبذا وقعت فلورنس حليفة الفرنسيين تحت رحمة الظافر فأملى عليها البابا شروطه ، وكان منها عود آل مديتشى الى الحكم .

كان مكيافيللى ولد الجمهورية، نشأ فى ظلها وارتفع الى مصاف الزعماء والقادة. فلما انهار صرح الجمهورية، وأرغمت فلورنس على النزول عند إرادة الظافر واستقبال الحكم المطلق كرة أخرى، حاول مكيافيللى أن يستبق مناصبه وامتيازاته فى ظل العهد الجديد فى ظل آل مديتشى ، فكتب إليهم ناصحا متقدما ؛ ولم يكن مكيافيللى بالرجل الذى يروعه أو يسوءه تبدل السادة والنظم، وقد كان لآل مديتشى من جهة أخرى فى حكم فلورنس ماض مجيد وتراث زاهر ؛ ولكن آل مديتشى لم يصفحوا عن أولئك الذين أقاموا الجمهورية على أنقاض سلطانهم، واشتركوا فى رعايتها وتوطيدها، ولم يطمئنوا الى رجال مثل مكيافيللى يتقلبون مع الحوادث والحدود ؛ وإذا فما كاد آل مديتشى يتبوءون سلطان الحكم (على يدى چوليانو وچوڤانى ولدى لورنزو الأفخم) حتى ألغيت جميع القوانين التى صدرت فى عهد الجمهورية وطورد رجالها ودعاتها ؛ وفى السابع من نوفمبر سنة ١٥١٢ صدر قرار بعزل مكيافيللى من منصبه كأمين للجمهورية (سكرتير) وأمين لمجلس العشرة، وبعد بضعة أيام صدر قرار آخر يقضى بنفيه خارج العاصمة لمدة عام ويحظر عليه الظهور فى دار الحكم ، ثم تلاه قرار ثالث يحظر عليه مغادرة الأراضى الفلورنسية ويلزمه بتقديم ضمان مالى ضخم كفالة بالتنفيذ والخضوع .

وقد كان العزل والنفى شر ما يخشى السياسى والفيلسوف الكبير، ولكن يد المطاردة لم تقف عند هذا الحد؛ ذلك أن خصومه السياسيين أنصار الحكم المطلق لم ينسوا أنه كان عماد النظام المنتهى، وأنه يتمتع بكفايات سياسية

يخشى بأسها؛ فلبثوا يرقبون الفرص لسحقه واهلاكه ؛ وألفوا تلك الفرصة فى قصة مؤامرة نسب تدبيرها الى جماعة من الفتيان المعروفين بالوطنية ونصرة المبادئ الجمهورية بزعامة وطنى يدعى بيترو باولو بوسكولى ، وأنها تدبر لاغتيال چوليانو دى مديتشى وابن أخيه لورنزو، وضبطت مع بوسكولى ورقة بها أسماء من بينها اسم مكيافيللى ، فقبض عليه مع الباقين فى فبراير سنة ١٥١٣ ، وقدم متهما بالتآمر الى محكمة الثمانية مع بوسكولى ونفر من الزعماء الجمهوريين مثل اجستينو كابونى، ونيكولا فالورى، وچوڤانى فولكى وجوشو اديمارى، وبونشانى، وسيرالى وغيرهم .

وقررت المحكمة إحالة المتهمين على العذاب ومن بينهم مكيافيللى . ولما عذب بوسكولى وكابونى اعترفا بأنهما تعاهدا على افتداء حريات الوطن، ولكنهما لم يدبرا مؤامرة، ولم يأتمرا مع أحد ممن وردت أسماؤهم . ورغم ضعف الاتهام وركاكة الأدلة ، فقد صدر حكم محكمة الثمانية باعدامهما، وأعدما فى ٢٢ فبراير، وقابلا الموت بشجاعة مؤثرة، وأسبغ اعدامهما واسم مكيافيللى على الحادث خطورة لا محل لها . وكان موقفا مروعا ذلك الذى سيق إليه السياسى الفيلسوف ، فقد شد الى آلة جهنمية للتعذيب فى تلك العصور تبسط بواسطتها الأطراف بسطا أليما مروعا ، وكرر شده ست مرات ليعترف، ولقى من العذاب أهوالا ؛ ولكنه استعصم بحبل الانكار المطلق وأصر خلال الألم المبرح على إعلان براءته ، وقد كان مكيافيللى بريئا فى الواقع . ولم يكن اتهامه بالتآمر قائما على شىء من الأدلة أو القرائن الجدية، وانما كان وسيلة فقط لسحقه، وحماية النظام الجديد مما قد يخطر له من كيد أو سعى لتقويضه .

ومع أن مكيافيللى لم يعترف ولم تثبت ادانته بأى الصور، فقد لبث ملقى فى ظلام السجن بعد عذابه ، ولبث مصيره ومصير زملائه الآخرين

معلقا فى ميزان القدر . وعانى الفيلسوف فى سجنه آلاما مبرحة، وكتب عدة مقطوعات مؤثرة يضرع فيها الى الكردينال چوليانو دى مديتشى لينقذه، ويصف أحوال السجن وجدرانه القاتمة التى تعمرها الحشرات الكبيرة المتفخة . ولكنه ظل يرسف فى سجنه حتى كان ظفر الكردينال چوڤانى دى مديتشى بكرسى البابوية بعد ذلك بأسابيع قلائل واعتلاه باسم ليون العاشر، فعندئذ رأى البابا الجديد أن يفتتح عهده بالعفو عن المتهمين والمعتقلين من أنصار الجمهورية ، فصدر العفو فى الرابع من أبريل، وأطلق سراح مكيافيللى وزملائه، وغادر مكيافيللى السجن منهوك القوى وقد برحت به محنته وتركت فى نفسه أيما أثر. ويقول لنا فى آخر رسالة كتبها الى بعض أقاربه مشيرا الى تلك المحنة : « لقد كدت أفقد الحياة، ولم ينقذها سوى الله وبراءتى » وارتد الى ضيعته فى سان كاشانو على مقربة من فلورنس، وانقطع هنالك الى العزلة والتأليف ، وكتب فى تلك الفترة كتابه الخالد « الأمير » . ويصف لنا مكيافيللى حياته الريفية فى بعض رسائله وصفا شائقا ويقدم إلينا طرفا من البواعث التى حملته على وضع كتابه . ومن الغريب أنه يقدم هذا الكتاب الذى خلد اسمه فى تاريخ الفلسفة الاجتماعية الى لورنزو دى بيترو دى مديتشى أمير فلورنس . ولكن مكيافيللى لم يكن يعنى بتغيير السادة كما قدمنا ، وكان يسعى دائما الى اكتساب عطف آل مديتشى، أولئك السادة الجدد الذين كاد يفقد على يدهم الحرية والحياة . ولما توفى لورنزو بعد ذلك ببضعة أعوام ولم يعقب ولدا، طلب إليه عميد الأسرة ليون العاشر أن يكتب له رسالة عن النظم التى يجب أن تحكم بها فلورنس ، فكتب مكيافيللى تلك الرسالة بعنوان «خطاب الى ليون العاشر» وفيها تبدو محاولته فى التوفيق بين آرائه الحرة ومبادئه الجمهورية، وبين رغبات البابا الاوتقراطية . وكتب مكيافيللى فى تلك الفترة عدة رسائل أخرى سياسية واجتماعية ، ثم كتب بعد

ذلك تاريخه الشهير « تاريخ فيرنتزا » نزولا على رغبة الكردينال چوليانو دى مديتشى ، جاء مثل كتاب « الأمير » قطعة خالدة من الفصاحة والطرافة والقوة ، وحمله بنفسه الى رومة ليقدمه الى الكردينال عقب ارتقائه كرسى البابوية باسم كليمنضوس السابع . ولكن الحوادث تطورت عندئذ تطورا سريعا ، فهزم الفرنسيون فى واقعة « باڤيا » الشهيرة ، وسحق سلطان آل مديتشى فى رومة وفى فلورنس . وبادر مكيافيللى عندئذ بالعودة الى وطنه مؤملا أن يستعيد منصبه القديم فى ظل الحكومة الجديدة ، ولكنه ما كاد يصل الى فلورنس حتى أدركه المرض ، وتوفى بعد أيام قلائل فى ٢٢ يونيه سنة ١٥٢٧

وهكذا اختتمت حياة الفيلسوف والسياسى الكبير ؛ وكان قد اختتم حياته العامة منذ محنته ولم تتفتح من بعدها قط آماله السياسية . وكان لتلك المحنة وما لقيه الفيلسوف خلالها من آلام مبرحة أكبر أثر فى تطور نفسيته وخلاله ووجهة حياته كلها ، فقد انقلب المجاهد السياسى الى فيلسوف يدون تأملاته فى غمر العزلة ؛ وقد كانت هذه التأملات عماد ذلك التراث العظيم الذى خلفه لنا السياسى الفيلسوف .

ولم تنس فلورنس أن تضم فيلسوفها الشهير الى ثبت العظماء الخالدين من أبنائها ، فقد رأينا فى كنيستها التاريخية — سانتا كروتشى — نصبا تذكاريا مؤثرا لمكيافيللى الى جانب نصب دانتى ، وميكال آنجلو ، وجاليليو ، وغيرهم من أبطال توسكانيا الخالدين[1] .

(١) رجعنا فى هذا البحث الى المؤرخ الايطالى ڤيلارى (Life and Times of Machiavelli) وسسموندى (Hist. des Républiques Italiennes) . والى مكيافيللى نفسه فى كتابى « الأمير » و « تاريخ فيرنتزا » .

الفصل الثالث

حياة تشلليني العجيبة

مكتوبة بقلمه

١٥٠٠ — ١٥٧١

قد تفوق الحقيقة أحيانا من حيث الغرابة والروعة والميل الى المدهش كل ما يتصوره الخيال المغرق ، وهذه ظاهرة نلمسها فى كثير من حوادث التاريخ ، كما نلمسها فى الحوادث الفردية . ومن الأشخاص العاديين من تهيأ له حياة فياضة بالمخاطر والمغامرات المدهشة تجعل منه شخصية فريدة تخلق بذكر التاريخ ، وإن لم تؤثر فى مجرى حوادثه . وكثيرا ما تبدو هذه السير الشخصية العجيبة برائع حوادثها ومفاجآتها فى لون خارق لاتسبغه الحوادث العظيمة على التاريخ نفسه ، ولا يسبغه الخيال المغرق على القصة المبتكرة .

ومن هذه النماذج الغريبة للحياة الفردية حياة الفنان الإيطالى بنفنوتو تشلليني (Benvenutu Cellini) وهو نموذج قل أن يكون له مثيل فى الغرب أو الشرق ، ومما يزيد فى قيمته وروعته أنه يبدو كصورة خلابة رسمتها يد ذلك الفنان البارع عن نفسه وعن حوادث حياته . ومن الغريب أن تشلليني لم يكن كاتبا ولا أديبا يسبغ من أدبه وقلمه على حوادث حياته سحرا وقوة . ذلك أن معظم التراجم الشخصية التى انتهت الينا أتيحت لها أقلام بارعة صاغتها فى صور أدبية باهرة ، وكثيرا ما يتفوق الجمال الأدبى فيها على روعة القصة وسحر الحوادث . وهذا ما تمتاز به بالأخص آثار أدبية رفيعة كاعترافات جان جاك روسو وترجمة المؤرخ الفيلسوف جيبون لنفسه حيث يسمو سحر

البيان فى مواطن كثيرة على روعة الحوادث . ولكن تشللينى كان أكثر من كاتب وأديب : كان فنانا عظيما تجلى عبقرية الطبيعة فى مواهبه؛ و إنا لنلمس فى تلك الصحف القوية التى تركها لنا عن حياته العجيبة روعة هذه المواهب، وتحملنا بساطتها المؤثرة الى أعماق هـذه النفس المضطربة، ونكاد نشعر ونحن نتتبع تلك الصور الحية التى يرسمها لنا الفنان عن نفسه ، أننا نرى تشللينى نفسه لا تفصلنا عنه القرون ، ونشهد معه تلك الحوادث العجيبة التى يقصها علينا، ونشهد أحوال عصره ماثلة أمامنا ، فى ألوان ساطعة تسبغ عليها ريشته البارعة كل ما فى الحقيقة من قوة وروعة وحياة .

كان تشللينى من غرس عصر الإحياء ، ذلك العصر الذى يتألق فيه ثبت حافل من عبقريات يزدان بها تاريخ الانسانية؛ والذى أشرقت طلائعه على يد دانتى و بتراركا و بوكاشيو وماكيافيلى ، وميراندولا وجاليليو ، ثم على يد رفائيل سانزيو وميكال آنجلو وعشرات آخرين من أبطال الفن الرائع ترجمهم لنا جميعا، چورچو ڤازارى فى أثره الضخم[1] . وكان بنفنوتو تشللينى من جنود ذلك الجيش الباهر الذى لبث ضوء عبقريته يسطع فى جنبات إيطاليا زهاء قرنين ؛ ولم يكن فى الصف الأول من ذلك الثبت الحافل، ولكنه يقدم الينا بحياته الغريبة أقوى وأصدق مثل لعصره، بكل ما فيه من محاسن ورذائل ؛ ولا غرو فقد عاش تشللينى فى عصر البابوية الذهبى ، وعصر الحروب الأهلية والغزوات الأجنبية فى إيطاليا، واشترك بقسط وافر فى كثير من الحوادث العظيمة التى كانت تهز أسس المجتمع الإيطالى يومئذ، وشهد عن كثب سير أولئك البابوات والأحبار الذين كانت أقوالهم ونزعاتهم يومئذ كل شىء فى الملك والحياة العامة .

---

(١) وهو كتاب فى أربعة مجلدات يحتوى على تراجم المصورين والمثالين والمهندسين الإيطاليين حتى القرن السادس عشر .

ولد تشلليني فى أسرة متوسطة الحال فى سنة ١٥٠٠ بمدينة فلورنس (فيرنتزا) التى كانت يومئذ فى طليعة المدن الإيطالية الزاهرة، وكانت موئل الفنون والآداب؛ وكان أبوه مهندسا وموسيقيا يجيد العزف بالمزمار وفنانا يقوم بصنع التحف العاجية الدقيقة، وكان يحاول أن يغرس فى نفس طفله بنفنوتو حب الموسيقى ويرغمه على العزف والغناء، ولكن بنفنوتو كان يتضجر من الموسيقى، ويؤثر عليها الرسم. ولما بلغ الخامسة عشرة التحق على كره من أبيه بحانوت صائغ ماهر؛ وكان يهوى هذه الصناعة بطبيعته، ولكنه لم يلبث أن اضطر الى مغادرة فلورنس على أثر اشتراكه فى شجار دموى وقع بين أخيه وبين جماعة من جند الأمير، وقضى من جرائه بنفى الأخوين من فلورنس؛ فسار تشلليني الى مدينة سيينا، واشتغل هنالك حينا لدى صائغ آخر، ثم سعى والده لدى الكردينال دى مديتشى الذى انتخب لكرسى البابوية باسم كليمنضوس السابع، فسمح للأخوين بالعودة الى فلورنس، واقترح الكردينال على الأب أن يرسل ولده بنفنوتو الى بولونيا ليتعلم هنالك الموسيقى على أساتذة الفن بتوصية منه؛ فاغتبط الأب لذلك أيما اغتباط وقبل الفتى رغم ارادته لأنه كان يكره الموسيقى وينعتها "بالفن الملعون"، ولبث مدى أشهر يتعلم الموسيقى، ويشتغل أيضا بصناعته المحبوبة أعنى الصياغة وصنع القطع الفنية الدقيقة. ثم عاد الى فلورنس يزاول صناعته حتى اشتهر رغم حداثته، وتحدث الناس بمواهبه. وهنا اتصلت أواصر الصداقة بينه وبين فتى يدعى تاسو، وهو فنان حفار؛ فاقترح عليه أن يسافر الاثنان الى رومة، وكانت هذه أمنية تثير خيال فتى ذكى مخاطر مثل بنفنوتو، فقبل الاقتراح، وسافر الاثنان الى رومة، وكان تشلليني يومئذ فى التاسعة عشرة من عمره.

وفى رومة اشتغل تشلليني لدى أقطاب فنه، وزاد كسبه وتفتحت آماله الكبيرة. وكانت رومة فى ذلك العصر مدينة الأحبار، ومعقل الڤاتيكان، تنثر

عليها البابوية من سلطانها وبذخها وبهائها ألوانا رائعة؛ وكان الاتصال بذلك المجتمع القوى الباهر أشد ما يثير طلعة ذلك الفتى الطامح؛ وكانت البابوية وأولياؤها من الأحبار الأكابر يومئذ موئل الفن الرفيع، وملاذ الفنانين الموهوبين؛ فاستقر تشلليني فى رومة يرقب فرصه، ولبث الى جانب عمله يشتغل بدراسة النقوش والصور الخالدة التى خلفها ميكال آنجلو ورافائيل فى صروح رومة؛ ولم يمض سوى قليل حتى أتيحت له فرصة الاتصال بحبر كبير هو أسقف شلمنقة أصلح له بعض التحف وسر من مهارته وعهد إليه بصنع اناء بديع مزخرف؛ وعهدت إليه زوج الأمير تشيجى بصنع حلية من الجوهر. وهنا يفيض تشلليني فى وصف التحف والحلى البديعة التى كان يصنعها افاضة تدل على ما كان يجيش به من شغف بفنه ومهنته؛ وهنا أيضا يطلق تشلليني العنان لأهوائه المضطرمة ويصف لنا بمنتهى الصراحة والجرأة مواطن لهوه، ومناظر عبثه وفجوره، ويقص علينا كيف أصابه الوباء الذى عصف يومئذ برومة، عقب ليلة غرام قضاها مع فتاة خادمة لغانية حسناء جاءت لزيارة صديق له، فاختص الصديق بها، واقتنص هو الخادمة خلسة عنها. وقد قص علينا روسو فى « اعترافاته » كثيرا من مواطن لهوه وغرامه فى أحاديث صريحة واضحة؛ ولكن روسو يسبغ من بيانه على تلك الأحاديث فى كثير من الأحيان لونا من الحشمة، وتكاد تنم عن شعوره بالإثم والندم واحتقار مواطن الضعف الإنسانية. أما تشلليني فإنه يقص علينا تلك المناظر الآثمة بكل بساطة، ويصف لنا طبيعته المضطرمة الجامحة دون استحياء، ويكشف لنا عن دخائل نفسه دون تحفظ؛ وأخص ما يلفت النظر فى ما يقصه علينا من تلك الصفات النفسية، أنه كان شديد الإفراط والعنف، شغوفا بالمخاطرة، تواقا الى الانتقام، كثير المجون والاستهتار.

ونجا تشلليني من الوباء، بينما احتمل كثيرا من أصحابه ؛ ولكن رومة لم تكد تفيق من عيث الوباء حتى دهمتها مصائب الحرب والحصار، وزحفت الجنود الإمبراطورية — جنود الامبراطور شارلكان — على رومة بقيادة الكونستابل دى بوربون (سنة ١٥٢٧) . وهنا يبدو تشلليني فى ذروة الجرأة والمخاطرة ، فنراه رئيس فرقة سرية من الجند المأجورين يتولى حراسة قصر الساندرو دلبينى، ثم يخف مع سيده الى الأسوار المحصورة ليرى الجيش المحاصر . وفى ذلك الموطن يقص علينا تشلليني قصة لا ينقضها التاريخ ، وهى أنه حينما أشرف على الأسوار مع زملائه ليرقب سير المعركة رأى وسط الدخان رجلا يرتفع عن الجميع فصوّب بندقيته نحوه ، وأطلق مع زملائه فى تلك الناحية عدّة رصاصات ، وحدثت على أثر ذلك فى قلب الجيش ضجة كبيرة ؛ وشاع بعد ذلك أن الكونستابل دى بوربون قد قتل برصاصة أطلقت عليه من وراء الأسوار . ويدّعى تشلليني أنه هو الذى أصاب الكونستابل برصاصه . وليس فى ذلك ما ينقض التاريخ ، ولكن ليس فيه أيضا ما يؤيده . فقد سقط بوربون قتيلا فى بدء القتال من رصاص الجند المحصورين ؛ ولكن ليس ثمة ما يؤيد أن تشلليني هو صاحب الطلقة القاتلة . وعلى أى حال فان الحادث دليل على جرأة تشلليني ووافر شجاعته . ولم يمنع مقتل بوربون جنده من اقتحام المدينة فدخلوها فى عدّة مواضع دخول الضوارى المفترسة ، واضطر البابا كليمنضوس السابع أن يفرّ مع بطانته الى حصن سانت آنجلو الذى يتصل بقصر الفاتيكان باقبية سرية ؛ وكان ذلك الحصن الشهير الذى ما يزال الى اليوم قائما فى رومة على ضفة نهر تيبرى (التيبر) من أمنع وأعجب معاقل العصور الوسطى، يلجأ اليه البابوات بكنوزهم كلما دهم رومة خطر السقوط فى يد العدو، ويتخذ فى أوقات السلم سجنا تزج إليه البابوية أعداءها . واختار الجنرال دى مديتشى قائد الحرس

تشلليني ضمن حرس الحصن إذ كان يعرف شجاعته ، وكان الحصن مجهزا بالمدفعية من جميع نواحيه ، فانتخب تشلليني ليتولى إطلاق إحدى وحدات المدفعية ، ولبث مدى شهر يتولى هذه المهمة . ويقول لنا تشلليني أنه أتى فى ذلك بالعجب العجاب ، وحصدت قنابله كثيرا من جند العدو ، وباركه أكابر الأحبار وهنأوه على براعته ؛ وفى خلال ذلك استدعاه البابا كليمنضوس وكان قد عرفه من قبل وعهد إليه بصنع بعض التحف وأعجب بمهارته ، وطلب اليه أن يقوم باستخراج جميع التحف والحلى الرسولية من علبها واطاراتها الذهبية ، وبعد أن خبأ البابا الجواهر فى بطانة ثيابه وثياب بعض خواصه ، أمره أن يصهر القطع الذهبية سرا ؛ فأخذها تشلليني واشتغل بصهرها فى ركن صغير الى جانب مدفعيته ؛ ولبث أثناء العمل يطلق القنابل على جند العدو ؛ وهنا يقول لنا تشلليني انه أطلق قنابله ذات يوم على فارس يسير حول خنادق العدو فأرداه وتبين أنه هو البرنس دى أورانج كبير الجيش المحاصر .

بنفنوتو تشلليني

وبعد أيام قلائل عقد الصلح ؛ وسار تشلليني الى فلورنس ليزور أباه وأسرته ، ملىء الجيب ، يركب فرسا جميلا ، ووراءه خادم خاص . وبعد أن مكث قليلا سار الى مانتوا ليزورها ، واتصل بأميرها دوق مانتوا ، وصنع له بعض التحف الجميلة . ثم عاد الى فلورنس فألفاها تتأهب للدفاع عن نفسها ضد جنود البابا كليمنضوس ، فاعتزم أن يشترك فى الدفاع عن وطنه ؛ ولكن البابا كليمنضوس أرسل يستدعيه إليه ويعده بوعود حسنة ، فعاد إلى رومة ، واستقبله البابا مرارا ، وعهد إليه

بصنع حلى وتحف خاصة بثيابه وتاجه ، ثم عهد إليه بصنع نماذج للنقود تستعمل فى دار الضرب البابوية ، وأبدى تشلينى فى ذلك كله من المهارة والدقة ماجعل البابا يضاعف له العطف والبذل ويعينه ناظرا لدار الضرب . وهنا وقع حادث جديد يدل على صرامة تشلينى وعنفه ؛ ذلك أن أخاه الأصغر چوڤانى الذى كان يومئذ فى رومة ضمن جند الدوق الساندرو دى مديتشى اشتبك و بعض فتيان من صحبه ذات مساء مع جماعة من الحرس كانت تقود الى السجن صديقا لبعض أولئك الفتيان ، فأصيب چوڤانى خلال المعركة بجرح خطير ، وحمل مغشيا عليه الى قصر الدوق الساندرو ، فهرع إليه بنڤنوتو ، ولكنه أسلم الروح بين ذراعيه ، وعرف بنڤنوتو الرجل الذى طعن أخاه الطعنة القاضية ، فسار الى منزله ذات مساء وكان الرجل يتنزه أمام داره ، فطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر لها صريعا . وبذا انتقم لأخيه وشفى نفسه . وعاد الى عمله كأن لم يحدث شيء . وكان القانون يومئذ صريع الجاه والهوى . فمن كان ذا جاه أو حماية استطاع أن يجرى القصاص لنفسه وأن يستبيح دم خصومه .

واستمر بنڤنوتو حينا يقوم بخدمة البابا ، فأعاد صنع التحف الرسولية كما كانت قبل الحصار ، وكلفه البابا بصنع تحف أخرى ، فوضع رسومها ونماذجها ، وكان البابا دائما فارغ الصبر يستحثه على السرعة ، وبنڤنوتو لايدخر وسعا فى العمل ؛ وأصابه ذات يوم مرض فى عينيه ، وعاقه عن العمل حينا ، فغضب البابا واعتقد أنه يتقاعد عن إتمامه قصدا ، وكان ثمة بعض رجال من البطانة يحقدون على بنڤنوتو و يستكثرون عليه هذه الرعاية ، يدسون دائما فى حقه ويلتمسون الفرص لإحفاظ البابا عليه بحجة أنه مقصر فى أعمال قداسته ، وأنه كثير الحب للمال لايقنع أبدا بما يدفع إليه من الأجور والهبات ، وأنه كثير الادّعاء والغرور ؛ فأثمرت هذه السعاية ثمرها ، وطلب البابا من

بنثنوتو ما لديه من تحفـه فامتنع بنثنوتو من تسليمها بحجة أنها لم تتم وأنه لم يقبض أجرها، فقبض عليه بأمر البابا، وأخذت التحف قسرا عنه، ثم أطلق سراحه ؛ بيد أنه كان قد فقـد عطف البابا ؛ فحاول أن يجـد يومئذ عزاءه فى الحب ؛ وكان قد تعرّف بسيدة صقلية ذات ابنة حسناء وهام بحب الابنة واعتزم أن يختطفها و يفرّ بها الى فلورنس . ولكن الأم شـعرت بمشروعه، فسافرت مع ابنتها خلسة الى صقلية ، ولجأ بنثنوتو الى ساحر فى رومة ليعاونه على الاجتماع بحبيبتـه ولبث أياما يحضر الجلسات السـحرية خارج رومة، ولكنه لم يفز طبعا ببغيته . ثم نسى غرامه . ووجد عزاءه مرة أخرى فى فنه وفى التماس صنع بعض الحلى والتحف النادرة التى تدلل على أنه أستاذ عصره وأنه لا يجارى فى ابتكاره و براعته .

***

لم ينعم بنثنوتو تشلليني بالسكينة طويلا بعد الحوادث العاصفة التى خاضها وبعد أن فقد عطف البابا وحمايته . وفى ذات يوم وقعت مشادّة بينه و بين صديق قديم من مواطنيه كان برومة وكان يدينـه بشىء من المـال ، وسبه ذلك الصديق بألفاظ جارحة ، فغلب عليـه عنفه المعهود و ضربه فى رأسه بحجـر فسقط مغشيا عليـه ؛ وأبلغ الحـادث الى البابا . فأمر بالقبض على تشلليني وشنقه فى مكان الجريمة . ولكن تشلليني شعر بالخطر الذى يهدده ، واستطاع أن يفر من رومة فى الوقت المناسب . وقصد الى نابولى ، وأقام بها حينا، واتصل بدوقها وحظى بعطفه و رعايته ؛ والتقى هناك بحبيبته أنجليكا الصقلية . ثم وصله خطاب من الكردينال دى مديتشى حاميه القديم يأمره فيه بالعودة سريعا الى رومة ، فسافر إليها فى الحال ومعه أنجليكا ؛ واستقبله الكردينال بترحاب وطمأنه على نفسه وحريته ؛ و بعد أيام قلائل استطاع أن يزور البابا كليمنضوس، وأن يقدم اليه «مدالية» بديعة من صنعه، ثم سأله

الصفح والرعاية بكلمات رقيقة؛ فأعجب البابا بهذه التحفة، وأمره أن يصنع له تحفا أخرى تمثل بعض مناظر التاريخ المقدس، ووعده بالعفو والرعاية. ولكن البابا لم يعش طويلا ليحقق وعده، ومرض وتوفى بعد أيام قلائل؛ وحدث على أثر موته ذلك الاضطراب الذى يحدث عادة قبيل انتخاب البابا الجديد، ولبث بنفنوتو يرقب الفرص؛ ولكنه ارتكب فى تلك الأثناء جرما جديدا، وقتل رجلا آخر من رجال البطانة يدعى بومبيو تحرش به ذات يوم بكنيسة القديس بطرس، فسار إليه ولقيه على مقربة من منزله وطعنه بخنجره بين أصدقائه وأعوانه فألقاه صريعا. ويقص علينا تشلليني هذا الحادث الدموى وأمثاله فى عبارات صريحة هادئة كأنها حوادث عادية لاخطورة فيها، ويصور لنا بذلك مبلغ اضطرام نفسه، ومبلغ استهتاره بالحياة البشرية.

وانتخب الكردينال فارنيسى لكرسى البابوية باسم بولس الثالث، وعهد الى تشلليني بصنع نماذج نقوده، وأعطاه عهدا بالأمان. ولكن جماعة من خصومه وأصدقاء بومبيو القتيل لبثوا يدسون له لدى السنيور بيرلويجى ولد البابا حتى اعترم القبض عليه، ولكن بنفنوتو علم بهذه المؤامرة فى الوقت المناسب ففر الى فلورنس، وأقام بها حينا يخدم أميرها الدوق الساندرو دى مديتشى. وهنالك أصابته حمى شديدة كادت تقضى عليه، فلما برئ من مرضه، عاد الى رومة بعد أن استيقن أنه لم يبق ثمة ما يخشاه من كيد خصومه. وكان البابا يستعد فى ذلك الحين لاستقبال الامبراطور شارلكان، فعهد الى تشلليني بعمل صليب بديع من الذهب المرصع بالجواهر ليهدى الى الامبراطور، وتزيين كتاب للصلاة ليهدى الى الامبراطورة؛ ويصف لنا تشلليني هذه الزيارة التاريخية، وكيف شهد استقبال البابا للامبراطور، وقدم اليه الكتاب المرصع وخاطب جلالته بفصاحة وجنان ثابت، وكيف عكف بعد زيارة الامبراطور على صقل جوهرة بديعة أهداها الامبراطور للبابا وتركيبها فى خاتم بديع

الصنع . وكان تشلليني دائما هائم الذهن والخيال يهوى التنقل والمخاطرة ، فما كاد ينتهى من صنع التحف البابوية حتى اعتزم تنفيذ مشروع قديم عنده ، هو السفر الى فرنسا .

وسرعان ما نفذ عزمه ، وسافر الى فرنسا بطريق سويسرا وألمانيا ، مع خادم فتى يدعى اسكانيو . ولما وصل الى باريس سعى لرؤية فرانسوا الأول ملك فرنسا فاستقبله بترحاب فى فونتنبلو ، وسافر بنفنوتو فى ركبه الى ليون ؛ وهنالك مرض ولزم فراشه ، وأصابت الحمى فتاه اسكانيو ، فكره المقام فى فرنسا وعوّل على الرجوع الى رومة ، وغادر فرنسا فى أول فرصة ؛ فوصل الى رومة بعد رحلة شاقة ، وافتتح له حانوتا كبيرا فخما ، واستأنف عمله واتسعت موارده ؛ ولكنه لم يكن يتمتع بذلك العطف البابوى القديم الذى كان يستظل برعايته وحمايته ، وكان القدر من جهة أخرى يهيئ له أروع مفاجأة عرفها فى حياته . ذلك أنه كان يستخدم عاملا من بروجيا ، وكان يدينه ببعض المال ؛ ففر الرجل من حانوته ولم يؤدّ ماعليه ، فطالبه بنفنوتو بواسطة القضاء وحصل على حكم بحبسه ، فاستشاط الرجل غيظا واتصل ببعض أتباع السنيور بيرلويجى ولد البابا وكان يعرف عندئذ بالدوق كاسترو ، وأفضى إليه أن تشلليني يملك ثروة طائلة من الجواهر ، وأن هذه الجواهر هى من تحف الكنيسة ، سرقها تشلليني وقت الحصار حينما كان فى حصن سانت آنجلو ؛ وأنه يجب القبض عليه قبل أن يفرّ مرة أخرى . فأثمرت هذه السعاية ثمرها ، وفى ذات صباح جاء ضابط الشرطة مع سرية من الجند الى حانوت تشلليني ، ونبأه بأنه أضحى سجين البابا ، وأنه مكلف بأخذه الى حصن سانت آنجلو حيث يعتقل الأكابر والرجال الممتازون ؛ ثم أحاط به عدّة من الجند ، وجرّدوه من سلاحه ، واقتادوه الى الحصن ، وهنالك ألقى الى غرفة فى البرج الأعلى ، وكانت هذه أول مرة يذوق فيها مرارة السجن ، وكان يومئذ فى السابعة والثلاثين .

كان حصن سانت آنجلو فى ذلك العصر أمنع معاقل رومة ، ولا يزال الحصن الشهير قائما على مقربة من قصر الفاتيكان وميدان القديس بطرس ، على ضفة نهر تثيرى ، يشهد بطرازه العجيب ومناعته الخارقة بما انتهت إليه هندسة القلاع فى العصور الوسطى من الإحكام والتقدم . ولقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يزور حصن سانت آنجلو وأن يتجول فى أقبيته ومخادعه المظلمة ، وأن يرقى الى أبراجه الشاهقة ، وأن يتأمل طويلا فى جنبات ذلك الأثر المدهش ؛ وهو اليوم يستعمل متحفا حربيا تعرض فى طابقه الأول أسلحة العصور المختلفة ، ولكن طبقاته العليا لا تزال خالية تعرض لنا بعض الآثار الغريبة ، وأخصها الجناح الذى كان يسكنه البابوات كلما التجأوا الى الحصن ، وغرفة نوم البابا بولس الثالث وسريره وكرسيه . على أن أروع ما فى الحصن مخادعه المنيعة الواقعة فى الجهة الخلفية ، وهاوياته السحيقة التى تنساب الى أعماق مظلمة لا يدرك غورها . وهنالك مخادع معينة ، اشتهرت على كر العصور بمن زج إليها من العظماء والسادة ، فهذا مخدع تقول الرواية انه هو الذى سجن فيه بنفنوتو تشلينى ؛ وهذا مخدع تقول انه هو الذى زج إليه جاليليو ، وآخر زج إليه چوردانو برونو وهكذا ؛ ولقد لبث هذا الحصن المروع عصورا سجنا لمحاكم التحقيق (التفتيش) ، وكان مقبرة لكثير من العلماء والأحبار الذين قضوا نحبهم فيه ضحية المطاردة الدينية ، ولا يزال السائح المتفرج يشعر فيه برهبة تلك العصور وروعتها .

زج بنفنوتو تشلينى الى مخدع فى البرج الأعلى ، لاتزال تعينه لنا الرواية حتى اليوم ولبث ثمانية أيام منسيا لا يفاتحه أحد بشىء ؛ وفى اليوم التاسع قدمت الى السجن لجنة من ثلاثة على رأسها حاكم رومة ، ووجهت الى تشلينى تهمة اختلاس مقدار من الحلى وقت أن كان يعمل أيام الحصار

حصن القديس آنجلو برومة

بمدفعية الحصن ، وأسر إليه البابا كليمنضوس أن ينتزع الحلى الرسولية من إطاراتها ، وأن قيمة هذه الحلى قدّرت بمبلغ ثمانين ألف جنيه (كرون) وأن عليه أن يردّها أو يردّ قيمتها ، و إلا فانه سوف يترك فى سجنه . وعبثا حاول تشلليني أن يقنع اللجنة ببراءته ، وأن الحلى الرسولية مرصودة فى دفاترها فلتراجع فيها ، وأن دفاتره رهن تصرف اللجنة لترى أنها فى منتهى الدقة ، وأنه قد خدم الكرسى الرسولى بفنه وإخلاصه مدى أعوام طويلة ، فلا يحق أن يجزى بمثل هذا القصاص . ولما نقل دفاعه الى البابا أمر بمراجعة الحلى على قوائمها فوجدت تامة لا ينقصها شيء . ومع ذلك ترك تشلليني يرسف فى سجنه ، وكان البابا يحمله سعى بطانته ، قد أصبح يرى فى تشلليني رجلا خطرا يجب التنكيل به ، وزاد حنقه عليه أن رسولا جاء الى رومة من قبل فرانسوا الأوّل ملك فرنسا يسعى فى إطلاق سراح تشلليني ، ورد على السفير بأن تشلليني رجل شرير ، لا يستحق اهتمام جلالته . وكان محافظ

الحصن رجلا طيب القلب، فلورنسيا من مواطنى تشلينى فعمل على تخفيف وطأة سجنه ، وتركه فى الحصن حرا طليقا يتجوّل فيه كيفما شاء مكتفيا بعهده ألا يحاول الفرار ؛ وكان تشلينى ينفق وقته فى التجوال بالحصن وصنع بعض الحلى التى يأتيه بها فتاه المخلص اسكانيو ، وكان يسمح له بزيارته وبأن يحمل إليه ما شاء . ويقول لنا تشلينى انه لم يشأ أن يفكر فى الفرار لولا أن حادثا وقع فى السجن وحمل تبعته، وهو أن قسا زميلا له سرق منه قطعة من الشمع الذى يتخذ منه نماذج للحلى، وطبع عليها مفتاح غرفته ليحاول صنعه ثم الفرار فيما بعد، ولكنه ضبط واعتقد المحافظ أن تشلينى شريك فى هذا العمل ؛ فأمر باعتقاله فى غرفته وألا يبرحها بعد ، وشدّد عليه الخناق، ولم يحله من هذه القيود إلا بعد أن أقنعه تشلينى ببراءته ؛ وهنا أدرك تشلينى خطورة موقفه وأيقن أنه سيبقى عرضة لهذه المفاجآت الخطرة، إذا قضى عليه بالبقاء فى هذا الأسر ، ونمى إليه أن البابا يصر على اعتقاله ، وأن مساعى الملك فرانسوا فى سبيله لم تثمر شيئا، فأخذ يفكر فى مصيره ويرى ألا نجاة له من تلك المحنة إلا بالفرار .

وزاده عزما على الفرار حادث جديد وقع بينه وبين المحافظ . ذلك أن المحافظ كانت تنتابه فى بعض الأحيان أعراض جنون غريب فيتصوّر أنه ضفدعة أو خفاش ، أو يتصوّر أنه ميت يجب أن يدفن؛ ففى ذات يوم من أيام جنونه سأل بنفنوتو هل يفرّ ويطير إذا استطاع، فأجابه بنفنوتو، أنه إذا أطلقت له الحرية، فانه يصنع لنفسه أجنحة يطير بها ، وعندئذ أقسم المحافظ أنه سيعتقله كرة أخرى ويشدّد عليه الحراسة، وفى الحال نفذ وعيده وزج بنفنوتو الى غرفته ، ووضع تحت الرقابة الصارمة . ومن تلك الساعة أخذ بنفنوتو يدبر وسائل الفرار، وكان خادمه اسكانيو قد حمل إليه أغطية جديدة لفراشه، فمزقها شرائح وجعل منها حبلا طويلا، وكان لديه

أيضا خنجر، ومقبض حديدى كبير سرقه من نجار الحصن، فخبأ هذه الأشياء فى مرتبته؛ وبدأ يعمل لانتزاع المسامير الغليظه التى ثبتت بها مفاصل الباب، ويغطى مكانها بشمع قاتم حتى لايكشف أمره، وأنفق فى هذا العمل جهدا كبيرا حتى انتهى منه . وفى ذات ليلة اشتدّت فيها النوبة على محافظ الحصن واجتمع حوله معظم الحرس، اعتزم أمره . ويصف لنا تشلينى فراره فى عدّة صحف ساحرة رائعة كنا نحب أن ننقلها بنصها لولا ضيق المقام . وقد بدأ بأن دعا الله بحرارة أن يرعاه وينقذه. ثم رفع مفاصل الباب وعالجه حتى استطاع الخروج، وثبت الحبل المصنوع من شرائح الأغطية بنتوء فى سور البرج وأدلاه، وعاد فرفع بصره الى السماء قائلا «رباه انك تعلم عدالة قضيتى، فاشملنى برعايتك»، ثم أمسك بحبله وتدلى حتى وصل الى الأرض من ذلك العلو الشاهق، وظن أنه غدا حرا طليقا؛ ولكنه كان فى الساحة الداخلية يفصله عن الخارج سوران كبيران . بيد أنه لم ييأس، ورفع قطعة كبيرة من الخشب كانت ملقاة هنالك على السور الأول وتسلقها حتى القمة، ثم تدلى بحبل صغير كان معه الى الساحة الأخرى؛ وهنالك رأى أحد الحراس على مقربة منه فاعتزم أن يسحقه، وقصده شاهرا خنجره، ولكن الحارس ولاه ظهره؛ ثم تسلق السور الآخر، وهنا خانته قواه قبل أن يصل الى الأرض فسقط من ارتفاع، واصطدمت رأسه بالأرض وأغمى عليه؛ ولكنه كان عندئذ خارج الحصن .

يقول تشلينى « وقد كاد النهار يسفر، فهب علىّ الهواء الصبوح الذى يسبق بزوغ الشمس، وردّ الىّ حواسى؛ ولكن صوابى لم يعد تماما، وخيل الى أن رأسى قد فصل، وأننى انحدرت الى عالم العدم، ثم عادت الى قواى شيئا فشيئا، وأيقنت أنى غدوت خارج الحصن، وتذكرت فى الحال كل ما وقع، وشعرت بجرح رأسى قبل أن أشعر بكسر رجلى، وذلك حينما

مسستها ، ورأيت يدى قد خضبتا بالدماء، بيد أنى رأيت بعد فحصها أن الجرح لم يكن خطيرا . ثم أردت النهوض، وعندئذ رأيت ساق قد كسرت مما يلى الركبة ، ولكنى لم أيأس، واستخرجت خنجرى من غمده وألقيت الغمد لأنه كان ينتهى ببكرة كبيرة ، وهى التى اصطدمت بساق وكسرتها ، وقطعت بخنجرى قطعة من القماش وضمدت ساق، وامسكت خنجرى بيدى وزحفت على أربع نحو باب المدينة، وكان الباب مغلقا، ولكنى رأيت تحته حجرا ، فأزحته فتحرك، فدفعته ونفذت من الخرق الى داخل المدينة ، وكان بين الحصن والمدينة نحو خمسمائة خطوة؛ ولما دخلت المدينة هجم على عدّة من الكلاب، وأخذت تلاحقنى وتعضنى عضا أليما ، فسحبت خنجرى وطعنت أحدها طعنة نجلاء جعلته يصيح محتضرا فالتف باقى الكلاب حوله ، وأسرعت زاحفا على اليدين والركبتين صوب طريق « القديس بطرس » (الكنيسة) وكان النهار قد اسفر ، وشعرت بالخطر الذى يهددنى . وهنا قابلت سقاء وراء حماره المحمل بالقِرَب؛ فناديته ، ورجوته أن يحملنى الى شرفة سلم القديس بطرس ، وقلت له انى شاب فررت من نافذة صاحبتى، فكسرت ساق، ولما كان المنزل الذى اقتحمته منزل أسرة كبيرة فانى فى خطر القتل، ووعدته بأن أعطيه دينارا من الذهب وأريته كيسى المنتفخ، فحملنى فى الحال على ظهره وسار بى الى ميدان القديس بطرس ووضعنى عند الشرفة وعاد مسرعا الى حماره » .

واستمر تشلينى فى زحفه قاصدا الى منزل قريب لأميرة يعرف أنه يستطيع الالتجاء الى حمايتها ، وهى زوجة الدوق الساندرو دى مديتشى ؛ ولكن رآه عندئذ أحد حشم الكردينال كرنارو الذى يقع قصره فى ذلك المكان وعرفه، فهرول الى الكردينال ونبأه فأمر بحمله . فلما رآه هدأ روعه وطمأنه ، واستدعى الطبيب لعلاجه . وذاع نبأ الحادث فى رومة، فاهتز الشعب الرومانى دهشة

واعجابا لهـذه الجرأة . وذهب الكردينال كرنارو مع بعض زملائه الى البـابا وسألوه الصـفح عن ذلك الرجل الموهوب ، فأجاب بالعفو ووعد الإثابة . ولكنه طلب الى كرنارو فيما بعد أن يسلمه تشلليني ليقيم عنده فى إحدى الغرف السرية فاضطر كرنارو الى تحقيق رغبته لكى يحقق له بعض مصالحه ، وكانت نيات البابا نحو تشلليني غامضة ؛ وحمل تشلليني الى القصر البابوى ، واعتقل هنالك عدّة أيام ، وفى ذات مساء قدمت الى غرفته سرية من الجند وحملته الى حصن سانت آنجلو ، وألقته فى مخدع صـغير يطل على احدى الساحات الداخلية ؛ و بذا ردّ الى سجنه المروع كرة أخرى وغاضت كل آماله فى الخلاص ، وغلبت عليه الروعة والاستكانة . يقول تشلليني « وكان قبس ضئيل من النور ينفذ الى غرفتى التعسة من ثقب صغير مدى ساعة ونصف فى كل يوم ، فلا أستطيع القراءة إلا فى هذه الفترة ، أما باقى النهار والليل فكنت أمكث صابرا فى الظلام ، لا يفارقنى التفكير فى الله وفى ضعفنا الانسانى . وكنت على يقين من أنه لن تمضى أيام قلائل حتى أقضى نحبى فى هذا المكان وفى هذه الظروف . بيـد أننى كنت أروّح عن نفسى ما استطعت ذاكرا أن الموت بضربة من سيف الجلاد أشنع من ذلك وأفظع ، هذا بينما أستطيع الموت هنا هادئا كأننى فى غفوة النوم ؛ وشعرت شيئا فشيئا أن لهب حياتى يخبو ، حتى اعتاد جسمى البديع على ذلك الانحلال وحتى شعرت أنه اطمأن الى تلك الظروف التعسة ، واعترمت أن أحتمل آلامى المروعة فى سكينة وجلد ما بقى لى شىء من قـوة الاحتمال » . وكان ذلك لعام ونصف من اعتقاله الأول ، أعنى فى منتصف سـنة ١٥٣٩

* * *

زج بنفنوتو تشلليني الى غيـابة الحصن الرهيب (حصن سانت آنجلو) مرة أخرى ، وهو كسير الساق طريح الفراش ، وألقى فى تلك المرة الى غرفة

مظلمة ضيقة رطبة ، تمثل فيها روعة الأسر ورهبة العدم ؛ وشعر أن لهب حياته يخبو ، فانكب على قراءة الكتاب المقدس استعدادا للقاء ربه ؛ ولكنه بعد أن لبث أياما فى قراءته ، شعر أن قبسا جديدا يضىء حياته ، وتولاه نوع من السكينة المعنوية وصفاء النفس ؛ ويصف لنا تشلينى ذلك التطور النفسى الغريب الذى حقق له خلال الألم المبرح نوعا من السعادة ، وحوله من فتى مضطرم الأهواء والنزعات ، الى شبه قديس يتجرد بعواطفه نحو الملكوت الأعلى ، لا يذكر شيئا من ملاذ هذا العالم وحواسه ؛ ويقص علينا فى عدة صحف شائقة حوادث حياته الهادئة فى ذلك الظلام الدامس ، وكيف غدا عرضة للأحلام الروحية البديعة ، ويبدو تشلينى فى هذا الوصف كاتبا بارعا فى بيانه كثير من القوة والسحر ؛ والمحن تطلق البيان والشاعرية ؛ أجل ، وغدا تشلينى شاعرا أيضا يكتب فوق الصفحات البيضاء من « توراته » أبيانا من الشعر الصوفى ، ويشتغل بوضع قصيدته الكبيرة (الكابيتولو) فى وصف السجن ومديحه ، ووصف ماعانى من ألم وما آنس من سعادة نفسية .

ثم توفى محافظ الحصن ، صديقه القديم الذى كان يرعاه ويجتهد فى تخفيف محنته ، وخلفه أخوه فى منصبه . وكان البابا كلما خطر له أن يطلق تشلينى من أسره تدخل ولده السنيور بير لويجى وحال دون قصده . وكان خصوم تشلينى يودون موته بأى الوسائل ، وكان السم بالطبع أيسر وأنجع الوسائل التى تستعمل فى هذا العصر الفياض بالجريمة والغدر . وعلى ذلك عهد أحد رجال البطانة الى أحد حراس السجن أن يضع شيئا من مسحوق الماس فى طعام تشلينى ، وعهد بسحق الماس وإعداده الى صائغ من أريزو ؛ وقدم الطعام المسموم الى تشلينى فأكله ، ولكنه لاحظ فى النهاية ذرات تلمع فى أحد الصحون ، فخفق قلبه ، واعتقد بعد فحصها أنها ذرات الماس القاتلة . يقول : " فأيقنت عندئذ بأنى هالك ، وامتزج الحزن

والايمان فى قلبي حينما هرولت الى الصلاة . ولبثت مدى ساعة أواجه الموت المحقق، وأضرع الى الله، وأشكره على أن هيأ لى هذا الموت الهين، وشعرت برضى عميق ، وباركت العالم والزمن اللذين عشت فيهما ، والآن فانى أعود الى أرض أفضل برعاية الله التى أيقنت أنى كسبتها " . ولكن أملا غامضا فى الحياة حمله على أن يتأمل الذرّات اللامعة مرة أخرى ، وأن يفحصها بواسطة مدية صغيرة ، فانتهى بعد فحصها وسحقها الى أنها لا يمكن أن تكون من الماس ، وأنها مسحوق مادة لامعة أخرى لعلها لا تؤذى الحياة . والظاهر أن الصائغ الذى عهد اليه بسحق الماس قد طمع فيه واستبقاه لنفسه واستبدله بهذه المادة . وعلى أى حال فقد نجا تشلليني من هذه المحاولة ، واستمر أياما يرفض الطعام الذى يحمل اليه ما لم يذقه أمامه حارس السجن .

وقضى ربك أخيرا أن تختتم المأساة المروّعة وأن يطلق سراح البرىء . ذلك أن الكردينال دى فيرّارا مبعوث فرانسوا الأوّل ملك فرنسا قدم الى رومة لمفاوضة البابا فى بعض الشئون، وانتهز هذه الفرصة فالتمس من قداسته أن يفرج عن تشلليني وأن يسلمه اليه، منوّها باهتمام ملك فرنسا بأمره؛ فاضطر بولس الثالث أن يجيب ملتمسه، وأوفد رسوله فى الحال الى الحصن مع كبيرين من حاشية الكردينال ، وأفرج عن تشلليني وأخذ الى الكردينال دى فيرارا، فاستقبله بترحاب ، وأنزله بقصره ، فلبث به مدى حين ينفض عنه عثار السجن، ويستجمع قواه الذاهبة، ويستعيد مواهبه التى كادت تخبو . ولما انتعشت نفسه، عاد فانكب على عمله المحبوب، وأخذ يشتغل بطائفة من الأوانى والتحف التى عهد اليه الكردينال دى فيرارا بصنعها . ولما أتم الكردينال مهمته فى رومة اعتزم السفر الى فرنسا ، فسار تشلليني فى ركبه مع فتاه أسكانيو وزميل له يدعى باجولو، وسبقه الكردينال الى

فرنسا ؛ وتخلف هو حينا فى فلورنس وفيرارا، ثم كتب اليه الكردينال ليوافيه الى باريس، فسار اليها مع عامليه . ولم يكن راضيا عن معاملة الكردينال له من الوجهة المادية ، ولكنه لم يستطع التخلف قياما بحق الوفاء والعرفان لأنه هو الذى أنقذه من ظلام السجن . ووصل الى باريس ثم سار الى فونتنبلو حيث كان يقيم الملك وبلاطه، وهنالك لقى الكردينال، فأكرمه وأنزله منزلا حسنا ؛ ثم استقبله الملك فرانسوا الأول بترحاب وأغدق عليه عطفه، وقدّم اليه التحف والحلى التى صنعها لحسابه ، فأعجب بجمالها ودقتها وهنأه على براعته ، وعهد اليه بصنع تحف أخرى ، وأقطعه منزلا للعمل والإقامة، وأجرى عليه راتبا حسنا . وهنا يفيض تشلينى كعادته فى وصف التحف التى عهد اليه ملك فرنسا بصنعها والزخارف التى وضع نماذجها لبعض أبواب قصر فونتنبلو، ثم يصف لنا حياته اليومية فى عاصمة فرنسا . وكانت كالمعتاد حياة غامضة مليئة بالشجار والمنازعات ، وكان قد اتخذ له صاحبة جديدة، وهى فتاة فرنسية تدعى كاترينا، تشتغل لديه كنموذج فنى، فكانت هذه العلاقة مثارا لعدّة منافسات وفضائح غرامية يصفها لنا تشلينى بصراحته المعروفة . ويقص علينا كيف فاجأ ذات يوم فتاه باجولو متلبسا بالخيانة مع كاترينا ، وكيف تسممت بينهما العلائق من أجل ذلك، وطرد الفتاة الخائنة وصاحبها؛ ثم انتهى بأن رتب لهما انتقاما جهنميا هو أنه عقد زواجهما بالإكراه ، وسيفه معلق على رأسيهما، ثم عاد بعد ذلك فاستخدم كاترينا نموذجا وخليلة لكى يذل بذلك أنف عامله السابق باجولو ، وكيف أنه استخدم بعد ذلك فتاة أخرى، وأولدها طفلة ثم صرفها مع طفلتها بشىء من المال ولم يرهما بعد ذلك قط .

ولبث تشلينى فى خدمة ملك فرنسا حينا من الدهر، ولكنه لم يحظ بعطف الدوقة دتامب صاحبة الملك، وكانت تستأثر يومئذ بالنفوذ فى البلاط، وأنفت

نفسه من أن يترضاها بوسائل لا تتفق مع كبريائه، فلبثت من جانبها تدس له لدى الملك وتخلق الصعاب فى وجهه. ولكن الملك أعرض عن تحريضها حينا، وعهد الى تشلليني بأعمال فنية كبيرة منها تماثيل فضية عديدة، وأحواض زهر، و باب برنزى وغيرها، وأدى الفنان هـذه الأعمال كلهـا ببراعتـه الفائقة، وأعجب بها الملك أيما اعجاب؛ وأخيرا شعر تشلليني بأن عطف الملك قـد فتر، وعاف هذه الحياة المضطربة الفياضة بالأحقاد والدس، فاستأذن فى السفر، وذهب الى الكردينال دى فيرارا يلتمس اليه العون فى العودة الى وطنه، فأجاب ملتمسه، وغادر فرنسا غير آسف على فراقها؛ ووصـل الى ايطاليا بعد رحلة شاقة، وقصد الى مدينة فلورنس مسقط رأسه وكان ذلك فى صيف سنة ١٥٤٥؛ وبعد أن أقام أياما الى جانب أسرته، سعى الى لقاء الدوق كوزيمو دى مديتشى أمير فلورنس فاستقبله بترحاب وعهد اليه بصنع تمثال "لبرسيوس" وتمثال نصفى له، وقضى حينا فى خدمته؛ ولكن سـوء تفاهم وقع بينه وبين الدوقة زوج الأمير حمله على مغادرة فلورنس، وعندئذ سافر الى البندقية وأقام بها حينا ثم سافر الى رومة و زار هنالك ميكال آنجلو المهندس والفنان الخالد، وكان يومئـذ يعنى ببنـاء كنيسة القديس بطرس وزخرفتها، ليفاوضه فى بعض المسائل الفنية. ثم عاد الى فلورنس، بعد أن عاد التفاهم بينه و بين الدوق، واشترى هنالك ضيعة صغيرة بما اجتمع له من المـال، واستقر هنالك منكبا على تحفه وتماثيله.

* * *

وهنا ينتهى ما كتبه بنفنوتو تشلليني عن حياته. وقد كتب تشلليني هذه الصحف بين سنتى ١٥٥٨ و ١٥٦٦، ولكنه يقف فيها عند سنة ١٥٦٢؛ وكانت أوصاب الشيخوخة قد دهمته يومئذ، وذهبت بذلك العزم المضطرم الذى كان يلتهب أبدا، وملك تشلليني سحر القلم فكتب فى ذلك الحين أيضا

قصته "تراتاتى" يكرر فيها القصة القديمة المعروفة بذلك الاسم . وليس فى حياته ما يستحق التدوين يومئذ غير زواجه سنة ١٥٦٥ وهو فى الخامسة والستين من خادمته بيرا دى سلفادورى، تزوجها عرفانا بما قدمته فى خدمته أثناء مرضه من الغيرة والاخلاص ، ورزق منها بولدين هما ابنه اندريا سيمونى، وابنته مادلينا ؛ وتبنى أيضا أبناءها من زوجها الأول . وتوفى الفنان الكبير فى ١٣ فبراير سنة ١٥٧١، بمنزله فى فلورنس ودفن باحتفال فخم، وخبت تلك الحياة التى لبثت سبعين عاما تملأ ما حولها حركة ونشاطا واضطراما .

* * *

تلك خلاصة المجلد الضخم الذى تركه لنا بنفنوتو تشلينى عن حياته الغريبة الحافلة ؛ واذا كان تشلينى قد عد من أقطاب الفنانين فى عصر الإحياء فانه يرتفع بأثره الى صف أقطاب كتاب هذا العصر . ولم يكن تشلينى كاتبا كما قدمنا ، ولم تهيئه تربيته الساذجة، ولا حياته الشريدة المضطربة لمعالجة الكتابة ؛ ولكن البيان هبة الطبيعة ، وقد كان تشلينى ابن الطبيعة ، وهبته كثيرا من خلالها الباهرة ؛ فكان القلم فى يده يدون به حوادث حياته ، كالريشة يرسم بها نماذج تحفه . وليست روعة ترجمة تشلينى فى هذا البيان القوى الساذج الساحر فقط، ولكنه أيضا فى تلك الصراحة الخشنة التى يحدثنا بها تشلينى، وفى تلك البساطة الرائعة التى يكشف لنا بها عن دخائل نفسه.

ويقول لنا تشلينى فى الخطاب الذى يوجهه الى صديقه بنديتو فاركى بشأن ترجمته انه لم يكتب إلا ما وعته الذاكرة من حقائق حياته، يقول : "والواقع أنى لم أكتب سوى الصدق، وقد أغضيت عن كثير من الحوادث العجيبة التى كان غيرى يعطيها أهمية خاصة . ذلك أن لدى شئونا عظيمة كثيرة أقصها ، وقد تركت كثيرا مما هو أقل أهمية منها لكى لا يفيض بى القول فأخرج مجلدا ضخما جدا " . ومن النادر أن نجد أثرا كأثر تشلينى يمتاز

بتلك الروعة والصراحة والحقائق المدهشة ، وان كانت هنالك تراجم شخصية عديدة غربية وشرقية ترتفع الى ذروة البيان والطرافة الأدبية .

وقد أشرنا فيما تقدّم الى أن اعترافات روسو فى مقدّمة هذه التراجم الشخصية قوّة وطرافة . ولكن يوجد ثمة فارق ملحوظ بين الأثرين . ذلك أن ترجمة تشلليني تستمدّ جمالها بالأخص من روحه التى تكاد تمثل فى كل صفحة من صفحاته ؛ أما جمال الاعترافات ، فهو مستمدّ على الأغلب من السحر الذى يسبغه بيان روسو وقلمه على حوادث حياته . وفى رأينا أن ترجمة تشلليني تتفوّق من ناحية الفن والطرافة والروعة على اعترافات روسو ، وعلى أى أثر غربى آخر من نوعها .

ولدينا فى العربية أثرهام من نوع التراجم الشخصية القوية . ذلك هو ترجمة المؤرّخ الفيلسوف ابن خلدون لنفسه ، وهى المشهورة "بالتعريف" فقد دوّن ابن خلدون حوادث حياته فى مجلد خاص فى أواخر القرن الرابع عشر ، أعنى قبل أن يكتب تشلليني ترجمته بقرن ونصف ؛ و "التعريف" ترجمة شخصية ، ولكن الحياة السياسية العاصفة التى خاض ابن خلدون غمارها والتى يقصها علينا فى هذا السفر ، تجعل من "التعريف" أثرا تاريخيا ؛ ذلك أن ابن خلدون يضن علينا بمواطن الإفضاء الشخصى التى تملأ ترجمة تشلليني ، وهو يؤثر دائما أن يدوّن من حوادث حياته ما يرتفع الى أهمية الحياة العامة وحوادث التاريخ ؛ بيد أنه يحدّثنا أيضا عن نفسه وعن خلاله ، ولا يتردّد فى الافضاء بكثير مما لا يحسن الافضاء به ، لا عن حياته الداخلية ولكن عن حياته العامة . وفى تعريف ابن خلدون ، كما فى ترجمة تشلليني عنصر القصة الشائقة لحوادث حياة حقيقية . فان فيلسوفنا يصف لنا فى تعريفه كيف يجوز من قصر الى قصر ، ويتعرض لمخاطر النقمة والاعتقال والمطاردة ، ويسير فى ركب الجند ، ويمثل الى جانب أميره فى المعارك الحربية ، ويقوم

بقضاء المهام الخطرة فى أعماق الهضاب والصحارى . ونراه فى دمشق فى السبعين من عمره يجوز مخاطر جديدة ، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ليقصد الى معسكر الفاتح التترى تيمورلنك ، وغير ذلك من الحوادث الغريبة الشائقة . والواقع أن هنالك شبها عظيما بين ترجمة ابن خلدون وترجمة تشلليني مع اختلافهما فى النوع ، فكلتاهما تفيض بمواطن الجرأة والمخاطرة ومواطن الافضاء والصراحة . واذا كانت ترجمة الفنان الايطالى تعتبر فى الأدب الغربى نموذجا بديعا للترجمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق ، فان "تعريف" ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة فى أدبنا العربى .

ولأثر تشلليني فوق ذلك أهمية تاريخية ، فهو يصور لنا كثيرا من ألوان الحياة الاجتماعية فى عصر الإحياء ، وهو عصر تطور عظيم فى تاريخ الانسانية ، وفيه وصف شائق لكثير من أحوال البابوات وبذخهم وقصورهم ، ووصف لأخلاق الأحبار ودسائسهم واستغلالهم لطبقات المجتمع الأخرى ، ووصف لأحوال الجمهوريات الايطالية فى ذلك العصر وأمرائها وسادتها ؛ والخلاصة أن يلقى أكبر الضياء على تاريخ عصر من أهم عصور ايطاليا ، وعصر يعتبر بحق فجر التاريخ الحديث [1] .

---

(١) اعتمدنا فى هذا البحث على ترجمة تشلليني لنفسه (الترجمة الانكليزية) : Memoirs of Benvenuto Cellini

الفصل الرابع

قصص الأيام العشرة بقلم چوڤانى بوكاشيو

١٣١٣ — ١٣٧٥

من آثار عصر الإحياء الخالدة قصص بوكاشيو الشهيرة المسماة "ديكامرونى" . وقد مضى على ظهور هذا الأثر الرائع زهاء ستة قرون ؛ بيد أنه ما زال حتى عصرنا يحتفظ بروعته وسمو خياله وفنه ، وما زال يتبوأ مكانته بين الآثار العالمية الخالدة .

وقد أوحت الى بوكاشيو كتابة أثره حوادث مروعة شهدها ، وهزت نفسه الى الأعماق فأذكت خياله ، وانتزعت من قلمه تلك القصص الساحرة ، التى تصور لنا كثيرا من روح العصر وخلاله أصدق تمثيل وأمتعه .

كتبها بوكاشيو وأشباح الفناء تحتشد من حوله ، والموت الذريع يقطف أزاهير المجتمع من كل الطبقات والأعمار ، والتمس بكتابتها عزاء لنفسه وعزاء لمجتمعه ، عما نزل به من أهوال الفناء ، ولتكون باعثا الى النسيان والمرح . وكان بوكاشيو يومئذ فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره فى ذروة الفتوة والنضج ، فجاءت هذه القصص أروع آثاره ، وعنوان مجده ، واتخذت مكانتها بين أعظم آثار عصر الإحياء .

ولد چوڤانى بوكاشيو فى سنة ١٣١٣ فى باريس من أب ايطالى وأم فرنسية ، ونشأ فى فلورنس موطن أسرته ، وتلقى فيها تربيته ، وشغف منذ حداثته بالشعر والأدب ، وتأثر أيما تأثير بشعر ڤرجيل ؛ وكان أول آثاره قصة غرامية عنوانها "فاميتا" وهى فتاة حسناء يظن أنها تمثل فتاة حقيقية هام بها

بوكاشيو، وأظهرها فى شخص فياميتا، والمظنون أيضا أنه يصف حبيبته هذه فى شخص بطلة قصته الأخرى "فلسكوبو". وتجوّل بوكاشيو فى المدن الايطالية، وعاش حينا فى نابل، فى عهد ملكها روبرتو وملكتها الفتية الحسناء چوڤانا (جنه)، واتصل ببلاطها الساطع المنحل معا، وكتب فيها بعض قصائده وقصصه؛ ومنذ سنة ١٣٤٢ نراه يستقر مع أسرته فى فلورنس، ويحاول أن يفوز بمنصب فى الحكومة أو مركز أدبى يعيش منه؛ وقد لفتت كفاياته الحكومة غير بعيد، فأوفدته سفيرا الى حكومة "رومانيا" فى سنة ١٣٤٦، ولكنه اضطر بعد ذلك بنحو عام الى العودة الى فلورنس على أثر موت أبيه ليعنى بشئون أسرته، واشترى بمعظم ميراثه كتبا لاتينية ويونانية وانقطع للكتابة والتأليف.

ولم يمض قليل على ذلك حتى نكبت إيطاليا وفلورنس ونكب العالم بأسره بتلك الكارثة العظمى التى تعرف فى الرواية الغربية بالوباء الأكبر، وفى الرواية الاسلامية باسم مماثل هو "الفناء الكبير". ذلك أن الفناء الكبير قد اجتاح أمم المشرق والمغرب معا، وحمل منها الى القبر عشرات الملايين، وعصف بجميع المجتمعات الزاهرة أيما عصف؛ وبسط على العالم المتمدن كله ريحا من الرهبة والروع؛ وقد شهد بوكاشيو أحداث الوباء فى فلورنس منذ بدئها، وترك لنا عنها وصفا مروعا مؤثرا؛ وإليك ما يقوله فى أصل الوباء وأعراضه:

"إنه فى سنة ١٣٤٨ ميلادية حل الوباء الفاتك بمدينة فلورنس الزاهرة، أجمل المدن الايطالية، بعد أن لبث قبل ذلك بأعوام يعصف بالمشرق، إما لتفاعل الكواكب والأجرام، وإما لغضب الله الحق لما يرتكبه عباده من الخطايا، ولأنه أرسل اليهم صواعق عقابه، فعصف بكثل من البشر لاحصر لها؛ وانتقل الوباء مسرعا من مكان الى مكان حتى حل بالغرب

يحمل الفزع والروع ... وكانت أعراضه سواء بالنسبة للرجال أو النساء، فيظهر أولا فى شكل أورام تصيب الابط أو أسفل البطن ثم تنتشر فى جميع أجزاء الجسم، ثم تتحول الى بقع سوداء أو ممتقعة تملأ الذراعين والفخذين، ثم سائر أعضاء الجسم ، وكان المصاب يموت عادة فى اليوم الثالث دون حمى ودون مضاعفات أخرى " .

واجتاح هذا " الفناء الكبير " أمم الشرق والغرب معا ، فعاث فى الأمم الاسلامية أيما عيث ، وعصف بمجتمعاتها الغنية الآهلة، وسرى الى جميع الأمم الأوربية، وبسط عليها رهبة الدمار والموت، وحمل من سكانها نحو الثلث فى أشهر قلائل ؛ وكان فتكه أشد ظهورا، وأعمق أثرا فى مجتمعات ايطاليا، وبخاصة فى فلورنس التى كانت تتمتع يومئذ بحضارة زاهرة؛ وهنالك أفنى جيوشا برمتها، وأهلك عددا كبيرا من الأمراء والعظماء والقادة؛ ويقول لنا بوكاشيو " إنه استطال هنالك من مارس الى يونيه سنة ١٣٤٨ ، وحمل من فلورنس وحدها مائة ألف انسان " .

ويصف لنا بوكاشيو أهوال الوباء ومناظره المروعة وصفا ضافيا مؤثرا، فيقول : " كان الناس يجتنبون بعضهم بعضا ، وقلما يتزاور الأقارب أو لا يتزاورون أبدا، وألقت الكارثة الرعب فى قلوب الناس جميعا، رجالا ونساء، حتى أن الأخ كان ينبذ أخاه نبذ النواة ، والأخت أخاها ، والمرأة زوجها ؛ بل أروع وأبعد عن التصديق أن الآباء والأمهات أضربوا عن رؤية الأبناء أو تعهدهم، كأنما ليسوا من ذويهم " .

" بل لقد هجر الناس الجيران والأقارب والخدم ، حتى اضطروا الى ارتكاب عادات لم يسمع بها؛ من ذلك أن المرأة مهما كانت من الجمال أو النبل ، إذا أصابها مرض واضطرت الى استخدام رجل، شيخا كان أم شابا، فانها تكشف له دون خجل كل أجزاء جسمها اذا اضطرتها ظروف

المرض ، وربما كان ذلك هو السبب فى انحلال الحشمة والحياء عند أولئك اللائى نجون " .

ثم يقول : " وكان يعنى بدفن الناس بادئ ذى بدء ، فيلقى بهم دون احتفال فى أول مقبرة ؛ فلما اشتد الوباء ، كان الموتى يحملون جماعات ، ويلقون فى الطرق ؛ وقد تموت أسر برمتها فلا يبقى منها إنسان ، وأزواج وآباء وأبناء معا ، ويلقى الجميع بلا تمييز فى حفر كبيرة " .

* * *

تلك هى الأحداث والمناظر المروعة التى أذكت خيال بوكاشيو ، وأوحت اليه بكتابة أعظم آثاره ، وهيأت له فى نفس الوقت ذلك الأفق المعنوى الحر الذى جرى فى ظله قلمه ؛ ويلخص لنا بوكاشيو غايته من تأليف ذلك الأثر فى قوله : " ولقد رأيت ترويحا للسيدات العاشقات وتعزيتهن — وتكفى فى ذلك لغيرهن الإبرة والمغزل — أن أقص مائة خرافة أو رواية أو تاريخ أو ما شئت أن تسميها " .

ثم يقول : " ومن ذا الذى ينكر أن الأفضل أن نقدم ذلك العزاء للسيدات العاشقات لا للرجال العاشقين ؟ ذلك أن السيدات العاشقات يفضن خجلا وخوفا ، ويرغمن على إخفاء جوى الحب فى صدورهن ، وتحملهن رغبات الآباء والأمهات والأخوة والأزواج ، وأهواؤهم وأوامرهم ، على أن يقضين معظم أوقاتهن معتقلات فى غرفهن الضيقة ، فيجلسن عاطلات ويستعرضن فى أذهانهن أفكارا مختلفة لا يمكن أن تكون مرحة أو سارة " .

وكتب بوكاشيو قصصه الساحرة فى ذلك الأفق الذى تعمره أشباح الفناء ، والناس ينظرون الى الحياة كأنها لعب طائرة ، ويودعون بعضهم بعضا ؛ واختار لكتابه هيكلا طريفا خلاصته ، أنه فى ذات يوم ثلاثاء ، وعصف الوباء فى أشده ، اجتمع فى كنيسة القديسة " ماريا نوفيلا " فى فلورنس ،

جوفانى بوكاشيو

سبع فتيات هن پامپينا ، وفيامينا ، وفيلومينا ، وأميليا ، ولوريتا ، ونيفيلى ، وألـيزا ؛ وكانت أكبرهن پامپينا فى الثامنة والعشرين ، وأصغرهن أليزا فى الثامنة عشرة ؛ واقترحت پامپينا أن يغادرن المدينة فرارا من الوباء والموت أسوة بأصدقائهن ، فاعترضت فيلومينا ، وقالت إن النساء ينقصهن التفكير السليم ، ويغلب عليهن التقلب والشك والخور ، ولذا وجب عليهن أن يخترن مرشدا ، فأيدت قولها أليزا وقالت إن الرجال هم أصحاب الرشاد والنصح ، واقترحت أن يستدعين بعض رجال يقومون بالارشاد .

وفى تلك اللحظة يدخل الكنيسة ثلاثة فتيان ، أصغرهم يناهز الخامسة والعشرين ، وهم بانفيلو ، وفيلوستراتو ، وديونيو ؛ وكان من غرائب الاتفاق أن كلا منهم كان يعشق إحدى الفتيات السبع ، وأنهم جميعا أقارب للأربع الباقيات ؛ فأشارت اليهن پامپينا ، وقالت إن العناية تحقق أمنيتهن بحضور أولئك الفتيـة الكرماء الأمناء ؛ فاعترضت نيفبلى ، وكانت حبيبة أحدهم ، خشية الافتضاح ، وناقشتها فيلومينا مؤيدة پامپينا ؛ فغلب رأيها واستدعى الفتيان الثلاثة ، واتفق الجميع على ارتياد قصر خاص ، ومعهم الخدم وكل ما يحتاجون اليه ، وهنالك يقيمون حتى ينصرف الوباء ؛ وفى صباح اليوم التالى ذهب الجميع الى هذا المحل المختار ، وهنالك اتخذوا مجلسهم تحت الأشجار الظليلة على أرائك وثيرة ، وأمامهم الأطعمة والأشربة الشهية ، وجعلوا يترددون بين الطعام والسباحة فى بركة صغيرة بالقصر ؛ وهنالك أيضا بدأوا سرد القصص .

وكانت صاحبة الفكرة پامپينا ، فقد اقترحت أن ينتخب أحدهم حاكما للمجلس كل يوم وأن يضطلع فى هذا اليوم بتدبير شئون الجماعة وتسليتهم ؛ وتولت هى منصب الملكة فى اليوم الأول ، واقترحت لتسلية الجماعة أن يقص كل منهم قصته ، وأن يختتم واحد منهم بانشاد أنشودة ؛ فوافق الجميع متحمسين ، واستثنى الجماعة من أيام الأسبوع اثنين ، يوم الجمعة ، ويوم السبت ، وخصصا للراحة والتجمل والصلاة ؛ وعلى ذلك أصبحت أيام القصص عشرة خلال أسبوعين ، وفى كل يوم تقص عشر قصص ، فالمجموع مائة قصة ، هى محتويات مجموعة بوكاشيو الشهيرة ، وهى التى يسميها "ديكامرونى" (Decamerone) وهى كلمة مؤلفة من مقطوعين يونانيين ومعناها "الأيام العشرة" .

هذا هو التمهيد الذى يقدم به بوكاشيو لمجموعته ، وهو تمهيد يمتاز

ببساطته وطرافته، و يدلى بكثير من روح العصر؛ لقد كان المجتمع الذى كتب فيه بوكاشيو قصصه يعيش من يومه الى غده ، وكان بوكاشيو نفسه يجوز هذه الحياة، وكان يملأ هذا الفراغ المتصدع بالتجوال فى عوالم الخيال الممتع، وكان يرى أن يقدم ثمرة هذا التجوال الى اخوانه فى المجتمع، أولئك الذين يرون أشباح الفناء ماثلة فى كل آونة وكل مكان .

* * *

يستطيع أولئك الذين قرأوا قصص بوكاشيو وألف ليلة وليلة، أن يجدوا بعض نواحى الشبه بين الأثرين، سواء فى المادة أو الروح؛ذلك أن قصص الأيام العشرة تفيض كقصص ألف ليلة وليلة بروح مادية قوامها السرور والمرح، والتوفر على استمراء متاع هذه الحياة بأى الوسائل ؛ وتفيض أيضا كألف ليلة وليلة بالمواقف الغرامية المدهشة المثيرة ، أو المبتذلة أحيانا ؛ ثم إن كلا الأثرين يرمى الى غاية واحدة تقريبا، وهى مجالدة النوائب والنسيان والسلوى ؛ ففى ألف ليلة وليلة نجد ملكا نكب بخيانة زوجه ، وانقلب الى بغض النساء، يتسرى فى كل ليلة بكرا ثم يقتلها فى صباح اليوم التالى، الى أن يبعث اليه وزيره بابنته "شهرزاد" فتحتال لتسلية الملك وتحويله عن فكرة الثأر من النساء ، وانقاذ نفسها و بنات جنسها ، بأن تقص عليه فى كل ليلة طرفا من القصص الشائق حتى ألف ليلة وليلة؛ وفى الأيام العشرة نجد عشر سيدات وسادة يجتمعون أثناء الوباء المروع للترويح عن أنفسهم وتناسى ويلات الفناء والموت بتبادل القصص الممتع .

ولا نعنى بذلك أن چوڤانى بوكاشيو قد تأثر فى كتابة قصصه بألف ليلة وليلة؛ذلك أن هذه القصص الشهيرة لم تكن قد عرفت فى الغرب فى عصره، ولكنا نريد أن نقول فقط انه يوجد بين الأثرين تماثل فى الروح والطابع والغاية، يرجع الى تماثل فى روح العصور الوسطى وفى روح مجتمعاتها .

على أنه اذا كانت قصص ألف ليلة وليلة تمتاز أحيانا بخيالها المبدع، وفنها الممتع، وصورها الوصفية والاجتماعية الشائقة، فان قصص الأيام العشرة تفوقها من الناحية الفنية فى مواطن كثيرة، وتمتاز بالأخص بعبرها ومغازيها الدقيقة، وصورها الفكهة اللاذعة؛ ومع أنها تمتاز أيضا بكثير من التنوع والتباين فى التصوير والوصف، فانها تمتاز فى نفس الوقت بطابع من التناسق الممتع فى الروح والأسلوب والتعبير.

وقد رجع بوكاشيو فى كتابة قصصه الى مادة غزيرة من القصص القديم وقصص العصور الوسطى، والى بعض الحوادث الواقعية التى شهدها، والى بعض حوادث حياته ذاتها؛ ويرى بعض النقدة أن الفتيان الثلاثة الذين اتخذهم بوكاشيو أبطالا لثلاثة من الأيام العشرة، إنما يمثلون ثلاث مراحل مختلفة من حياة بوكاشيو نفسه، وأن فى قصصهم كثيرا مما اشتق من حياة بوكاشيو ذاتها.

وبدأ بوكاشيو كتابة قصصه كما قدمنا، أيام عصف الوباء بمدينة فلورنس فى ربيع سنة ١٣٤٨؛ وأنجز الثلاثة أيام الأولى منها فى مايو سنة ١٣٤٩، وهو يومئذ بنابل، كما يستدل من خطاب الإهداء الذى يوجهه عن هذا القسم الى صديقه الساندرو دى باردى التاجر الفلورنسى، وكان يقيم يومئذ فى جايتا؛ وانتهى من كتابة مؤلفه فى سنة ١٣٥٣ أعنى لخمسة أعوام من البدء فيه، وظهرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة الخالدة فى سنة ١٤٩٢.

* * *

وقصص الأيام العشرة تجرى حوادثها فى جميع المدن الايطالية وفى بلاد بعيدة أخرى مثل البرتغال أو انكلترا والاسكندرية وآسيا الصغرى؛ وقد اختصت فلورنس موطن المؤلف، وكذلك نابل حيث عاش بوكاشيو مدى

حين، بكثير منها ؛ وفى كثير منهـا نجد صورا ممتعة لمحاسن الطبيعة فى تلك الأرجاء ، ووصفا شائقا فكها لمجتمعات هذه العصور وخلالها ومثالبها .

كذلك تقدّم إلينا هذه القصص أبطالا من كل صنف وضرب ؛ فهنالك مجتمع العصور الوسطى بكل طوائفه وشخصياته ، من سادة وفرسان وأحبار وقسس ، وشعراء وفنانين ، وصناع وعمال ولصوص ، ونساء من كل ضرب ؛ وهنالك شخصيات الطبقة العليا من ملوك وأمراء وسادة وملكات وأميرات وسيدات أنيقات من كل الطبقات ، وهنالك طائفة كبيرة من ملوك وأمراء معينين معاصرين وغير معاصرين .

ونجد مثل هذا التباين فى موضوعات القصص ؛ ونلاحظ أولا أن القصص كلها بعيدة عن الإسهاب الممل ، وقد صيغت فى أحجام متقاربة ، من خمس صفحات الى عشرين ؛ بيد أن هذا الإيجاز فى الحجم لم يحل دون حسن السبك ؛ ففى كل قصة فكرة طريفة ، وفى كل نادرة فكهة ، وحادثة مطربة ، وهنالك تنوع ظريف فى الحوادث والفكر ؛ بيد أنه يلاحظ أن القصص الغرامية تشغل أكبر حيز وتفوز بأكبر نصيب ، وربما كانت تسعة أعشار المجموعة كلها . وهنا تبدو براعة بوكاشيو وفنه بصورة بارزة ، فهـذه المجموعة الغرامية الحافلة بعيدة عن التماثل الممل ، وفى كل منها مأساة أو مهزلة غرامية طريفة ؛ وربما صيغ بعضهـا فى أثواب مغرقة ، وتضمنت فكرا أو مواقف مستحيلة ، ولكنها على العموم تنفث نفس السحر والمتاع .

وهذا الأفق الغرامى الساحر هو الذى يسود قصص الأيام العشرة ، وهنا يبـدو بوكاشيو فى ذروة فنـه وسحره ؛ فالحب هو قوام المجتمع ، وهو متاع الحيـاة ؛ والحب يمد المرأة والرجل معـا بكثير من البراعة والعزم والخيانة والشجاعة والكرم ، والاقدام والغـدر ؛ وفى أحيانٍ كثيرة يمزج بوكاشيو المأساة بالهزل والفكاهة ؛ فهنا زوجة خؤون تدبر أن يُضرب زوجها فى نفس

حديقته من يد حبيبها ، وتحمله على منازلته كعنوان على الاخلاص والحب ؛ وهنا طالب عاشق يسير طول الليل فوق الجليد جيئة وذهابا ، بينا تحدجه الحسناء وحبيبها باسمين من وراء النافذة ؛ وهذا قس ساذج تستخدمه زوجة عاشقة دون أن يدرى فى توثيق علائقها بحبيبها المنشود وتدبير وسائل التمتع بوصله ؛ وهذه زوجة خبيثة تدبر لحبيبها الوصل فى منزلها وفى فراشها بينا زوجها يضرع الى ربه مستغفرا عن ذنوبه فى مكان آخر من الدار ؛ وهذا قس خبيث يفترس فتاة ساذجة تحت ستار الوعظ والهداية ؛ وهذه راهبة مضطرمة تحتال لاقتناص جنان الدير حتى توقعه فى شرك وصالها ، وغير ذلك مما يضيق المقام عن ذكره .

ومما يلاحظ بنوع خاص أن بوكاشيو يحمل على الأحبار والقسس بشدة ، وينوه فى كثير من المواطن بأخلاقهم الفاسدة وشهواتهم الوضيعة ، يسترونها تحت ثيابهم ومظاهر ورعهم الغادرة ؛ و إليك كيف يعرض بوكاشيو نظريته فى خبث رجال الدين على لسان بانفيلو أحد الفتيان الثلاثة إذ يقول :

" سيداتى الحسان ، لقد خطر لى أن أقص عليكم حديثا ضد أولئك الذين يسيئون إلينا دائما ، دون أن نستطيع نحن الانتقام منهم ، وأعنى بذلك رجال الدين الذين أعلنوا حربا صليبية على زوجاتنا ، والذين اذا ظفروا بواحدة منهن ، تصوروا أنهم قد غنموا غفران الذنب والعقوبة ؛ وفى ذلك يعجز المدنيون عن مقابلتهم بالمثل ، وإن كانوا يصبون جام انتقامهم على أمهات القسس ، وأخواتهم ، وخليلاتهم ، و بناتهم ، و يطاردونهن بمثل الحماسة التى يطارد بها القسس زوجاتهم " .

فيجيب زميله فيلوستراتو : " إن الحياة الخليعة الدنسة التى يحياها رجال الدين ، وهى فى كثير من نواحيها عنوان دائم للخبث ، تقدم بكل سهولة فرصة لذوى العقول ليحملوا عليها و يجترحونها " .

ويقدّم الينا بوكاشيو مجموعة متباينة من القسس الذين فاضت نفوسهم بأروع صنوف الاجتراء والإثم، ويصوّر لنا خبائثهم ودسائسهم وتحيلهم على استباحة الأعراض بكل الوسائل، واستتارهم فى ذلك باسم الدين؛ كذلك يقدّم الينا طائفة من الراهبات اللائى يضطرمن وراء جدران الدير توقا وجوى، ويلتمسن تحقيق شهواتهن بأخس الوسائل؛ وفى هذه القصص الكنسية يبدو بوكاشيو فى ذروة فنه وسخريته اللاذعة؛ ومع أنه يشتد فى حملته على الكنيسة وأحبارها، فانه يحيط هذه الصور الخبيثة بكثير من الدعابة والمرح.

وقد أثارت هذه القصص المثيرة سخط الكنيسة الكاثوليكيه على الكتاب ومؤلفه، فوضعته فيما بعد فى قائمة الكتب المحرمة (Index)؛ ولكنها لما رأت بعد ذلك أن هذا التحريم لم يحل دون ذيوع الكتاب، سمحت بظهوره فى القرن السادس عشر فى ثوب مهذب رفع منه القسس والراهبات واستبدلوا فى صلب القصص الأصلية بسيدات وسادة.

* * *

وقد كتب بوكاشيو قصصه بكثير من الحرية والبساطة؛ وإذ كان معظمها يتحدث عن الحب والوصل، فان مؤلفها لم يحاول تحفظا فى وصف المناظر والصور، ولم يحاول تكلفا فى اللفظ أو التعبير؛ وعلى ذلك فقد يبدو لنا أن قصص الأيام العشرة تخرج فى كثير من المواطن عن حدود الحياء والحشمة؛ والواقع أن بوكاشيو يحدثنا عن الحب وعن الوصل، وعن العلائق والشهوات الجنسية فى كثير من البساطة والصراحة، ويقدم الينا هذه الصور الغرامية المضطرمة عارية لا يسترها لفظ أو تحشم، ولكن هل يجوز لنا مع ذلك أن نعتبر قصص بوكاشيو أثرا خليعا ينبو عن معيار الحياء والحشمة والخلق الرفيع؟ لقد وجهت هذه التهمة الى قصص بوكاشيو منذ ظهورها،

ومازالت توجه اليها فى عصرنا، واضطر بوكاشيو نفسه أن يجيب عنها فى خاتمة مجموعته، وأن يبرئ نفسه من قصد العبث والاسفاف .

يقول النقدة ، لقد تحدث بوكاشيو كثيرا عن الحب ، وأسرف فى ملق النساء واسترضائهن ؛ ويجيب بوكاشيو، ولم لا ؟ لقد ملق النساء أذهان عظام مثل جيدو كافالكانتى ودانتى الجيرى، وألفوا فى استرضائهن متعة وشرفا .

ويقولون إن بوكاشيو استباح لنفسه وصف المناظر الجنسية المثيرة، واستعمل ألفاظا تنبو عن الحياء والحشمة ؛ ويقول بوكاشيو ؛ إنه ينكر هذه التهمة، "لأنه لا يوجد ثمة شيء قبيح يحظر على إنسان ما، اذا استطاع أن يخرجه فى صيغ مقبولة، وهذا ما يلوح أنه قد فعل بصورة مرضية" .

ويقولون إن هذه القصص تثير فسادا وتحدث ضررا ؛ ويقول بوكاشيو، إن كل شيء فى الوجود يمكن أن يحدث الخير والشر ؛ فمن ذا الذى لا يعرف أن النبيذ وهو من أفضل مقومات الصحة، مضر بالمحمومين ؟ وهل لنا أن نقول إنه ضار لأنه يؤذى المحمومين؟ ومن ذا الذى لا يعرف أن النار مفيدة بل ضرورية للانسان ؟ وهل لنا أن نقول إنها شر لأنها تحرق الدور والقرى والمدن؟ كذلك تكفل الأسلحة سعادة أولئك الذين يريدون العيش فى سلام ؛ ولكن الأسلحة كثيرا ما تودى بحياة الناس لا لخبث فى ذاتها، ولكن لخبث أولئك الذين يستعملونها . ثم يقول بوكاشيو : فاذا كان ثمة فى الأيام العشرة قصص مثيرة أو خارجة، فانه لا ضير من وجودها، ولم يكن فى وسعى أن أكتب غير ما سمعت، ولا عصمة لإنسان، وفى الحقل النضر تنمو الأعشاب الضارة ؛ ولما كنت أقصد أن أحدث فتيات الشعب، فانه لم يكن ثمة داع للتكلف والبحث عن الصيغ والعبارات المنمقة .

هكذا يعتذر بوكاشيو عما عسى أن يبدو فى قصصه من خروج على حدود الحياء والحشمة؛ بيد أنه مهما كانت الملاحظات التى تبدى فى هذا الشأن، فانه لا ريب أن قصص بوكاشيو، تعتبر من أقيم الآثار العالميـة وأبدعها وأمتعهـا .

وقد كان لمجموعة الأيام العشرة أعظم الأثر فى تطور النثر الايطالى، وتطور فن القصص الأوربى بوجه عام؛ وما زالت آثار بوكاشيو تعتـبر الى جانب آثار دانتى وبترارك، قوام عصر الإحياء الأوربى، والصرح الأول فى بعثه وازدهاره[1] .

(١) رجعنا فى هذا البحث الى الترجمة الألمـانية لمؤلفات بوكاشيو المنشورة بعناية Max Krell وكذلك الى تراجم انكليزية وفرنسية لقصص الأيام العشرة .

ﻫﺬا اﻟﻜﺘﺎب ﻣﻦ ﻣﻜﺘﺒﺔ

الكِتابُ الثانى

عصر الخفاء

الفصل الأول

جرائم السحرة

١٦٧٩ — ١٦٨٢

يعتبر عصر لويس الرابع عصر أعظم عصور التاريخ الفرنسى ، لا من وجهة السلطان الباذخ فقط ، ولكن من الوجهة الاجتماعية والفكرية أيضا ؛ فكما أنه عصر الفتوحات العظيمة فهو أيضا عصر تقدم فكرى واجتماعى ساطع ؛ ولم تبد الملوكية الفرنسية من قبل قط بمثل ما بدت به فى عصر لويس الرابع عشر من العظمة والبهاء ، ولم يزدهر المجتمع الفرنسى مثلما ازدهر فى هذا العصر ؛ وفيه تتفتح العبقرية الفكرية الى الذروة ، ويحتشد النبوغ الفكرى أيما احتشاد ؛ هو « القرن الأعظم » كما ينعت فى التاريخ الفرنسى ، وهو عصر « الملك الأعظم » ، وهو عصر كورنى وراسين وراسان ولافونتين وجمهرة كبيرة أخرى ممن يزدان بهم التاريخ الفرنسى .

بيد أن هذا البهاء الساطع الذى يشع به « القرن الأعظم » تغشاه الظلمات فى كثير من النواحى ، ففيه يتكشف ذلك المجتمع الباهر عن ثغرات خطيرة من الانحلال الخلقى والاجتماعى ، وفيه تزدهر الجريمة ، وتنحط النفس البشرية الى ضروب شائنة من الفساد والإثم تخلق بأشنع العصور .

فى سنة ١٦٧٦ كشفت مأساة السموم الشهيرة[1] التى أخذت فيها المركيزة دى برانفلييه بطائفة من الجرائم المروعة ، عن طرف من تلك الآثام الخفية

---

(١) تناولنا هذه المأساة المروعة تفصيلا فى كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » ص ١٨٨ — ٢١٢

التى تجثم وراء مجتمع زاهر ؛ وكان ذلك الحدث المدهش مفاجأة مروعة لمجتمع ذلك العصر ؛ فقد ظهر أن السم — ذلك السلاح الخفى الغادر — يحصد علية القوم حصدا ، وأن كثيرا من الوفيات الفجائية المريبة التى وقعت فى تلك الفترة إنما هى جرائم قتل شائنة ، ترتكب فى سبيل الانتقام والمال والهوى .

بيد أن جرائم المركيزة دى برانفلييه كانت جرائم فردية ، وكانت محدودة المدى ، ولم تكن شيئا يذكر الى جانب ذلك الثبت الحافل من جرائم هائلة مثيرة معا ، تبث الروع الخفى الصامت الى المجتمع الباريزى وتصمه بحمأة العار والإثم ، ويدمغ شينها المثير أرفع الرؤوس والمقامات فى ذلك المجتمع الأنيق الباهر .

كانت جرائم « السحرة » وذيوع الخرافات السحرية بين علية القوم ، ومزاولة هذه الرسوم الوثنية الشائنة ، والتماسها وسيلة لتحقيق أحط الشهوات البشرية ، من ظواهر ذلك الانحلال الخلقى الشامل الذى يغشى عظمة « العصر الأعظم » .

كان السحر من الظواهر التى طبعت أذهان العصور الوسطى بطابعها القوى ، ينفث خفاءه وروعته فى أذهان الكافة والخاصة معا . وفى هذه العصور يتخذ السحر بالأخص صوره البغيضة ويغدو من القوى الشريرة التى يخشى شرها وبأسها ، ويغدو السحرة من العناصر الممقوتة التى يخصها المجتمع ببغضه ومطاردته ، ويعتبرها خطرا على أمنه وسلامته . وكانت مزاولة السحر تعتبر فى تلك العصور جريمة خطيرة يعاقب عليها القانون بأشد العقوبات ؛ وكان يعتبر من السحر كل ما لا تسيغه عقلية هذه العصور من الأمور المدهشة حتى ولو كانت مما يدخل فى حيز الاجتهاد العلمى ، كمزاولة السيمياء أو البحث عما يسمونه حجر الفلاسفة والتجارب الكيمائية المدهشة .

وفى أواخر العصور الوسطى ذاع السحر فى المجتمعات الأوربية ذيوعا كبيرا، ولا سيما السحر «الأسود» وهو نوع من أخطر وأروع أنواعه؛ وكان السحر الأسود يقوم فى تلك العصور على التوسل بالوسائل الشريرة والتوجه الى «الشيطان» بتدنيس الشعائر الدينية وانتهاك الحرم، وأحيانا بارتكاب الجرائم. وفى أوائل القرن الخامس عشر ذاعت حركة « السحر الأسود » فى فرنسا بنوع خاص، وتزعمها سيد وقائد كبير هو الماريشال دى رتز، فارتد عن دينه وحاول أن يتوسل الى محالفة « الشيطان » بأروع الوسائل كتعذيب الأطفال وقتلهم قربانا وتدنيس الشعائر الدينية، وارتكاب أشنع الحرم؛ وحوكم الماريشال وأعدم. ولكن الحركة لم تخمد بسرعة؛ بل بقيت زهاء قرن تجتاح المجتمعات الأوربية، وتسمم أذهان الكافة والخاصة، وظهر السحرة فى كل مكان، ونشطت السلطات المدنية والدينية الى مطاردتهم، وأحرق عدد كبير من السحرة خلال القرن السادس عشر فى مختلف العواصم الأوربية، وغدا السحر فضلا عن اتسامه بسمة المجهول والخارق، وسيلة لارتكاب الجرائم الدموية والأخلاقية المروعة.

ولم تكن عقلية القرن السابع عشر بعيدة عن هذه الأوهام الشائنة التى يبثها السحر، بل كانت تتأثر بها أيما تأثر؛ وكان المجتمع الرفيع الذى يحفزه حب المال أو لوعة الهوى أو ظمأ الانتقام أو غيرها من الشهوات البشرية، أو المثالب الخلقية، يجد فى السحر ملاذه ويعتقد أن السحر ما زال وسيلة لتحقيق هذه الأطماع والأهواء.

فى ظل هذا المعترك الذى تضطرم فيه الشهوات الوضيعة، ويملك الإيمان بالسحر عقول الخاصة فضلا عن الكافة، وتسرى الى المجتمع أسباب الانحلال الخلقى والاجتماعى، كان « السحرة » ومن إليهم من دعاة السيمياء والكيمياء يبثون فى المجتمع أباطيلهم، ويزاولون تلك الرسوم المثيرة

التى تعـرف « بالسحر الأسـود » ، ويسلحون الأيدى الغـادرة بالسموم المرهفـة ، وينظمون أشنع الجرائم الدموية والخلقية ، ويستظلون للتمويه على الكافة بظل الخفاء والمقـدرة على تنبؤ الغيب وتسخير القـدر ، وتوجيه الحظـوظ .

وقد بلغ الشغف بالخفاء والتماس السحر ذروته فى ذلك العصر ، وكان يتمخض بين آن وآخر عن طائفـة من الجرائم الفظيعة التى يكتنفها خفـاء السحر ورهبته .

وكانت جرائم السحرة الشهـيرة التى اكتشفت فجأة فى عصر « المـلك الأعظم » من أروع هذه المفاجآت التى يرتجف المجتمع لهولها وشناعتها .

* * *

فى يوم من أواخر سنة ١٦٧٨ ، اجتمع فى باريس على مائدة سيدة تدعى «لافيجوريه» هى زوجة صانع لأثواب النساء ، محام متواضع هو الأسـتاذ پيران ، وامرأة «عرّافة» مشهورة فى هذا الوقت تدعى مارى بوسى ؛ ففى أثناء العشاء بدرت من العرّافة تلميحات خطيرة حول جرائم ترتكب بالسم ، ويشترك فى ارتكابها رجال ونساء من علية القوم ، فانزعج الأستاذ پيران ، وأفضى بما سمعه الى مدير البوليس « لارينى » .

وكانت ذكريات جرائم المركيزة دى برانفلييه ما تزال قوية رنانة ، فأدرك «لارينى» أنه ربما كان أمام ثبت آخر من الجرائم المماثلة ، فأمر بالقبض على مدام ڤيجوريه ، ومارى بوسى وابنتها مانون وولديها ، وذلك فى ٤ يناير سنة ١٦٧٩ ؛ وأفضت التحقيقات الأولى التى قام بها لارينى نفسه الى أن قبض فى ١٢ مارس على امرأة تدعى « لاڤوازان » أو مـدام ڤوازان وهى عرافة شهيرة فى ذلك العصر تزاول السحر وأمورا خفية أخرى ، وعلى ابنتها مرجريت ثم على رجل يدعى « ليساج » وهو شريك لاڤوازان وعشيقها ،

ثم على عشرات آخرين ممن ورد اسمهم فى التحقيق ، ونسب إليهم قسط من الأعمال والجرائم المروعة التى كشفت عنها اعترافات المتهمين .

كان لارينى مديرا للبوليس ، يقف بحكم وظيفته على أخطر الأسرار وأفظع الجرائم ؛ ولكنه لم يلبث أن رأى نفسه أمام معترك هائل من الجرائم التى ترتجف لهولها أقسى القلوب وأصلبها ؛ جرائم تمتد الى النفس والعرض والمال بأشنع الآثام ، وتتطاول الى الملك وحياته ذاتها ، ويشترك فى تدبيرها وارتكابها نفر من العظماء نساء ورجالا ، يزاولون "السحر الأسود" ويشتركون طوعا فى إجراءاته المشينة ، ويغمسون أيديهم فى الدم البرىء تقربا الى الشيطان ، والتماسا لتحقيق أحط الشهوات والغايات .

وكانت لاڤوازان هى المحور الأكبر لذلك الثبت المروع من الجرائم التى سودت صحف «العصر الأعظم» ، وهى امرأة تدعى فى الأصل كاترين ديزى ، وزوجها رجل يدعى مونڤوازان ، أو ڤوازان ومن ثم كان اسمها . وقد بدأ الرجل حياته تاجرا فى الحلى ، ثم زاول أنواعا أخرى من التجارة ، ولكنه لم يفلح ولازمه النحس ، فاعترمت زوجته عندئذ أن تزاول مهنة التنجيم والعرافة . وكانت لاڤوزان فى الواقع ذات مقدرة خاصة فى تفهم نفسية بعض الناس ، وكانت قد درست شيئا من الفلك وما يتعلق بالسحر من المسائل والرسوم التى كانت ذائعة فى ذلك العصر ، فامتهنت العرافة والسحر ، واستقرت فى منزل تحيط به حديقة فى ڤلنيف من ضواحى باريس ، وأقبل عليها القوم من كل صوب يستوحون علمها ونصحها ؛ وكانت تزاول كل ما يدخل فى باب الخفاء من قراءة الكف وصنع التمائم والتعاويذ ، والتنبؤ بالمستقبل ؛ بيد أنها كانت تزاول أعمالا أخطر ، فقد كانت تبيع السموم لزوجات يردن التخلص من أزواجهن أو أقارب يترقبون وفاة المورث ؛ وكانت تصف الأدوية لمختلف الأمراض ، وتزاول التوليد وبالأخص

الإجهاض، وكان بين قصادها سادة من الأكابر، وسيدات من أرقى طبقات المجتمع .

وكانت لاڤوازان، كما يصفها المعاصرون امرأة قصيرة القد، مليئة الجسم، وافرة الحسن، لها عينان ساطعتان ثاقبتان؛ وكانت بما ينهمر عليها من المال من كل صوب تعيش عيشة ترف ومتاع، تصطفى العشاق حسبما تهوى، تحت سمع زوجها المسكين وبصره، وتقيم الحفلات الصاخبة؛ وكانت تعشق الشراب وتفرط فيه، فلا ترى دائما إلا ثملة، تضرب زوجها أو عشاقها وهم عديدون؛ وكانت تحيا هذه الحياة الحيوانية المحضة فوق أكداس من الإثم ترتكبها كل يوم، لا يزعجها شبح أولئك الذين ترسلهم بسمومها الى الأبدية، ولا تلك الضحايا البشرية العديدة التى كانت تزهقها مع شركائها، كلما أجرت رسوم القداس الأسود .

وكان شريكها وساعدها الأيمن فى تلك الحرفة الأثيمة رجل يدعى "ليساج" وكان أحب عشاقها اليها وأشدهم نفوذا لديها؛ وكان ليساج يزاول أعمال السيمياء ليكتشف مايسمونه "حجر الفلاسفة" أو المادة التى يمكن أن تعاون فى تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب، وتمده لاڤوازان كما تمد غيره من السيميائيين والمشعوذين بالأموال الوفيرة لإجراء التجارب المطلوبة؛ وكان هذا "الساحر" الخطر من أهل الجنوب واسمه الحقيق آدم كيريه، وكان يشتغل بتجارة الصوف، ولكن غلبه شغف السحر والخفاء فاتصل بلا ڤوازان ووثق الحب بينهما ذلك التحالف الأثيم، ووعد لاڤوازان بالزواج متى غدت أرملا . وفى سنة ١٦٦٧ قبض عليه بتهمة "الاتصال بالشيطان" وقضى عليه بالأشغال الشاقة فى الأسطول، ولكن لاڤوازان سعت لانقاذه بنفوذها، واستطاعت أن تستصدر العفو عنه، فعاد الى باريس سنة ١٦٧٢ وتسمى بليساج، واستأنف أعماله الأثيمة مع عشيقته .

وكان ليساج وغدا سافلا لايحجم عن ارتكاب أية جريمة، وكان له أكبر نفوذ على لاڤوازان وزميلاتها، فكان يقتنص منهن الأموال الوفيرة بخبثه ودهائه؛ وكان يكتب التعاويذ للراغبين ويعقد صلاتهم بالشيطان بتمائم وأدعية مريبة، وأحيانا يتزيا بزى القسس ويقيم الصلوات والقداس؛ وكان منظره غريبا يضع على رأسه شعرا أحمر، ويرتدى ثوبا أشهب ومعطفا غريبا، وكان القبض عليه للمرة الثانية عقب القبض على لاڤوازان فى ١٧ مارس سنة ١٦٧٩

* * *

كان اكتشافا مروعا ذلك الذى وقع به لا رينى مدير البوليس من أعمال هذه الطغمة؛ ولم يكن أمر السحرة مجهولا، وكان الهمس يسرى حول آثامهم وجرائمهم فى أرفع الابهاء؛ ولكن لا رينى لم يكن يتوقع قط أن يكشف التحقيق الذى أجراه وأشرف عليه مدى أشهر عن تلك الشبكة السوداء الهائلة التى تغمر العاصمة الفرنسية، والتى تجذب شراكها الخطرة أعظم الرؤوس وأعظم المقامات. وقد أثبت لارينى فى ملف التحقيق الذى أجراه أقوالا ومعلومات مدهشة عن أعمال المتهمين وحياتهم الغريبة؛ ومما أثبته من أقوال لاڤوازان، أن أفضل مايعمل هو أن يقبض على كل من يزاول قراءة الكف، فان هذه الحرفة تكشف عن أمور مدهشة حيثما يمنى المحب بخيبة الأمل، وأن التسميم جرم ذائع، وأنه يدفع عن "العملية" الواحدة أحيانا عشرة آلاف جنيه (نحو خمسين ألف فرنك من العملة الحديثة)؛ وأيد ليساج هذه الأقوال، وزاد عليها أن كل أولئك الذين يزعمون أنهم يبحثون عن الكنوز أو حجر الفلاسفة أو غيرها إنما يزاولون أعمالا خفية أخرى، وأولئك الذين يزاولون السحر إنما يتعاقدون على تسميم زوج أو زوجة أو أب، وربما على تسميم طفل فى المهد.

بيد أن أروع ما سطره التحقيق أقوال المتهمين عن مزاولة " السحر الأسود " وإجراءاته الدموية المثيرة . وكانت هذه الاجراءات تقترن عادة بازهاق طفل صغير يسرق أو يؤخذ من بين اللقطاء الذين تقذف بهم الأمومة الأثيمة . وكان يؤتى لهذه الغاية ببغى تمدد عارية بين هالة من الشموع السوداء ، ثم يأتى الساحر فى ثياب قس ، وبعد أن يذبح الطفل ، يلقى بعض التمائم والدعوات الشيطانية ؛ وكان الساحرات يبحثن دائما عن الأمهات الآثمات أو البغايا الحاملات فيجرين توليدهن ، ويأخذن المواليد برسم القربان ، ويلقى بهذه الجثث الصغيرة فى بعض الغابات أو تحرق فى منزل الساحرة . وكانت لاڤوازان أنشط الساحرات فى إجراء هذه الرسوم الهائلة ، وكان يعاونها فى إجرائها غيرليساج قس وغد يدعى الأب جيبورج ؛ فيقوم بقراءة " القداس الأسود " أو قداس الشيطان على أجسام النسوة اللاتى يرغبن فى هذا الاجراء وكن يتمددن عاريات فوق مائدة تؤدى وظيفة الهيكل ، ويوضع الإناء المقدس على البطن العارى ، ويذبح وقت القربان طفل يلقى دمه فى الإناء ؛ وقد اعترفت لاڤوازان انها أحرقت فى فرن منزلها أو أخفت فى حديقتها نحو ألفين وخمسمائة جثة من هذه الضحايا الصغيرة البريئة !

هذا طرف مما دونه لارينى فى تحقيقه من أقوال المتهمين أنفسهم . ويعلق لارينى على ذلك بقوله ، إنه يستحيل أن يتصور الانسان أن تكون هذه الجرائم حقيقية أو ممكنة اذا ما تأملناها . بيد أنها اعترافات أولئك الذين ارتكبوها أنفسهم ؛ وتفاصيل الاعتراف لا تدع مجالا للريب .

* * *

كان لظهور هذه الحقائق المروعة عن جرائم السحرة وقع عميق فى باريس وفى فرنسا بأسرها ؛ ولم يكن القضاء العادى ليكفى لسحق هذه الطغمة الآثمة وتطهير المجتمع من عيثها الذريع ؛ فرأى لويس الرابع عشر

ووزراؤه أن يعهد بعقابها الى القضاء الاستثنائى ، وانتدبت لذلك محكمة خاصة هى "الغرفة الساطعة"[1] الشهيرة فى تاريخ ذلك العصر ؛ وسميت كذلك لأن المحاكم الخاصة التى تنتدب للنظر فى الجرائم الكبرى كانت تجلس فى غرفة تجلل جدرانها بالسواد وتنار بالمشاعل والمصابيح .

وعقدت " الغرفة الساطعة " جلستها الأولى فى العاشر من أبريل سنة ١٦٧٩ ، وقررت أن تكون اجراءاتها وتحقيقاتها سرية حتى لا يقف الجمهور على شىء من الأعمال السحرية أو أسرار السموم ؛ وتولى الرياسة المستشار لوى بوشراكونت دى كومبان يعاونه عدة من أعضاء مجلس الدولة ؛ وتولى لارينى مهمة القاضى المحقق ؛ وكانت اجراءاتها تتلخص فى أن كل من تقع عليه شبهة الاتهام يقبض عليه بأمر الملك أعنى بواسطة " اللتر دى كاشيه " (أو رقعة السجن) ، وتقدم نتيجة التحقيق الأول الى النائب العام ، وله وحده أن يقرر المواجهة بين الشركاء ؛ وعند انتهاء التحقيق يرفع به تقرير ضاف الى " الغرفة الساطعة " ، وهى تقرر ما اذا كان يجب الاستمرار فى اعتقال المتهم ، فاذا قررت ذلك ، استمر التحقيق معه ؛ وعند نهايته ، ترفع أوراق الاتهام الى المحكمة ، فيقرؤها القضاة ، ويقدم نائب الملك (النائب العمومى) طلباته سواء بتبرئة المتهم أو بالحكم عليه ، ثم تسمع أقوال المتهم فوق منصة المحكمة ، وبعدها تصدر المحكمة حكمها غير قابل للاستئناف .

وكانت "الغرفة الساطعة" تعقد فى قصر "الارسينال" ؛ واستمر انعقادها باستمرار حتى يوليه سنة ١٦٨٢ عدا فترة أشهر وقفت فيها جلساتها ؛ وبلغ عدد المتهمين الذين قدموا إليها ٤٤٢ متهما ، تقرر استمرار اعتقال ١١٨ منهم ؛ وحكم بالاعدام على ستة وثلاثين ، وتقرر تعذيبهم بالتحقيق العادى وبالتحقيق الاستثنائى ، ثم اعدموا حرقا كما سيجىء ؛ ومات اثنان فى السجن ، وحكم على

---

(١) La Chambre ardente .

خمسة بالأشغال الشاقة ، وبالنفى على ثلاثة وعشرين ، وأطلق سراح الباقين لا لأنهم أبرياء ، ولكن لأن لهم شركاء فى التهم المسندة اليهم من أكابر رجال الدولة والسادة وأرفع سيدات البلاط .

* * *

يقول ڤولتير فى كتابه " عصر لويس الرابع عشر " فى حديثه عن قضية السحرة ، إن أعظم رؤوس فى المملكة استدعوا لابداء أقوالهم أمام " الغرفة الساطعة " ومنهم ابنتا أخت الكردينال مازاران ، والدوقه دى بويون ، والكونتة دى سواسون والدة البرنس أوچين ، والماريشال دى لوكسمبورج ، وقد كان لهؤلاء جميعا ولغيرهم من أكابر المملكة علائق ومعاملات مع السحرة .

وقد كشف التحقيق عن واقعة أشنع وأفظع ، هى أن حياة الملك ذاتها كانت موضعا لائتمار السحرة ، وأن التحريض على اغتيالها لم يجئ إلا من أعماق القصر ، ومن أقرب المقربين لشخص الملك ذاته .

كانت مدام دى مونتسپان حظية لويس الرابع عشر الشهيرة قد وصلت فى ذلك العصر الى ذروة القوة والنفوذ ، وتبوأت فى البلاط أرفع مكانة ، وبسطت سلطانها على المليك المتيم مدى أعوام طويلة ؛ ولكن حل عهد السأم والهجران أخيرا ، ومال الملك عن حظيته القديمة الى حظية جديدة هى فتاة من وصيفات الشرف تدعى الآنسة دى فونتانج ؛ فلما شعرت مدام دى مونتسپان بأفول نجمها اضطرمت سخطا ويأسا ، وفكرت فى أن تنتقم من الملك وحظيته الجديدة معا ، واتصلت بالساحرة لاڤوازان وزميلة لها تدعى لا تريانون ، فتعهدتا بتدبير مشروع لاغتيال الملك ، وتعهد الساحران المسمهان رومانى وبرتران بقتل الآنسة دى فونتانج ، وبذلت مدام دى مونتسپان للسحرة مالا وفيرا .

لويس الرابع عشر

وكانت مدام دى مونتسپان إبان نفوذها وسلطانها ، وثيقة الصلات بلاڤوازان وشركائها ؛ وكانت تلجأ الى السحرة التماسا لتوطيد نفوذها بفعل السحر والتمائم ؛ وكانت هذه الحسناء المتكبرة تنزل عند دجل السحرة ، وتقبل الاشتراك فى اجراءات السحر الأسود ، فترقد عارية أمام أولئك الطغام ، وتقوم لاڤوازان وزملاؤها باجراء القربان الدموى والسحر الأسود ، وتعتقد الحظية الهائمة أنها بذلك تذكى نار حبها فى نفس الملك ، وتوطد دعائم نفوذها وسلطانها .

ويتلخص مشروع اغتيال الملك كما دوّنه لارينى من أقوال لاڤوازان وشركائها فى أن الجناة فكروا أولا فى أن يزهقوا الملك بالسم ، وذلك بأن

ينثروه على ثيابه أو حيثما اعتاد أن يمر فيستنشقه تباعا ويموت ببطء، وتعهدت الآنسة ديزبيه وصيفة مدام دى مونتسپان بتأدية هذه المهمة . ولكن لاڤوازان رأت بعد التفكير أن تلجأ الى وسيلة أخرى . وذلك أن لويس الرابع عشر اعتاد طبقا لعادة قديمة أن يتلقى بنفسه فى أيام معينة العرائض التى يرفعها إليه رعاياه بالتظلم والالتماس، ويسمح لكل بالدخول عليه عندئذ دون فارق أو تمييز، ففكرت لاڤوازان أن تعد عريضة من هذا النوع تضمخها بنوع من السم الزعاف، فاذا تناولها الملك بين يديه سرى اليه السم وهلك؛ وتعهدت الساحرة لاتريانون باعداد هذه العريضة، وتعهدت لاڤوازان بتقديمها الى الملك . ورؤى أن يكون موضوعها طلب الغوث لشخص يشتغل بالسيمياء ويدعى بلسيس ويعتقله المركيز دى ترم فى قصره، وسعت لاڤوازان لدى وصيف بالقصر من معارفها ليسهل لها مهمة تقديم العريضة بنفسها .

وارتاع الجناة لجرأة لاڤوازان، وتنبأوا لها بالوقوع بين براثن القضاء متهمة بجريمة دولة؛ ولم يكن الموت شرما يخشى السحرة فى تلك العصور، بل كان التعذيب أشد ما يروعهم، بيد أن لاڤوازان كانت تخلبها وتغريها مائة ألف جعلتها مدام دى مونتسپان ثمنا للجريمة (نحو مليون فرنك من النقد المعاصر)، فقصدت الى سان جرمان فى يوم ٥ مارس سنة ١٦٧٩، ثم فى التاسع منه، محاولة أن تصل الى الملك فتقدم إليه العريضة المسمومة، ولكنها لم تفز ببغيتها؛ فعادت مكتئبة الى باريس، ولكن مصممة على أن تعود فى أول فرصة . بيد أن عين لارينى كانت ساهرة ترقب أعمال السحرة؛ وفى الثانى عشر من مارس قبض عليها وعلى ابنتها مرجريت، وعلى عدة من شركائها حسبما أسلفنا .

ولما ذاع نبأ القبض على لاڤوازان وشركائها، ارتاعت مدام دى مونتسپان، وغادرت البلاط فى الحال الى الريف، فمكثت هنالك مدى حين .

* * *

أنفقت المحكمة الخاصة أو "الغرفة الساطعة" أشهرا طويلة فى تحقيقات واجراءات يتسع نطاقها يوما عن يوم . وكان التحقيق يمتد شيئا فشيئا الى طائفة من الرؤوس الكبيرة ، حتى أن المحقق لارينى اضطر أن يطلب حرسا خاصا لمرافقته فى زيارته لسجن ڤنسان حيث اعتقل المتهمون؛ وكثر الهمس والوعيد حول قضاة الغرفة الساطعة، واهتم الملك ووزراؤه بالأمر، وكتب لوڤوا رئيس الوزارة الى رئيس المحكمة يقول : إنه بمناسبة ما نمى الى جلالته من الحديث حول "الغرفة" واجراءاتها فان جلالته قد أمر بتبليغ القضاة أنه يؤكد لهم حمايته ، وأنه يطلب إليهم أن يستمروا فى إقامة العدالة بثبات . ثم زاد الملك على ذلك فاستدعى إليه قضاة المحكمة ليطمئنهم و يشجعهم ؛ ويقول لنا لارينى تعليقا على تلك المقابلة ، إن جلالته قد أوصاه بتحقيق العدالة والواجب، وانه يرجو تحقيقا لخير المجموع أن ننفذ جهد الاستطاعة الى أسرار جرائم السموم ، وأن نجتث جذورها إذا استطعنا، وذلك دون تفريق بين الأشخاص والمقامات .

بيد أنه قد طلب الى القضاة من جهة أخرى أن يلزموا التحفظ فى بعض الأمور، وظهر أثر هذا التحفظ فى الحرص على عدم إحالة لاڤوازان الى التعذيب ، وذلك خوفا من أن ينطلق لسانها حين التعذيب بما لا يراد أن يذاع وأن يعرف ؛ ومع ذلك فقد صرحت لاڤوازان فى ساعتها الأخيرة عقب الحكم عليها بالاعدام « أنها مضطرة لأن تقول إراحة لضميرها إن عددا كبيرا من الناس من جميع الطوائف والطبقات قد لجأ إليها سعيا الى ازهاق الكثيرين ، وأن الباعث الأول لهذه الجرائم إنما هو الفجور » .

ولما وقف لويس الرابع عشر على أقوال مرجريت مونڤوازان ابنة لاڤوازان عقب اعدام أمها، كتب الى لارينى يطلب إليه أن يدون اعترافاتها

وما يترتب على هذه الاعترافات من مواجهات ومناقشات فى ملف خاص، وكذلك أقوال الساحرين رومانى و برتران، وهما من شركاء لاڤوازان . وقد كانت أقوال مرجريت مونڤوازان ذات أهمية خاصة لأنها تتعلق بمشروع تسميم الملك؛ ومن جهة أخرى فقد وعد لوڤوا الساحر ليساج بأن ينقذ حياته اذا قال كل شىء ، ولكنه لما ذهب فى اعترافاته الى حدود مروعة، رمى بالكذب ولم يقبل المحقق أن يصغى إليه بعد ؛ وأدلت متهمة أخرى تدعى فرانسواز فيلاستر بمعلومات مثيرة مدهشة ، فأمر الملك بأن تودع أقوالها فى ملف خاص ، وأن ترفع الى مجلسه ؛ وهكذا بلغ من اهتمام لويس الرابع عشر بهذه القضية أن لبث يتتبع كل أدوارها ، وأن يسحب من أوراق التحقيق كل مالا يرغب فى إذاعته ؛ والواقع أن لويس الرابع عشر تأثر أيما تأثر لما كشفت عنه التحقيقات من الوقائع والحقائق المؤلمة التى تصيبه فى أعز عواطفه وفى كرامته الملوكية . ألم تلجأ حظيته التى كان يعبدها الى السحرة ، وتلوث نفسها وجسمها فى معاهدهم سعيا الى إزهاقه ؟ أليست مدام دى مونتسپان أم أولاده المحبوبين ؟ ومع ذلك فقد كظم الملك العظيم ألمه وتأثره ، ولبثت هذه الوثائق الهائلة التى تكشف عن عاره فى خزائنه السرية أعواما طويلة ، حتى أمر باحراقها بعد ذلك فى مدفئه فى يوم من أيام سنة ١٧٠٩ ، أعنى بعد هذه الحوادث بثلاثين عاما .

* * *

كانت « الغرفة الساطعة » حاسمة صارمة فى أحكامها ، فقد حكمت بالإعدام والتعذيب على ستة وثلاثين متهما ثبتت إدانتهم فى مزاولة التسميم والأعمال السحرية الإجرامية ، وذلك من مجموع قدره مائة وثمانية عشر متهما . ونفذ الإعدام فى المحكوم عليهم تباعا ، وكان إعدام السحرة يجرى بطريق الحرق دائما . وكانت لاڤوازان ولاڤيجوريه وليساج فى مقدمة المحكوم عليهم

بهذا الموت المروع . وقد أحرقوا معا فى "ميدان جريف" . وتصف لنا مدام دى سفنيه الكاتبة الشهيرة منظر إحراق الساحرة لاڤوازان — وقد شهدته بنفسها — وتقول لنا "لقد أسلمت لاڤوازان روحها للشيطان فى لطف"، وينقل إلينا الكاهن الذى تولى مرافقة الساحرة الى المحرقة كلماتها الأخيرة وهى : "إننى مثقلة بأكداس من الجرائم، ولست أدعو الله أن ينقذنى من النار بمعجزة، لأن ماسألقاه من الجزاء لايقاس بشىء مما ارتكبت" .

ويقدم الينا ڤولتير فى كتابه "عصر لويس الرابع عشر" خلاصة لهذه الحوادث والمحاكمات المثيرة ثم يعلق عليها بقوله : "نستطيع أن نتصور أية إشاعات مروعة أذيعت خارج باريس . بيد أن حكم الإعدام الذى قضى به على لاڤوازان وشركائها قد وضع فى الحال حدا لهذه الأعمال وهذه الجرائم ؛ وقد كانت هذه الحرفة المروعة محصورة فى شرذمة من الناس ، ولم تلوث أخلاق الأمة كلها، بيد أنها طبعت أذهان الناس بميل سقيم الى اعتبار الوفيات الطبيعية نتيجة الجريمة" .

والواقع أن هذا الثبت من الآثام والجرائم المروعة يلقى ضياء كبيرا على روح هذا العصر وخلاله ، ويؤيد حقيقة تاريخية خالدة ، هى أن عصور العظمة القومية تتكشف فى الغالب عن صنوف من الانحطاط المعنوى والاجتماعى، تتناسب مع ماتبثه نعماء العصر وترفه من ألوان الفساد الروحى والأخلاقى، ومع مايذكيه العصر من الشهوات الانسانية الوضعية . وقد كان عصر لويس الرابع عشر بلا ريب على ما بلغه من العظمة والبهاء يعانى فعل هذه العناصر الهدامة، التى انحدرت بالمجتمع الفرنسى غير بعيد الى درك من التفكك والانحطاط كان نذير الثورة الفرنسية الكبرى[1] .

---

(١) اعتمدنا فى هذا البحث على كتاب العلامة فونك برنتانو : Le Drame des Poisons وكتاب ڤولتير : Siècle de Louis XIV .

الفصل الثانى

ذو القناع الحديدى

١٦٦١ — ١٧٠٣

يحاول البحث الحديث أن يلقى الضياء على كثير من الأساطير والمعضلات التاريخية ؛ وقد ينتهى البحث بتحقيق أصولها أو إقرارها كما انتهت إلينا ، ولكن على ضوء وثائق وأدلة مقنعة ، وقد ينتهى الى دحضها وهدمها و إبداء رأى جدير بشأنها ، يؤيده التدليل والتحقيق أيضا . وهذه هى روح التاريخ العلمية ، تذهب الى استخراج الحقيقة واستنباطها من ظلمات الماضى وأساطيره بما يسيغه العقل والمنطق والبرهان . ومن هذه المعضلات التاريخية قصة " ذى القناع الحديدى " الشهيرة التى ما زالت منذ قرنين تثير حماسة الباحثين ، وطلعة القراء ، والتى ظهر بشأنها حتى اليوم زهاء ألف كتاب ورسالة . وكان ڤولتير أول من عالجها بصورة جدية فى كتابه " عصر لويس الرابع عشر " ، وآخر من عالجها الكاتب الفرنسى بيير فرنادو فى كتاب ظهر منذ أعوام قلائل ، وفيه يذهب فى شأنها الى رأى جديد .

ويحسن قبل أن نأتى على مختلف الآراء والتحقيقات فى تلك المأساة الشهيرة أن نذكر خلاصتها ، وهى أنه فى أواخر القرن السابع عشر ، وفى عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، زج الى قلعة بنيرول سجين مجهول الاسم والشخصية ، قد غطى وجهه بقناع حديدى يفتح و يغلق من الأسفل أوقات الطعام فقط ، ولا يسمح للسجين أو الموكلين به برفعه مطلقا . وكان يلاحظه حاكم القلعة بنفسه و يعامله باحترام وتجلة ، و يشدّد عليه الرقابة والحفظ . ثم

نقل من هذا السجن الى قلعة سنت مرجريت، ثم الى سجن الباستيل تلازمه نكبرته وقناعه دائما؛ وهنالك توفى فى أواخر سنة ١٧٠٣، ولم تعرف قط حقيقة شخصه أواسمه أوالأسباب الخطيرة التى دعت الى اعتقاله على هذا النحو المؤسى.

من هو هذا الأسير المنكود ؟ ولماذا اعتقل ؟ وفيم كل هذا الحرص لاخفاء شخصه ومحياه ؟ وأى أسرار خطيرة ارتبطت بشخصه واقتضت محوه من عالم الأحياء ؟ هذه هى الأسئلة التى مازالت منذ قرنين موضع البحث والتحقيق فى مأساة ذى القناع الحديدى . ومن الغريب أنها لبثت بعد وقوعها زهاء نصف قرن فى طى الخفاء والكتمان، لا يشار إليها إلا همسا فى بعض الدوائر والأوساط الرفيعة .

على أنه ظهرت منذ أواخر القرن السابع عشر خارج فرنسا ، فى ألمانيا وهولندة عدة مذكرات ومؤلفات تحاول أن تلقى ضوءا على شخصية هذا السجين الشهير، وكان أغلبها مفرغا فى قالب القصة والرواية، ولم يكن لها من الناحية التاريخية شأن . من ذلك مؤلف ظهر فى كولونيا فى سنة ١٦٩٢، خلاصته أن ذى القناع الحديدى إنما هو سيد يدعى "ك . د . ر"، وقد كان خليلا للملكة حنه دوتريش والدة لويس الرابع عشر وهو والده الحقيق، وقد لبثت هذه الملكة فى عصمة زوجها لويس الثالث عشر زهاء ثلاثة وعشرين عاما عقيما لا تلد، حتى دفع إليها الكردينال ريشليو بهذا السيد الجميل لكى يدبر مولد وارث للعرش، ثم قبض عليه بعد أن حققت الغاية، وقضى عليه بهذا النوع الغريب من الأسر صونا لسر خطير من أسرار الدولة .

وفى رواية مماثلة أخرى أن ذى القناع الحديدى إنما هو أخ غير شرعى للملك لويس الرابع عشر، وهو ثمرة علاقة غرامية نشأت بين الملكة حنة دوتريش وبين الدوق بوكنجهام الوزير الانكليزى الذى قدم الى فرنسا فى سنة ١٦٢٥ ليعود الى انكلترا بالأميرة هنريت أخت لويس الثالث عشر

لويس الثالث عشر

التى زوجت من ولى عهد انكلترا ، فهام بحب الملكة ، ونشأت بينه و بينها علاقة غرامية، كانت ثمرتها هذا الولد غير الشرعى .

وفى رواية ثالثة أن ذى القناع الحديدى إنما هو أخ توأم للويس الرابع عشر، ولد بعد مولده ببضع ساعات ،وخشى الملك ورجال الدولة أن يثير مولده إشكالا فى وراثة العرش ، فرؤى إبعاده عن البلاط، و ربى فى بعض الأقاليم بعيدا عن العاصمة تحت رعاية بعض الكبراء ، وأحيط مولده وشخصه بأشد ضروب الكتمان ؛ ولما بلغ هذا الأمير التاسعة عشرة استطاع أن يقف على سر مولده بطريق المصادفة ، وأن يعرف حقيقة شخصيته ؛ وعندئذ خشى أخوه الملك لويس الرابع عشر عاقبة هذا الافتضاح فأمر بسجنه على هذا النحو الغريب ، وأن يوضع على وجهه قناع يحجب وجهه حتى يبقى سره مكتوما الى الأبد .

وكان لهذه الروايات التى تذاع خارج فرنسا وقع عظيم فى المجتمع الفرنسى؛ وكانت قصة ذى القناع الحديدى تثير منذ أواخر القرن السابع عشر طلعة الرواة والباحثين .

وفى منتصف القرن الثامن عشر، استطاع التاريخ أن يقول كلمته الأولى على لسان ڤولتير فيلسوف العصر وكاتبه .

ففى كتاب "عصر لويس الرابع عشر" يعرض ڤولتير الى قصة ذى القناع الحديدى بوضوح و يقول لنا ما يأتى :

"حدث بعد وفاة الكردينال مازاران (سنة ١٦٦١) ببضعة أشهر حادث ليس له مثيل ، وأغرب منه أن يغفل ذكره المؤرخون جميعا . ذلك أن سجينا مجهولا، أطول قامة من المعتاد، فتى ذا قد هو غاية فى الحسن والنبل، حمل فى منتهى الخفاء الى قلعة جزيرة سنت مرجريت التى تقع فى البحر الأبيض المتوسط بقرب شاطئ بروڤانس . وكان السجين يلبس قناعا يفتح من الذقن بأزرار صلبية حتى يتمكن من تناول الطعام والقناع باق على وجهه . وقد لبث فى الجزيرة حتى سنة ١٦٩٠، وعندئذ جاء ضابط من الفرقة السرية يدعى سان مار كان حاكما لسجن بنيرول ثم عين يومئذ حاكما للباستيل، فنقل السجين من الجزيرة الى الباستيل، وهو ما زال يحمل قناعه . وقد زاره المركيز دى لوڤوا (كبير الوزراء) قبل نقله من الجزيرة ، ولبث واقفا أمامه حين مخاطبته يرمقه بمنتهى الاحترام . ولما نقل الى الباستيل عنى براحته أتم عناية، ولم يرفض له طلبا ما .

"وكان شغوفا بالثياب الفاخرة، عارفا بالعزف على المعزف، وكانت تقدم إليه أفخر الألوان . وقلما يجلس الحاكم فى حضرته . وكان ثمة طبيب شيخ يتعهد ذلك الشخص الغريب أثناء إقامته فى الباستيل، ويفحص جسمه ولسانه ولكنه لم ير محياه قط ؛ وكان رجلا بديع التكوين أسمر البشرة ساحر

الصوت . وقد توفى ذلك الرجل المجهول فى سنة ١٧٠٣ ، ودفن ليلا فى كنيسة سنت پول . والذى يدهش حقا من أمره أنه وقت إرساله الى جزيرة سنت مرجريت لم تختف فى أوربا أية شخصية رفيعة . بيد أنه شخصية رفيعة بلا ريب ، لأن الحاكم كان فى أيام سجنه الأولى يقدم إليه أطباق الطعام بنفسه ثم يتركه ويغلق الباب[1] " .

هذا ما يقوله ڤولتير فى كتابه ، وملخص رأيه الذى يريد أن يذهب إليه يؤيد بعض الروايات التى ذاعت من قبل ، وهو أن ذلك السجين الذى عرف بذى القناع الحديدى إنما هو شخصية ملكية ، وهو توأم أو أخ لملك فرنسا لويس الرابع عشر ، إذ أى شخصية يعرف محياها فى طول فرنسا وعرضها قدر شخصية الملك ، وأى وجه شبيه يمكن أن يحرص على إخفائه الى ذلك الحد غير وجه ملكى هو صورة أخرى من وجه لويس الرابع عشر ذاته ؟

وقد لبثت أقوال ڤولتير هى كل ما يعرفه التاريخ عن ذى القناع الحديدى ، حتى أوائل القرن التاسع عشر حينما فحصت محفوظات الباستيل و بلدية باريس ؛ واستطاع البحث الحديث أن يظفر منها بحقائق تاريخية فى منتهى الأهمية . ولدينا عن ذى القناع الحديدى وثيقتان : إحداهما فى مكتبة الأرسنال ، وهى قطعة من مذكرات " دى چونكا " حاكم الباستيل الذى أدخل السجين فى عهده ، وفيها عن ذى القناع ما يأتى : " فى يوم الخميس ١٨ سبتمبر (سنة ١٦٩٨) أتى السيد دى سان مار من جزيرة سنت مرجريت ليتسلم منصبه كمحافظ للباستيل ، وكان يصطحب فى عربته سجينا كان معه قبلا فى بنيرول ، ولم يعرف اسمه قط ، وهو يضع دائما قناعا على وجهه " . ويشير دى چونكا أيضا الى وفاة هذا السجين فى مذكرة فى منتهى الأهمية هذا نصها : " حدث أن السجين المجهول الذى يستر وجهه دائما بقناع أسود من القطيفة ،

(١) Siècle de Louis XIV Ch. 25 .

والذى أحضره سان مار من جزيرة سنت مرجريت شعر أمس بعد القداس بانحراف ، ثم توفى بغأة فى مساء يوم الاثنين ١٩ نوفمبر (سنة ١٧٠٣) دون أن يمرض . وقد باركه كبير القسس ، ولكنه لم يستطع أن يمكث معه قبل وفاته سوى بضع دقائق . ودفن ذلك السجين المجهول فى عصر يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر فى مقبرة سان پول ، وذكر فى شهادة الوفاة أن اسمه مجهول . وقد علمت فيما بعد أنه سمى فى شهادة الوفاة بمارشيل " . وأهم من هذه الوثيقة فى الكشف عن اسم السجين المجهول ، وثيقة أخرى وجدت فى محفوظات بلدية باريس ، وهى تختص بوفاته وفيها : " فى ١٩ نوفمبر سنة ١٧٠٣ توفى " مارشيولى " فى الباستيل وعمره زهاء خمس وأربعين سنة ، ودفن فى يوم ٢٠ منه ، فى مقبرة سان پول " .

وقد كان للعلامة المؤرخ فونك برنتانو عضو المجمع العلمى شأن كبير فى اكتشاف وثائق الباستيل ودراستها ؛ وقد انتهى فى دراسته لما تعلق منها بذى القناع الحديدى الى رأى ، ربما كان خير الآراء فى إلقاء الضياء على شخصيته ، وفى رأيه أن ذلك السجين المجهول الذى قضى باخفاء شخصه ومحياه مدى أعوام طويلة ، إنما هو وزير الدوق دى مانتوا وسكرتير كارل الرابع دى جونزاجا من قبل ، الكونت « ماتيولى » الذى وعد الفرنسيين بتسليم قلعة مانتوا حين مهاجمتها ، ثم أفضى بعد ذلك بهذا السر الى بعض القصور الأخرى ، فحقد عليه لويس الرابع عشر ، واستمع لنصح وزيره فى البندقية بأن يعمل على اعتقاله بكل الوسائل ؛ وفعلا دبر الفرنسيون كمينا للكونت ماتيولى واختطفوه ونقلوه الى الأراضى الفرنسية ، وزج الى قلعة بنيرول فى سنة ١٦٧٩ ، ثم الى قلعة سنت مرجريت سنة ١٦٩٤ ؛ ولما نقل حاكم سنت مرجريت محافظا للباستيل نقل السجين معه لثقة أولى الأمر به ؛ ويوجد شبه عظيم بين الاسمين اللذين وردا فى سجلات الوفاة وهما مارشيل

ومارشيولى وبين اسم « ماتيـولى » فاذا قدرنا ما قـد يكون ثمـة من فرق النطـق أو تحريف فى كتابة الاسم الصـحيح ، أدركنا دون صـعوبة أن « مارشيولى » انمـا هو « ماتيـولى » . أما وضـع القناع الدائم على وجه السجين ، فيعلله فونك برنتانو برغبة لويس الرابع عشر فى اخفاء شخصه ، وعدم ذيوع اعتقاله نظرا لأنه اعتقل بوسائل شائنة مخالفة لكل حق وعرف .

بقى أن نأتى على رأى الكاتب الفرنسى بيير فرنادو ، الذى عرضه فى كتابه عن ذى القناع الحديدى ، وهـو أحدث رأى فى الموضوع . وخلاصته أن ذلك السـجين المجهول إنمـا هو سيد يدعى « دى لامورلهى » كان متزوجا بابنة جودينيه طبيب لويس الثالث عشر الخاص . وقد قبض عليـه وزج فى الباستيل بأمر لارينى رئيس المحكمة الجنائية لأنه وقف على سر دولة خطير لا يصح الوقوف عليه . أما هذا السر فالظاهر أن دى مورلهى كان يمتلك وثيقة عن الصفة التشريحية لجثة لويس الثالث عشر ، تلقاها من صهره جودينيه ، ويعلم منها أن الملك المتوفى كان عقيما غير أهـل للأبوة . ويؤيد فرنادو رأيه بحقيقة تاريخية هو أن زواج لويس الثالث عشر بحنـة النمسوية لبث عقيما مـدة طويلة ، ولم يولد لويس الرابع عشر إلا بعـد الزواج بنحو ثلاثة وعشرين عاما . وقـد انتهى المؤرخ القاص اسكندر ديمـا الكبير فى رسالتـه عن لويس الثالث عشر وريشليو فى شأن ذى القناع الحديدى ، الى ما يقرب من ذلك الرأى . بيد أن هنالك ما يعترض به على رأى فرنادو ، وهو أن الذى قام بفحص لويس الثالث عشر فى ساعاته الأخيرة إنمـا هو الطبيب بوفار لا الطبيب جودينيه ، وهو الذى وضع التقرير التشريحى عن جثته وهو اعتراض خطير لا ريب فيه .

فهل حل لغز ذى القناع الحديدى ؟ ان هذه البحوث النقدية المؤيدة بالأدلة والوثائق تلقى بلا ريب كبير ضوء عليه ، وتثبت بجلاء أن هذا السجين

الشهير النكرة معا لا يخرج عن اثنين اما شخصية ملوكية أريد إقصاؤها عن البلاط والمجتمع بتلك الوسيلة المدهشه ، واما شخصية خصم أو خائن يخشى بأسه قضى عليها بنوع من الوأد المدنى ؛ وفى رأينا أن الحل الذى ذهب اليه العلامة فونك برنتانو هو خير الحلول وأرجحها .

* * *

وعلى ذكر هذه المأساة الشهيرة فى التاريخ الفرنسى ، نذكر أن التاريخ الإسلامى يقدّم إلينا مثلا فريدا لشخصية بارزة من ذوات القناع أيضا . غير أن هذه الشخصية لم تكن مجهولة ولم يختلف فى شأن صاحبها . تلك هى شخصية ذى القناع الذهبى أو "المقنع" كما تسميه الرواية الإسلامية . وكان المقنع رجلا من أهل مرو ، شديد الذكاء والخبث مضطرم الأطماع ، فيلسوفا ملحدا يدعو الى مذهب جديد . وقد ظهر فى خراسان سنة ١٥٩ هـ . (٧٧٦ م) فى خلافة المهدى ، وادّعى الأمامة ثم الألوهية ، وتبعه خلق كثير من المشركين والملاحدة وضعاف العقيدة . وكان يتسمى "بحكيم" ويضع على وجهه قناعا من الذهب ، لشناعة محياه على ما يظهر ، ولكى يحيط نفسه بنوع من الخفاء المؤثر . وكان يقول بالحلول والتناسخ ، ويزعم أن أبا مسلم الخراسانى أفضل من النبى (ص) ، ويسجد له أنصاره من أى النواحى . ولما قوى جمعه ، أغار على الأراضى الإسلامية فيما وراء النهر واستولى على عدّة قلاع حصينة ، وهزم جند الخليفة أكثر من مرة ، وعاث أنصاره — ويسمون المبيضة — فى تلك الأنحاء . وفى سنة ١٦١ هـ (٧٧٩ م) أرسل المهدى لقتاله جيشا كبيرا ، فارتد الى قلاعه وتحصن بها ، ولما طال الحصار عليه واشتدّ به الضيق وأيقن بالأسر والهلاك ، جمع نساءه وخاصته وسقاهم سما فهلكوا جميعا ، ثم انتحر بالسم أيضا وأوحى الى أتباعه بأن تحرق جثته حتى لا يمثل به . وقيل بل أضرم النار فى القلعة وجميع ما فيها ، وصاح بأتباعه : من أراد أن يرتفع

معى الى السماء فليلق بنفسه فى النار، وألق بنفسه وألق نساؤه وأتباعه جميعا أنفسهم معه فى النار فهلكوا جميعا . ولما دخل جند المهدى القلعة ألفوها قاعا صفصفا وألفوا جميع ما فيها حطاما . وأذاع بعض من بقى من أتباعه أنه ارتفع الى السماء فزاد ذلك فى فتنة أنصاره ، ولبثت هذه الثورة الملحدة تضطرم فيما وراء النهر مدى حين .

ولقد كانت مأساة ذى القناع الحديدى مستقى لفيض من القصص الشائق الذى يمتزج بكثير من وقائع التاريخ الحق . ولكن مأساة ذى القناع الذهبى التى تشغل فى التاريخ الإسلامى، برغم غرابتها ووضوحها، حيزا صغيرا، لم تلق سبيلها الى ميدان القصص الخصب . فهل يتاح لنا يوما أن نقرأ بالعربية شيئا من القصص الشائق عن تلك المأساة الفذة، وعن غيرها من الوقائع والمآسى المدهشة التى يحفل بها تاريخ المشرق ؟

الفصل الثالث

البارون فون أوفنباخ

١٧٢٦ — ١٧٩١

كان القرن الثامن عشر عصر الدعوات السرية والثورات الفكرية معا؛ ففيه تنتظم الجمعيات السرية فى معظم أمم القارة ، وتزدهر حركة البناء الحر (الماسونية)، وتهب على المجتمعات الأوربية ريح المجهول والخارق ؛ وفى غمار هذا المعترك الفكرى المدهش نرى طائفة من أقطاب الدعاة والمغامرين السريين الذين يتشحون بأثواب الخفاء والشعوذة يجوبون أوربا من أقصاها الى أقصاها ، ويثيرون الروع والدهشة أينما حلوا ؛ ولهؤلاء الدعاة المغامرين أخبار عجيبة تفيض بها سير القرن الثامن عشر، وتبدو كأنها قصص مغرق بيد أنها لا تخلو فى الغالب من عنصر الحقيقة، وكل ما هنالك أن هذه الحقيقة يكتنفها كثير من الغموض والخفاء يرجع الى ظروف العصر والمجتمعات التى ظهر فيها أولئك المغامرون الأذكياء .

ومما يلاحظ أن معظم المغامرين والدعاة السريين الذين ظهروا فى تلك الفترة هم يهود أو ينتمون الى أصل يهودى، وأن معظم الحركات والدعوات السرية التى ازدهرت فيها ترجع أيضا الى أصل يهودى ، أو نلمس فيها على الأقل وحى الدعاية اليهودية ؛ وهذه الملاحظة ترجع فى الواقع الى ظاهرة تاريخية هامة، وهى أن اليهودية كانت منذ العصور الوسطى مستقى أو مبعثا لكثير من الحركات والدعوات السرية التى انتظمت فى أوربا ، ومعظمها يرمى الى غايات هدم دينية أو سياسية أو اجتماعية .

وقد كانت "الكابالا" اليهودية منذ العصور الوسطى أكبر مصدر لهذه الدعوات والرموز السرية . والكابالا شهيرة فى تراث اليهودية الروحى والفلسفى، وهى عبارة عن مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية، والرموز السحرية ، يتوارثها أحبار اليهودية ودعاتها منذ أقدم العصور، وأخص تعاليمها الروحية أن الله وهو المطلق الخالد ينفث من نفسه الى عالم الأرواح النقية، وأن روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود فى النهاية الى الله وتفنى فيه؛ ولكن الكابالا اشتهرت بالأخص برموزها السرية وتعاويذها السحرية، وقد كانت هذه مدى العصور تراث الخفاء فى يد الدعاة والمشعوذين يستغلون به سذاجة الكافة ، ويتخذونه سلاحا قويا لبث دعواتهم وتحقيق غاياتهم فى مجتمعات مؤمنة يروعها السحر والخفاء .

وقد بلغت هذه الدعوات والتعاليم السرية اليهودية ذروة القوة والذيوع فى القرن السابع عشر؛ وكانت بولونيا، وبالأخص مقاطعة بودوليا التى كانت يومئذ منزلا لطوائف كثيرة من اليهود، مركزا للدعوة الكابالية؛ وكانت هذه الدعوة تتمخض من آن لآخر عن فوارت دينية يتردد صداها فى المجتمع اليهودى كله . وفى أواسط القرن السابع عشر ظهر فى تركيا شابتاى زيبى، وهو داعية يهودى زعم أنه المسيح المنتظر ، فأثار ظهوره ومزاعمه فتنة كبيرة فى المجتمع اليهودى؛ ولم يكن "المسيح المنتظر" سوى داعية ماهر من دعاة "الكابالا"؛ وفى أواسط القرن الثامن عشر ظهر فى بولونيا عدّة متعاقبة من الدعاة الكابباليين أشهرهم إسرائيل البدولى الذى أسس طائفة "الحسديم"؛ وكان إسرائيل بارعا فى ضروب الشعوذة واستخدام الرموز والتعاويذ السحرية، فلقيت دعوته صدى كبيرا ، والتف حوله كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم "التلمود" وتقاليده .

وفى ذلك الحين أيضا ظهر داعية من أعظم دعاة الكابالا، وأشدهم خفاء

وغموضا ، فأثارت شخصيته الغامضة ، وحياته العجيبة ، ومزاعمه الخارقة ، وبذخه الطائل ، أيما روعة ودهشة فى مجتمعات أوربا الوسطى . واسم هذا الداعية الغريب يعقوب فرنك ، وكل مانعرف عن نشأته وحياته الأولى أنه ولد فى بولونيا (حوالى سنة ١٧٢٦) ، وكان فى حداثته يشتغل بتقطير الخمور ، ثم تجوّل حينا فى القرم وفى تركيا ، ودرس تعاليم " الكابالا " ورموزها دراسة عميقة ، واتصل بأنصار شابتاى زيبى ودعاهم الى لوائه ؛ ثم عاد الى بودوليا منزل الحركة الكابالية ، وهنالك أسس فى سنة ١٧٥٥ طائفة جديدة تعرف بجماعة " الزوهاريين " نسبة الى "زوهار" أو كتاب الضوء ، وهو من الكتب العبرية الكابالية ؛ ولم يلبث أن ذاعت دعوته وقويت عصبته ، ونهض لمقاومته جماعة " التلموديين " ، ونشبت بينهما خصومة قوية ، فالتجأ فرنك الى حماية أسقف كامنيك وأفضى اليه بميوله النصرانية ، وأحرق التلمود علنا ، وعاونه الأسقف على مقاومة خصومه حينا ولكنه ما لبث أن توفى ، واشتد الأحبار اليهود فى مهاجمة فرنك ومطاردته ، وأوقعوا به لدى حكومة وارسو ، ولدى مبعوث البابا ، وصوروه للسلطات الدينية والمدنية يهوديا مرتدا ، ونصرانيا مماذقا ، وأن دعايته خطر على العقائد المرعية ، فهبت السلطات لمقاومته ، وبدأت يد المطاردة تعمل لسحق " الزوهاريين " وتشريدهم .

والواقع أن مذهب فرنك لم يكن يهودية خالصة ولا نصرانية خالصة ، بل كان مزيجا غريبا من اليهودية والنصرانية والوثنية ، ولم تكن بولونيا مهدا خصبا لمثل هذه الدعوات الجريئة ؛ فلم يمض بعيد حتى قبض على فرنك بتهمة الردّة الكاذبة ونشر الإلحاد والكفر ، وزج الى قلعة شنتشوف ، وبادر كثير من أنصاره بالفرار الى تركيا ، واعتنق الكثلكة كثير ممن بقى منهم فى بولونيا ، ولكنهم بقوا يهودا فى سرائرهم ، وقبض على كثير منهم ، وحكم على البعض بالأشغال الشاقة ، ولكن كثيرين منهم استطاعوا أن يتقوا بستار

البارون فون أوفنباخ

الكثلكة ويل المطاردة ، ولقى الذين هاجروا الى تركيا عنتا واضطهادا من السلطات الدينية فى مولدافيا ، وانقض عليهم العامة ونهبوهم ، وتفرقوا فى كافة الأنحاء . أما يعقوب فرنك فلبث يرسف فى سجنه حتى سقطت قلعة شنتشوف فى أيدى الروس فى سنة ١٧٧٢ ، وعندئذ أطلق سراحه ؛ فتجول حينا فى بولونيا وبوهميا وموراڤيا متشحا فى الظاهر بثوب الكثلكة ، وهو يجمع الأموال والرسوم الفادحة من أنصاره وأبناء جلدته ، ويثير الروع والإجلال بين الكافة بمظاهر بذخة ؛ وكان مذهب الزوهاريين قد ذاع فى المجتمعات اليهودية فى تلك الأنحاء ، وكانت تعاليمهم أكثر جنوحا الى النصرانية ، فهم ينكرون التلمود ، ويسلمون بالتثليث والحلول ، ولكن ينكرون أن المسيح وحده أهل للحلول ؛ وكان هذا المزيج بين المذاهب والتعاليم المختلفة ملاذ الدعاة فى كل عصر ، فهم يزعمون دائما أنهم ينشئون مذهبا أو دينا جديدا ،

ولكنهم يعمدون دائما الى الاقتباس من المذاهب والأديان القائمة، ويسبغون على مزيجهم نوعا من الجدل الغامض للتمويه على العامة والبسطاء .

على أن يعقوب فرنك غدا مذ قوضت دعائم طائفته رجلا آخر، فهو لم يبق بعد داعية يتزعم مذهبا جديدا، ولم يبق بعد اعتناق الكثلكة يهوديا ينفث دعايته الى أبناء دينه؛ بل غدا فى الواقع شخصية جديدة يحوطها خفاء من نوع جديد؛ ذلك أن ظهر فجأة فى المجتمع الرفيع، يعيش فى بذخ شرقى طائل، ويحيط نفسه بحاشية كبيرة فخمة، ويدهش المجتمعات الرفيعة فى ألمانيا والنمسا بروعة مظاهره وفيض بذخه؛ وما زالت حياة فرنك فى تلك الفترة لغزا، وما زال مصدر ثرائه المدهش سرا على التاريخ؛ ومن ذلك الحين يعيش فرنك فى ڤينا وفى برون على مقربة منها، تحيط به أروع مظاهر الفخامة والبذخ، كما يحيط به أعمق الأسرار وأغرب المزاعم؛ ولبث فرنك مدى حين يدهش البلاط النمسوى وكل مجتمع ڤينا الرفيع بشخصيته الخفية، وحياته الفخمة الباذخة، وكانت له ابنة حسناء تدعى «حوة» استطاعت أن تتقرب من الأمبراطورة ماريا تيريزيا، وأن تنال لديها حظوة ونفوذا، وأن تمهد لأبيها كثيرا من السبل، ولكن الريب الذى يلاحقه أينما حل كان يحيط دائما بشخصيته ووسائله ومزاعمه؛ ولم يلبث أن اضطر الى مغادرة النمسا ليتقى شر الإتهام والمطاردة؛ وعندئذ تحول الى مدينة أوفنباخ بألمانيا على مقربة من فرانكفورت، واستقر بها مع حاشيته الكبيرة، وعاش هنالك بنفس البذخ الطائل الذى كان مثار الروع والدهشة والإعجاب أينما حل .

وعاش فرنك فى أوفنباخ أعواما طويلة، وتسمى بالبارون فون أوفنباخ، وهو لقب يغلب عليه فى كتب التاريخ والقصص، وأثار بروعة بذخه ومظاهره طلعة المجتمع الألمانى ودهشته كما أثار دهشة المجتمع النمسوى من قبل . ويقدم الينا المؤرخ الألمانى بيتر بير وصفا روائيا شائقا لحياة فرنك

العجيبة وبذخه المدهش يقـول فيه : "كانت له حاشية من بضع مئين من الفتيان والفتيات اليهود ذوى الحسن الرائع ، وكان يذاع أن صناديق المـال تنهمر عليه فى كل يوم ولا سيما من بولونيا ؛ وكان يخرج كل يوم فى موكب حافل ليقـيم شعائره فى العـراء ، فى عربة تجرها جياد مطهمة ، ومن حوله عشرة أو إثنا عشر فارسا بروسـيا فى حلل حمراء وخضراء موشاة بالذهب ، وقد شهروا الرماح و وضـعوا فى قلنسواتهم رموزا من النسور أو الوعول أو أهلة وشموسا وأقمـارا ؛ وكان المـاء يصب حيثما كان يقيم شعائره ، وكان يؤم الكنيسة فى مثل هذا البذخ ، وهنا لك يؤدى القداس بطريقة خاصة ، وفى خشـوع خاص ، وكان أنصاره يعتقدون فيـه الخلود ؛ بيـد أنه توفى فى سنة ١٧٩١ ، ودفن فى بذخ يعدل بذخ حياته ، وسار وراء نعشه موكب من ثمانمائة ؛ بيـد أن سر ثرائه و بذخه دفن معـه فى قبره ، وانحدرت أسرته بعـد وفاته الى حالة من البؤس تدنو الى التسـول ، وعبثا حاولت أن تستدر عطف أنصاره أو صدقتهـم ؛ ولم يمض سوى قليـل حتى غمرها النسـيان والعدم ، واضطرت لكى تعيش أن تزاول أعمال الحياة الفانية[1] " .

هـذه هى قصـة يعقوب فرنك وقصة حيـاته العجيبة : قصة مغامر ومشعوذ بارع استطاع أن يستغل ظروف عصره ، وما كان يسـود مجتمع عصره من إيمان وتعلق بالخوارق والأساطير . بيد أنه من الخطأ أن نقف عند هذه الصورة الظاهرة من حياته . ذلك أن حياة فرنك كانت سرا من الأسرار التى لاتنفذ إليها طلعة الكافة ، وكان وراء هذه الحياة الفخمة الباذخة ناحية أخرى يغمرها الخفاء المطبق . هل كان فرنك يعمل لنفسه و بوسائله الخاصة أم كان يعمل بوحى قوة خفية أخرى تمـده بأسباب البذخ الطائل وتدفعـه الى المجتمع مزودا بتلك المظاهر الرائعـة لكى يعمل على بث دعاية

(١) بيتر بير فى كتابه « تاريخ اليهود » : Geschichte der Juden .

معينة وتحقيق أغراض معينة ؟ لقد كان العصر الذى ظهر فيه فرنك عصر الخفاء حقا، وكانت موجة من الخفاء والتعلق بالخوارق والمجهول تغمر مجتمعات أوربا الرفيعة وتملك عليها تفكيرها وأهواءها؛ وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه فرنك مسلحا بأسراره ومظاهره العجيبة ، ظهر يوسف بلسامو أو الكونت كاجليوسترو مسلحا بمثل هذا الخفاء ، وأثار دهشة المجتمعات الرفيعة ولا سيما فى فرنسا بمظاهره وأعماله العجيبة ومزاعمه الخارقة ؛ وظهر فى نفس الوقت مغامر آخر من نفس الطراز وإن كان أقل روعة وتأثيرا، وهو الكونت سان جرمان واقتفى أثر زميله فى التذرع بالخوارق . ومما يلفت النظر أن حركة البناء الحر (الماسونية) كانت يومئذ تضطرم فى جميع أوربا ؛ ويرى البحث الحديث أن لحركة البناء الحر أغراضا خفية بعيدة المدى ، وأنها تعمل لغايات ثورية اجتماعية شاملة . ويرى بعض الباحثين أن الثورة الفرنسية كانت مؤامرة « ماسونيه » ونفثة من نفثات البناء الحر، وأن محافل البناء الحر هى التى نظمت خططها وبرامجها الأولى، بل يرى بعض الباحثين أن الثورة البلشفية الحديثة ليست بعيدة عن تأثير البناء الحر، وقد كان أولئك الدعاة المغامرون الذين خلبوا ألباب أوربا فى القرن الثامن عشر يتصلون بمحافل البناء الحر اتصالا وثيقا وإن يكن خفيا . أفليس لنا أن نعتقد بعد ذلك أن يعقوب فرنك لم يكن مغامرا أفاقا يعمل لنفسه ولمطامعه الشخصية ؛ وأنه بالعكس كان داعية خطيرا يقود حركة خطيرة لها صلة بخطط البناء الحر وغاياته ؟ وأنه كان يستمد المال الوفير والنصح والحماية من قوة خفية أعظم ؟ هذا ما نرجح ، وهذا ما يؤيده خفاء حياته وخفاء وسائله ومزاعمه وغاياته ، واتشاحه بثوب الدعوة الدينية التى كانت على كر العصور ملاذا لمختلف الدعوات والغايات .

الفصل الرابع

الكونت سان جرمان

فى منتصف القرن الثامن عشر طافت بقصور أوربا وعواصمها الكبرى شخصية غريبة لبثت أعواما طويلة تبث الحيرة والإعجاب أينما حلت . وكانت عقلية العصر، وتطوراته الفكرية تذكى كل خيال وكل طلعة، وتفسح للنابهين من الدعاة والمغامرين ميدانا شاسعا . كان هذا العصر عصر الخفاء كما قدمنا، وكان للسحر وأقطابه ، والسيمياء وأساتيذها، والبناء الحرّ ودعاته، أوفر حظ فى امتلاك ناصية العقول والأذهان، وإثارتها، وتوجيهها .

ونريد بهذه الشخصية الغريبة ، رجل وافر الدهاء والذكاء ، كثير الأسرار، عرف فى عواصم أوربا فى هذا العصر بأسماء وصفات متعددة، ولكنه اشتهر بالأخص باسم الكونت سان جرمان . وقد عرف بهذا الاسم مذ هبط الى فرنسا، واتصل بملكها يومئذ لويس الخامس عشر، واستقر فيها حينا . وكان يعرف من قبل بالمركيز دى مونفيرا أو الكونت بيلاماري، والشفالييه ثلدونى وغيرها .

ولم يعرف إنسان بالتحقيق من كان الكونت سان جرمان هذا وأنى ولد ونشأ ؛ ويقول البعض إنه ولد الدونا ماريا دى نويبورج أرملة شارل الثانى ملك اسبانيا . والواقع أن الكونت كان يتحدّث عن طفولته فيذكر أنه ترعرع فى ظروف ملوكية ومن حوله حاشية كبيرة، ينعم فى جوّ بهيج ويخطر فوق مشرفيات بديعة، وربما زعم أحيانا أنه سليل ملوك غرناطة المسلمين ؛ وقيل إنه ظهر فى عهد الوصاية على لويس الخامس عشر (سنة ١٧١٥ — ٢٣)

شخص يدعى المركيز دى مونفيرا كان يدّعى أنه ولد غير شرعى للدونا ماريا دى نويبورج ، وأن هـذا الشخص هو نفسـه الذى تسمى فيما بعـد بالكونت سان جرمان . ومن الروايات الذائعـة فى شأن الكونت أنه يهودى برتغالى يدعى المركير بتمار . وقد أيد هذه الرواية فيما بعد الدوق دى شوازيل وزير لويس الخامس عشر الذى عرفه حق المعرفة ، إذ غضب منه ذات يوم وقال ماهو إلا يهودى برتغالى . وقيل أيضا إنه يهودى إيطالى أو الزاسى أو يسوعى اسبانى . على أن الحقيقة لم تعرف قط بصورة حاسمة ، وكان فردريك الكبير نفسه يصف سان جرمان بأنه رجل لم ينفذ البشر الى سره قط .

والمحير فى أمر الكونت سان جرمان أنه كان يتكلم الألمـانية والانكليزية والايطالية والاسبانية والبرتغاليـة كبنيها جميعا ، وأنه كان دائم الفتـوة خفى السن الى حدّ أنه كان يعتبر دليلا ماديا على أن الانسان يستطيع أن يطيـل حياته الى أجل خارق . والواقع أن الكونت كان يزعم أن عمـره يربى على قرون ، وكان يدعى أمورا خارقة فيزعم أنه عاش ومات مرارا عديدة مدى القرون ، ويعدّد حوادث حياته منذ العصور الغابرة ، فيزعم أنه كان صديقا لملكة سبأ ، وكليوباترة ملكة مصر ، ويصفهما ويعـدّد خلالهما ومآثرهما بمنتهى الدقة ، ويزعم أنه شهد مجلس ترنت ، وأنه كان صـديقا للامبراطور شارلكان (شارل الخامس) وفرانسوا الأول ، وهنرى الرابع ، وأنه اتصـل بهؤلاء الملوك فى البلاط وفى ميدان الحروب ، ويروى عنهم بمنتهى الدقة وقائع وتفاصيل مدهشة حتى ليخيل الى السامع أنه انتقـل الى العصر الذى تشير إليه الرواية ، وأنه يستحيل على غير شاهد عيان أن يلم بمثل هذه التفاصيل ؛ وكان سان جرمان متمكنا من التاريخ ولا سيما نواحيه الخبرية . ويروى البعض أنهم عرفوا سان جرمان فى البندقيـة سنة ١٧١٠ وأنه كان يومئـذ يبدو فى الخمسـين من عمره ، ثم يروى الذين شاهدوه سنة ١٧٦٠ أنه كان

فى نحو الستين من عمره، ويروى أحدهم وهو موران أمين السفارة الدنماركية، وكان قد عرفه فى هولندة منذ سنة ١٧٣٥ ، أنه لم يبد عليه أنه قد كبر قط ذرة عما كان عليه منذ ربع قرن ! والمجمع عليه أن سان جرمان لبث طول حياته التى عرفت، والتى استطالت زهاء نصف قرن، قويا ظاهر الجمال والفتوة، لم يشوهه غضن ولا وخطه شيب . وقد يرجع ذلك الى تعرفه بعض الأسرار الكيميائية والاستفادة منها بصنع ما قد يفيده من أشربة ومساحيق . وقد كانت المركبات الكيميائية وسيلة لنساء مثل نينون دى لانكلو، وكاترين دى مديتشى ، استطعن أن يحتفظن بالفتوة والجمال طويلا . وكان الكونت يستفيد من هذه الميزة الغريبة، وما يثيره حولها من مزاعم وخرافات ، وما يقترن بمولده ونشأته وشخصه من خفاء ، ليخلق حوله جوا من الروعة والدهشة أينما حل . بيد أنه كان ، على الأرجح ، مغامرا مسالما، لم يترك وراءه أثرا معروفا للجريمة والعنف . وكان جل همه، على ما يظهر، أن يغزو العالم الرفيع ، وأن يغترف من مناهل بذخه وترفه ولذائذه، وأن يحيا حياة الأمراء والعظماء، وأن يطرب بما يثيره بخفائه حول شخصه من روعة وجلال .

ذاع اسمه سنة ١٧٥٠، وطار ذكره الى أقاصى أوربا . وكان الكونت قد طاف بجميع الأقطار المعروفة يومئذ ولا سيما بلاد المشرق حيث تمرس فى كثير من الأسرار والخوارق المشرقية ، وعاش بعد ذلك دهرا فى ألمانيا ثم ظهر فى فرنسا فجأة، فخلب ألباب المجتمع الفرنسى المرح، وفتن باريس بجماله وظرفه وذكائه وفصاحته ؛ وسرعان ما اتصل بلويس الخامس عشر ، وغدا خله وسميره، وكان لويس يشغف بسمره ويقضى الليالى فى سماع أقاصيصه ومزاعمه الخارقة، وخاض الكونت غمار الدسائس السياسية التى كانت تضطرم يومئذ فى البلاط الفرنسى ؛ ولكن الدوق دى شوازيل رئيس الحكومة كان

يخشى نفوذ المغامرين الأجانب الذين كان لويس الخامس عشر يستمع اليهم ويفسح لهم مجالا فى بلاطه الفاسد المضطرب، وكان يرتاب بحق فى مساعى الكونت سان جرمان الذى غدا فى الواقع آلة فى يد الدبلوماسية السرية التى كان الملك يحوك شراكها خفية عن وزيره. وكان الدوق دى شوازيل يتخذ مثلا أعلى لسياسته، ويتوجه بكل جهوده الى أمنية واحدة هى عقد السلام والصداقة بين أسرتى بوربون وهبسبورج أو بالحرى بين فرنسا والنمسا. ولكن الماريشال بليل وزير الحربية كان يبغض النمسا ويحارب هذه السياسة خفية. وكان لويس الخامس عشر وخليلته المركيزة دى بومبادور، يتوقان من جهة أخرى الى السلام لأن الحرب كانت تسير من سيئ الى أسوأ. وكان ينسب الى شوازيل أنه رغم مناصرته هذه السياسة لم يبذل كل ما يجب لتحقيق السلام بين الدولتين. وكان سان جرمان من أصدقاء الماريشال بليل، وكان كثيرا ما يقترح عليه آراء غريبة، فقص عليه ذات يوم أنه صديق حميم للبرنس لويس أمير برنزفيك، وأنه يستطيع أن يوسطه فى عقد الصلح بين فرنسا والنمسا؛ وعندئذ رأى الملك أن يكلف سان جرمان بتلك المهمة، فأوفده الى الهاى حيث كان أمير برنزفيك. ولكن سفير فرنسا فى هولندة الكونت دافرى علم الحقيقة، فأرسل من فوره الى شوازيل ينبئه بالأمر، وأرسل اليه شوازيل أن يطلب الى البرلمان الهولندى القبض على سان جرمان وتسليمه لفرنسا؛ وفى اليوم التالى تقدّم الى مجلس الدولة المنعقد برياسة لويس الخامس عشر، وأبلغ رسالة السفير وما رد به عليه، ولم يجرؤ الملك ولا الماريشال بليل على الاعتراض بكلمة على ما اتخذه شوازيل فى حق سان جرمان من الإجراءات. ولكن سان جرمان علم بالأمر فى الوقت المناسب، فاستطاع أن يفر الى انكلترا رغم وفود سريات من الجند الفرنسى للقبض عليه.

ولم يمكث سان جرمان طويلا فى انكلترا بل قصد الى بطرسبرج حيث أكرمت وفادته . ويقال إنه اشترك فى تدبير ثورة سنة ١٧٦٢ التى انتهت بمقتل الأمبراطور پول الأول وتولية زوجته كاترين الثانية، أو الكبرى، ولكن الرواية لا تحدد لنا الدور الذى أداه فى هذه الثورة، بيد أن المحقق أنه كان من أصدقاء آل أورلوف، والمعروف أن الأمبراطورة كاترين كانت خليلة الدوق أورلوف عميد هذه الأسرة، وأن آل أورلوف كان لهم يومئذ أعظم نفوذ فى روسيا. ثم قصد سان جرمان الى برلين، وتجوّل حينا فى عواصم ألمانيا وإيطاليا وأقام أعواما فى شفاباخ ، وفى بلاد أمير انشباخ ، واستقر أخيرا فى مدينة أيكرنفرده فى دوقية شلزفج، واتصل بأميرها كارل فون هاسه. وكان الدوق فون هاسه يشغف بالعلوم الخفية ويقرب دعاتها ، فأكرم سان جرمان وأغدق عليه عطفه ومنحه، وأنفق سان جرمان هناك بقية حياته حتى توفى سنة ١٧٨٠، فاستولى الدوق على أوراقه، ولكنه لم يبح قط بكلمة عن أصله وسره . وقيل إنه توفى سنة ١٧٨٤ بعد أن عمر نحو قرن، وقيل أخيرا إنه توفى قتيلا بيد أعضاء جمعية "الصليب الوردى" .

ولم ينس البارون فون جلايخن صاحب المذكرات الشائقة عن شخصيات هذا العصر أن يشير الى سان جرمان فى مذكراته، بيد أنه لم يلق كبير ضياء على سيرته . ومما يقول فى روايته عنه : إن سان جرمان قال له ذات يوم : "إن أولئك الباريزيين الحمق يعتقدون أنى قد عمرت خمسة قرون، فأؤيدهم فى تلك الفكرة لأنها تطربهم . وليس معنى هذا أننى لست أبدو أصغر بكثير من عمرى الحقيقى" .

وكان سان جرمان يعيش فى بذخ لم تعلم مصادره الحقيقية قط . وكل ما عرف أنه كان يكتسب أموالا وفيرة من صنع المركبات الكيميائية والملونات ، وسبك بعض الأحجار الكريمة من المعادن الدنيا . ويقول ليفى

مؤرخ السحر إنه كان يصنع الذهب والأحجار الكريمة ، وإنه كان ساحرا بارعا كسحرة ألف ليلة وليلة ، وان أباه بالتبنى كان عضوا فى جمعية "الصليب الوردى" وانه نفذ الى أسرار معظم الجمعيات السرية المعاصرة . ويروى البارون فون جلايخن أنه رأى عنده ذات يوم جواهر كبيرة نفيسة لا تحمل لمحة من طابع التزييف . ومن الغريب حقا أن سان جرمان كان رغم هذا البذخ الطائل يعيش فى اعتدال جم لا يفرط فى هوى من الأهواء البشرية ، ولا يذوق الخمر قط ، ولعله كان يدين لهذا الاعتدال بكثير من روائه ومتانة بنيته . بيد أنه كان فى هذا المقام يشير فى بعض الأحيان باشارات غامضة الى أعماق الحكمة الطبيعية والى ما يملك من أسرار علومها وكنوزها الدفينة ، والى ذخائره ، وسمو نشأته .

وقد ذكرنا أن سان جرمان كان يؤثر السكينة فى مغامراته . وكان يزعم أنه يعرف أسرار الخلود وأسرار السيمياء أو صنع الذهب ، ولكنه لم يحاول أن يبيع علمه الى أحد من الناس أو حكومة من الحكومات . وكان يقتصر على أن ينصح الى من يسأله طريق الثروة أن يجرى عمليات اقتصادية أو مالية معينة . ولم يشتهر عنه أنه كان مزيفا أو على الأقل لم يترك وراءه أثرا يؤخذ به . وقد حدث ذات مرة أن قبض عليه فى احدى مدن بيمون بسبب حوالة مزورة ذات مائة ألف جنيه ، ولكنه أبرز المال فى الحال ودفع من فوره قيمة الحوالة ، وأطلق سراحه لساعته . وكان يعامل أمراء القصور الألمانية الصغرى التى عاش فيها ببساطة و بلا كلفة ، ويزعم أنه كان صديقا لفردريك الأكبر وأنه كان يراسله . وهو ما قد يكون حقا لأن فردريك كان يتعرف بجميع أعلام عصره ، ويجتهد دائما أن يجعل من شخصياته الغريبة آلات تفيد فى تحقيق خططه وغاياته .

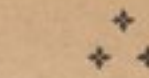

وبعد فهل كان سان جرمان مغامرا فقط يعمل لحساب نفسه؟ ألم يكن رسولا لجماعات معينة تبث فى الخفاء دعوات معينة ؟ لقد ظهر سان جرمان كما قلنا فى عصر ازدهرت فيه الجمعيات السرية فى أوربا، ولا سيما محافل البناء الحر وقذفت الكابالا اليهودية الى أوربا بطائفة أكابر من "السحرة" والدعاة . وسان جرمان يهودى على الأرجح . وكان ثمة شبه كبير بينه وبين أولئك الدعاة المعاصرين أمثال فرنك ، وفوك، وكاجليوسترو . أفليس لنا أن نستنتج أن سان جرمان، بما كان يحيط بأصله ونشأته وأعماله وغاياته من خفاء وأسرار، لم يكن سوى داعية لهاته القوة الخفية التى بثت يومئذ رسلها فى جميع أنحاء أوربا ؟

الفصل الخامس

يوسف بلسامو

١٧٤٣ — ١٧٩٧

كما أن القرن الثامن عشر كان عصر الدعوات السرية والثورات الفكرية فكذلك كان عصر الخفاء المدهش؛ وكانت الثورة الفكرية التى أخذت تبدد ظلمات المبادئ والأفكار القديمة تملأ الأذهان شغفا بالجديد والمدهش. وكانت مزاعم الأفاقين والدعاة تغلب على العلم الصحيح، كما هو الشأن فى فاتحة كل انقلاب فكرى. وكانت السيمياء تكسف خطورة الاختراعات الكيميائية، ويطغى سيل الأكاذيب والمزاعم الروحية على الطب الصحيح. وكانت المجتمعات التى يشوقها كل جديد ومدهش، ويحفزها كل أمل باطل ومشروع خلب، تهرع الى ماينثر حولها من ضروب الاستهواء العقلى أو النظرى، وتصغى الى كل مايقال من ضروب الخوارق والشعوذة. فكان هذا عصر الأذكياء البارعين من المغامرين والدعاة المرتزقة، أو كان، كما قدمنا، عصر الخفاء المدهش.

فى هذا العصر الفريد فى خواصه الطريفة، ازدهرت أعظم طائفة عرفها التاريخ من الدعاة المغامرين، وذلك فى الوقت الذى بدأت تبزغ فيه شمس العلم الصحيح، والتفكير الحر. فبينا نرى ڤولتير، وديدرو، وروسو من ناحية، إذا نرى سان جرمان، وكاجليو سترو، وفرنك من ناحية أخرى، ثم اذا باليهودية تخرج قسطها فى هذا العصر من الدعاة النابهين. ونرى هذا الرهط من المغامرين ذوى الجرأة والبراعة يجوسون خلال أوربا فى أواسط القرن الثامن عشر،

ويخلبون ألباب الناس بضروب سحرهم وخوارقهم، ويسممون عقول المؤمنين بغريب نظرياتهم وتعاليمهم .

وفى ذروة هذا العصر، وفى مقدمة أولئك المغامرين نرى يوسف بلسامو المعروف بكاجليوسترو . ولعل أحدا منهم لم يستغل إيمان هذا العصر مثلما استغله بلسامو مع أنه لم يكن أوفرهم ذكاء ولا براعة . بيد أنه كان أكثرهم فهما لعقلية الجماهير، وأدقهم تقديرا لنزعاتها وتطورات مشاعرها وعواطفها ؛ وبينما كان سان جرمان وفرنك يتصلان بالعروش والقصور، اذا بكاجليوسترو يؤثر قيادة الدهماء والعامة، فيهبط حينا الى درك الجريمة والابتذال، ويسمو أحينا الى مراتب العلم الخارق، والنفوذ المدهش ؛ واذا كانت مباحث الشرطة فى باريس ومجلس التحقيق فى رومة قد كشفت كثيرا من حياة كاجليوسترو الظاهرة، فان كثيرا من خوارقه ومدهشاته ما زال على التاريخ لغزا يحيط به الخفاء ؛ فقد برز هذا الأفاق الداهية فجأة الى ميدان النفوذ والشهرة ، وزعم لنشأته قصة عجيبة خلاصتها أن ذكرياته البعيدة تحمله الى المشرق ، حيث رباه حكيم يدعى التوتاس فى « المدينة » فى بذخ ملوكى، فلما بلغ الثانية عشرة سافر الى مكة برفقة أستاذه وحشمه، وعاش هنالك أعواما فى دار قريبة من دار الشريف . ثم سافر الى مصر وفيها تلقى من الكهنة حكمة المصريين القدماء التى قلما يعرفها من الناس أحد ؛ ثم جاء فى سنة ١٧٦٦ الى مالطة حيث استقبله أستاذ الفرسان الأعظم باحتفاء بالغ ؛ ويفهم من بعض اشاراته أنه ولد أميرة من تبريز ، وتوفى معلمه التوتاس فى مالطة نصرانيا وكاهنا . ومن ثم سافر الى نابولى حيث تبدأ حياته العامة . وكان يزعم أحيانا أن عمره يربى على الثلاثمائة ، وأنه عاش مرة قبل ذلك أيام المسيح وأن المسيح كان صديقه الحميم ، وأحيانا أنه سليل كارل مارتل ، أو غيره من عظماء الملوك والفاتحين .

والحقيقة أقل بهاء، وأقل روعة، فقد ولد يوسف بلسامو فى بالرم، فى ٨ يونية سنة ١٧٤٣ وتلقى تربيته الأولى فى مدرسة سان روش فى نفس المدينة، وغادرها فى سن الثالثة عشرة الى دير «اخوان الرحمة» فى كارتاجيرون، وهنالك استمال اليه الأخ الكيميائى، وتلقى منه على ما يظهر مبادئ الطب والكيمياء؛ والظاهر أنه فوق ذلك كان يشغف بالكيمياء والنبات، ولكنه لم يلبث طويلا فى الدير لخبثه وسوء سلوكه، فعاد الى بالرم، وأظهر عندئذ براعة فى الرسم والمبارزة. ولكن براعته فى الرسم لم ترفعه الى مصاف الفنانين، وإنما استخدمها فى اتقان التزوير وتقليد الخطوط، واستخدم مهارته فى المبارزة فى الشغب والشجار، ولبث حينا يرتزق من ضروب الخديعة والإفك، فيزعم السحر ومخاطبة الأرواح، ويزيف الأوراق والوثائق وتذاكر المسارح والأديرة. فلما كثرت فرائسه فى بالرم وثارت حوله شكوك الشرطة، فر الى مسينى وهنالك تعرف بأفاق يدعى التوتاس — ولعله التوتاس حكيم طفولته المزعوم — كان قد تجوّل حينا فى المشرق، فتلقى عنه بعض ضروب الشعوذة وشيئا من لغات المشرق. ثم نزح الى رومة، واستطاع هنالك أن يتصل بطائفة من الكبراء. ثم تزوج من فتاة وضيعة، ولكن بارعة الحسن تدعى لورنزا ڤليزيانى، كان يزعم أنها ابنة سيد كبير، ويعتمد كثيرا على سحرها وجمالها. والمحقق أنه لم يكن يعترض قط على علائقها مع الكبراء والأغنياء الذين يرى أن يستغل نفوذهم أو يستلب أموالهم، وانها كانت فى نفس الوقت آلة ذليلة فى يده يطوح بها كيفما شاء.

وفى رومة اشترك بلسامو فى تزييف بعض أوراق وتحاويل مالية. فاكتشفت الشرطة جرمه وطاردته، ولكنه استطاع أن يفر مع زوجه الحسناء. فأم لندن أولا، وعاث فيها حينا نصبا وتزويرا. وكانت لورنزا دائما ساعده الأيمن. ولكن أمد عيثه لم يطل، وأرهقته الشرطة الانجليزية. فسافر الى

باريس ، ولكن كلية الطب هنالك حظرت عليه مزاولة الطب والمعالجة ؛ فتجوّل حينا فى هولندة وألمانيا ، ثم ظهر فجأة فى بالرم باسم سيد كبير ، وهنالك تعرفت لورنزا بأمير صقلى كبير ، أخذ على نفسه حماية الأفاق ، وشدّ أزره فى كل بادرة ، وإنقاذه من براثن الشرطة والعدالة . ثم عاد الى التجوال فطاف بمدن اسبانيا ، باسم الدكتور تشيو . وكان يعيش عندئذ من ضروب متعدّدة من الشعوذة والسيمياء فيحضر ماء الجمال ، واكسير الحياة والشباب ، ويخرج الذهب من المعادن الدنيا ، ويكبر اللآلئ والجواهر ، ويكشف الطوالع . وكان فى كل ذلك يعتمد على سحر لورنزا ، وكان يعيش كالأشباح يظهر ويختفى تباعا ، ولا يطيل المكث فى مكان واحد . وعلى هـذا النحو اختفى فجأة من اسبانيا وظهر ثانية فى لندن ثم باريس .

وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى حياة بلسامو . فنراه من ذلك الحين يجانب الصغائر ، ويهجر الجماهير الى الأوساط الرفيعـة ، ويتشح برداء الخفاء والعلم الدفين ، ويظهر فى أثواب الكبراء ؛ ومن ذلك الحين يبدأ نفوذه الخارق الذى جعـله حينا من شخصيات أوربا فى هـذا العصر . وقد بدأ بلسامو لعهده الثانى بالالتحاق بمحافل البناء الحرّ ، وتسمى بكاجليوسترو ونفذ الى جميع المحافل السرية ، والجماعات الخفية التى كانت تزدهر فى هـذا العصر ؛ وكان تمكنه من تعاليم الخفاء ، والنظريات الروحية ، ومزاعم الغيب ، وإلمـامه بصنوف شتى من السيمياء يفسح له مجال الظهور والنفوذ ، فكانت تهرع إليه الأفراد والجماعات ، ولا سيما النسوة وضعاف الأخلاق والأعصاب .

وأخذ كاجليوسترو يتردّد بين باريس وهولنـدة فى دوائر البناء الحـرّ ، والجمعيات السرية المختلفة ويحشد من حوله الدعاة والتلاميـذ ويشتغل بالأعمال السحرية ، ويقصده النبلاء لقضاء كثير من الأغراض المريبـة ، ويقصده آلاف من المرضى للانتفاع بعلاجه الروحى . وكان هذا الضرب

من العلاج قد ذاع يومئذ ، مذ بدأ يطبقه مسمر . وغدا كاجليوسترو قديسا فى معنى من المعانى، تكشف إليه أروع الأسرار، ويلتجأ الى براعته وفنه فى مهام الأمور، وينشر حوله خفاؤه وخوارقه جوّا مؤثرا من المهابة . ثم أسس فى لاهاى محفلا نسويا للبناء الحر ، وفى باريس جمعية سرية على نمط التقاليد المصرية القديمة ، كان يجرى رسومها السحرية متنكرا فى صورة أبى الهول . ويقال إنه تنبأ لكثيرين من سادة البلاط الفرنسى بألوان الموت التى لقوها فيما بعد ، وأرى مارى انتوانيت يوم كانت ولية للعهد شبح الجيلوتين فى قدح من الماء . وكان يزعم أن طريقته إنما هى طريقة المصريين القدماء، وأن مهمته هى أن يقود المخلصين الى مثل أسمى من الكمال المادى والمعنوى ، ويلقى الى أنصاره والمعجبين به أغرب التعاليم والارشادات، ويمدهم بالمساحيق والسوائل المريبة ، ويعنى فى المحافل بمخاطبة أرواح الملائكة وأنبياء العهد القديم ، ويلجأ فى ذلك الى طرق مسمر أو بالحرى الى نوع من التنويم المغنطيسى . ومن الغريب أن كاجليوسترو استطاع أن يخلق له عبادا حقيقيين يقضون الساعات ساجدين أمامه ويعتقدون فيه القدسية ، والقدرة على الخوارق؛ وكان يفتح محافله للناس من سائر الأديان ولا سيما اليهود قائلا : إنهم أشرف أهل الأرض ؛ بل كان فوق ذلك يتظاهر بالإيمان العميق، والورع الفياض ويحارب الإلحاد ، والإنكار . على أن ذلك كله لم يكن إلا قناعا يستر به عواطفه ومبادئه الحقيقية .

كاجليوسترو

ثم طاف كاجليوسترو حينا بعواصم أوربا ، فزار البندقية ، ثم برلين ولكنه لم يلق هنالك نجاحا يذكر ، فعرج على دانتزج وكينجزبرج ثم سافر الى روسيا فى ثوب ضابط اسبانى ، ولكن سفير اسبانيا احتج فى الحال على ذلك الادّعاء . وعارض الدكتور روجتزرون طبيب الأمبراطورة فى كل ما حاول كاجليوسترو اجراءه فى بطرسبرج من ضروب الشعوذة والسحر ، فغادرها ساخطا الى وارسو ، ثم الى فرانكفورت فشتراسبورج ، وهنالك هرع اليه الناس من كل الطبقات . وكان صيته يسبقه الى كل مكان يؤمه . وفى شتراسبورج اتصل بالكردينال دى روهان لأوّل مرة . وكان الكردينال دى روهان قد وقع عندئذ ضحية حادث العقد المشهور . وخلاصته أن الكردينال حاول أن يتقرّب من الملكة مارى انتوانيت ، وأن يزيل بذلك ما يلقى من الجفاء والجمود فى بلاط لويس السادس عشر ، فاحتالت عليه أفاقة كبيرة تدعى مدام دى لاموت ، وأخذت تغريه تباعا بأن الملكة قد بدأت تظهر رضاها عنه وتحمل إليه خطابات مزوّرة زاعمة أنها من الملكة ، واستطاعت أخيرا أن تقنعه بأن جلالتها تريد شراء عقد نفيس من اللآلئ يساوى الملايين ؛ بيد أنها لا تستطيع دفع الثمن صفقة واحدة ، وأنها تريد أن يشتريه الكردينال لحسابها ثم تدفع الثمن أقساطا . فآمن الكردينال بالحيلة واشترى العقد لحسابه ودفع جزءا من ثمنه ، وسلمه للأفاقة لتسلمه الى الملكة . فاستولت عليه مدام دى لاموت وجماعة من شركائها . ولم تمض أشهر حتى كشفت الحيلة ، وقبض على الكردينال ، ومدام دى لاموت وشركائها ، وقبض أيضا على كاجليوسترو لشبهة اشتراكه ، وألقى فى الباستيل (١٥ أغسطس سنة ١٧٨٥) واستمر كاجليوسترو سجينا ، وهو يحاول الفرار دون جدوى ، حتى جرت المحاكمة أخيرا فى مايو سنة ١٧٨٦ ، فبرئ الكردينال ، وبرئ كاجليوسترو ولكن قضى بنفيه من فرنسا . وقدم أنصاره أثناء المحاكمة الى البرلمان مذكرة

زينت برسمه ووزعت على جميع القضاة والكبراء جاء فيها : " ان كاجليوسترو ولد أحد أساتذة مالطة العظام، وأنه ربى فى مكة والمدينة تربيـة خارقة، وأنه تلقى فى حداثته علوم الشرق الخفية، وأن أستاذه الحكيم التوتاس هو الذى رباه وعلمه وهو نصرانى وفارس من فرسان مالطة، ولكنه اعتـاد أن يلبس الثياب الإسلامية وأن يلبسها لتلميذه، وأن كاجليوسترو بعد أن استكمل علومه وبراعته طاف بكل أوربا، وأنه نبى وطبيب يستطيع مخاطبة الموتى والأرواح، وقد أبدى فى كل مكان أنه صديق الإنسانية، وهو لقب أسبغه عليه العرفان العام بحق" ولمـا برئ وأطلق سراحه احتفل أنصاره بذلك احتفالات فخمة، وأضاءوا منازلهم ، واحتشد آلاف من النـاس لوداعه والتبرك به حينما غادر باريس . والثابت أن كاجليو سترو لم يشترك فى ارتكاب حادثة العقد، وأن مدام دى لاموت لم تتهمه إلا لأنه نصح الى الكردينال بالاعتراف .

وعاد كاجليو سترو الى لندن ونشر هنالك نداء الى الأمة الفرنسية تنبأ فيه بهدم الباستيل ومحور رقاع السجن (اللتر دى كاشيه)، وغير ذلك، وهو بيان استند إليه فيما بعد فى التماسه من الجمعية الوطنية العودة الى فرنسا . وفى ذلك الحين اتصل بجمعية سويدنبورج اللاهوتية، ولكنه لم يلق فى تلك المرة نجاحا فى لندن، فغادرها الى برلين ، ثم غادرها الى بال حيث أسس محفلا جديدا للبناء الحـر . ثم طاف ببعض المـدن السويسرية والنمسوية ، ولكنه لقى معارضة شـديدة من السلطات المحلية . فعاد الى رومة حيث كانت خاتمة المطاف؛ وهنالك عاش حينا فى عزلة، ولكنه اضطر بدافع الحاجة الى العودة الى مغامراته ، فأسس محفلا للبناء الحـر ، لينشر مبـادئ البناء المصرية القديمة . ولكنه كان يشعر على ما يظهر بالخطر يحدق به، وعيون السلطات سـاهرة على حركاته ؛ وفى ذات يوم وشى به أحد أنصاره الى السـلطات فقبض عليه وزج الى سجن سانت آنجلو فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٧٨٩، وضبطت

لديه كمية كبيرة من الوثائق، منها مسودّة نداء يناشد فيه جميع محافل رومة أن تهب لنصرته إذا قبض عليه، وأن تحرق سجنه إذا اقتضى الأمر . وفى الحال نشط مجلس التحقيق فى رومة (Inquisition) الى تحقيق التهم الموجهة إليه وانتدب لمحاكمته محكمة علنية . ولكن المحكمة لم تعن بضروب الشعوذة التى نسبت لكاجليوسترو قدر عنايتها بتهم الإلحاد والإنكار التى وجهت إليه، وانتهى كاجليوسترو بالاعتراف بمبادئه الإلحادية ، فقضى عليه بالإعدام فى ٧ أبريل سنة ١٧٩١؛ ولكن البابا بيوس السادس استبدل هذا الحكم بالسجن المؤبد . وسجنت زوجه لورنزا فى دير للنساء . ويقال إن كاجليوسترو حاول أن يخنق كاهنه ليفر فى ثيابه، وأنه وجد ميتا فى سجنه فى سنة ١٧٩٧ عند اقتراب الفرنسيين ضحية لمجلس التحقيق؛ ولكن الظواهر لا تؤيد هذا القول لأن كاجليوسترو كان فى ذلك الحين كهلا متهدما وقد فقد كل أهمية ، سياسية واجتماعية . ويقال من جهة أخرى إنه توفى فى سنة ١٧٩٥ فى قلعة سان ليو.

ويوصف كاجليوسترو بأنه كان جميل المحيا، بادنا، ذلقا، خداعا فى حركاته وعباراته . وكان يعيش فى بذخ طائل لم تعرف مصادره الحقيقية قط، ولا تكفى الوسائل المختلفة التى كان يلجأ إليها للانفاق عليه . وكان ركبه إذا سافر يضم ست عربات كبيرة يجر كلا منها أربعة جياد مطهمة . ويقال إنه كان موفقا فى كثير من محاولاته الطبية، وانه استطاع أن يشفى حالات مستعصية؛ وكان يفرق عقاقيره دون ثمن ، وكان منها مركبات غريبة مثل مسحوق الجمال ؛ واكسير الحياة وأشربة ومساحيق عجيبة أخرى .

ونحن لا نرى فى كاجليوسترو مغامرا وأفاقا فقط ، ولكنا نعتقد أنه كان داعية من دعاة الجمعيات السرية التى كثرت فى ذلك العصر حسبما قدّمنا ، وأنه كان يعمل لحساب قوة خفية مجهولة الى جانب زملائه من أقطاب المغامرين والسحرة الذين ازدهروا فى هذا العصر، وألفوا فى تطوراته الفكرية ميدانا شاسعا لبث مبادئهم وتعاليمهم .

الفصل السادس

چاكومو كازانوڤا

١٧٢٥ — ١٧٩٨

الى جانب هذا الخفاء الذى غمر المجتمعات الأوربية فى القرن الثامن عشر، وهذه الدعوات السرية والثورات الفكرية التى كانت تطوف بها، كانت ثمة ظواهر نفسية واجتماعية أخرى تبدو بارزة فى هذا العصر. ذلك أن القرن الثامن عشر كان أيضا عصر المغامرات الشائقة، والحياة المرسلة الناعمة، والعيش الهين الخفض، وازدراء التبعات: عصر المرح والطرب الميسور.

وليس معنى ذلك أن القرن الثامن عشر كان عصرا ذهبيا يزهو فيه المجتمع ويزدهر، فقد كان فى الواقع عصر الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتوالية، ولكنه كان عصر تطور فكرى عميق يبلغ المجتمع فيه ذروة أزمته الروحية والنفسية، ويصل الى نوع من اليأس والاستهتار، ويلتمس فى حياة النسيان والعيش المرح عزاء ومتنفسا.

وقد رأينا فيما تقدم كيف كان القرن الثامن عشر مهبط الدعاة والمغامرين من كل ضرب، وكيف كان الخفاء يغمرهم ويثير من حولهم كثيرا من الدهشة والروع، وكيف كان أولئك الدعاة المغامرون يخلبون ألباب مجتمعات هذا العصر برائع شخصياتهم ومظاهرهم، وظرف خلالهم وشمائلهم، وسحر مزاعمهم وأقوالهم، وخفاء غاياتهم ووسائلهم.

والآن نتناول شخصية أخرى من أعجب شخصيات هذا القرن أيضا، ولكن من طراز آخر هى شخصية چاكومو كازانوڤا.

كازانوڤا ! مغامر جرىء يخلق لنفسه من العدم شخصية باهرة ، ويدخل الحياة من باب ذهبي، ويستقبلها بابتسامة خالدة، ويفتتح المجتمع الرفيع بذكائه ودهائه وخبثه، وظرف خلاله وشمائله، ويرتفع فى ميدان المغامرة الى الذروة، ويهبط الى الدرك الأسفل؛ ويستمرئ أمتع المسرات والملاذ، كما يتذوق أمر ضروب السقوط والفاقة ، وينحدر من فتوة باهرة ظافرة برفاهة العيش الساطع المرح، الى كهولة حافلة بصنوف الخيبة واليأس، ثم الى شيخوخة مظلمة مغمورة بائسة، ثم الى عالم العدم فى قبر ناء مجهول .

لم يكن كازانوڤا شخصية عظيمة تجدر بالخلود فى صحف التاريخ؛ ولكنه كان شخصية من نوع خاص تنحرف بطرافتها وغريب أطوارها عن سلك المجتمع الوديع الهادئ ، ولكن تنفث فى نفس الوقت بقوتها واضطرام خلالها أينما حلت فى جوانب هذا المجتمع كثيرا من الفضول والسحر، وتغزو بمرحها وأناقتها قلوب أولئك الذين يعبدون الجمال والظرف مهما اتخذا من أثواب خلابة طائرة؛ وقد كان كازانوڤا يتشح بأثواب خلابة طائرة ، ولكن مؤثرة ساحرة، ولم يكن يهمه فى الحياة سوى النجاح مهما كان خلبا ، والظفر بتحقيق أهوائه مهما كانت، ومهما كانت الوسائل والصور؛ وقد ترك لنا فوق ذلك عن حياته الغريبة الحافلة مذكرات طلية شائقة، مازالت تعتبر الى يومنا تحفة أدبية فنية لها قيمتها ولها سحرها .

ولهذا يظفر كازانوڤا من التاريخ بالذكر والتدوين، وتغدو سيرته العجيبة سجلا حافلا لخلال عصره، وتغدو موضوعا ومستقى لأقلام بارعة تخرج عنها المؤلفات الحافلة .

* * *

ولد چاكومو كازانوڤا فى الثانى من شهر أبريل سنة ١٧٢٥ بمدينة البندقية (ڤنيزيا)؛ وكان أبوه جايتانو ممثلا متواضعا ألقى به الى البندقية والى

المسرح قدر غريب ؛ ذلك أنه هام فى صباه بممثلة حسناء تدعى لافراجوليتا ، وترك من أجلها أسرته وموطنه بارما ، واحترف الرقص والتمثيل ؛ ثم فتر هواهما بعد ذلك ، وتركته الممثلة لتجرى وراء مغامرات أخرى ؛ فاستبق من بعدها حرفته والتحق للعمل بأحد مسارح البندقية ؛ وكان يقيم فى المنزل المواجه لمسكنه صانع أحذيه يدعى فاروزى وزوجته مارسيا وابنتهما الحسناء جوڤانا أوزانيتا ، فنشأت بين جايتانو وزانيتا علائق غرامية ، ثم فر العاشقان ذات يوم ، وعقدا زواجهما فى فبراير سنة ١٧٢٤ ، وبعد عام ولد ابنهما چاكومو .

ولم تلبث زانيتا أن حملها تيار المسرح ، فظهرت الى جانب زوجها ، وأنفق الزوجان بضعة أعوام فى التجول من مدينة الى أخرى ، ومن مسرح الى آخر ، ثم أصيب الزوج أثناء وجودهما بالبندقية بمرض خطير أودى بحياته فى أواخر سنة ١٧٣٣

وكان جايتانو كازانوڤا فتى وديعا حسن الخلال ، يؤثر الانزواء والعزلة ؛ أما زانيتا فقد كانت بالعكس فتاة ذكية ماكرة مضطرمة النفس والأهواء ، وكانت ممثلة بارعة تتمتع بكثير من الظرف والسحر ، وكانت دائمة التجول فى عواصم القارة ، من لندن الى بطرسبرج ، تحرز النجاح والظفر أينما حلت ؛ وكان مستقرها الأخير فى مدينة درسدن حيث عينها مختار سكسونية ممثلة مدى الحياة ، وهنالك أنفقت بقية حياتها حتى توفيت سنة ١٧٧٦

وكانت زانيتا قد رزقت غير چاكومو بثلاثة أبناء آخرين وابنتين ، وتركتهم جميعا بالبندقية لدى والدتها مارسيا فاروزى ؛ وكانت مارسيا امرأة بسيطة جاهلة ولكن ذكية مخلصة ، فكرست كل نشاطها وعنايتها لتربية أحفادها ولا سيما كبيرهم چاكومو ؛ ويشير كازانوڤا فى مذكراته الى ذلك الحرمان من عطف أبويه ، ويقول لنا انهما لم يكلماه قط ، ويشير أيضا

الى عطف جدته ورعايتها، ويقول لنا إنه كان طوال حياته يذكرها بالحب والعرفان والاجلال .

ونشأ چاكومو ضعيفا سقيما، ولكن تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة؛ وكان للأسرة صديق من أعيان المدينة يدعى جورجو بافو، فاهتم بأمر الصبي العليل؛ وكان بافو جوادا طيب القلب، ولكن فاسد الخلال والسيرة، وكان شاعرا، ولكن شعره يفيض تهتكا وفجورا؛ فنصح بارسال الصبي الى بادوا ليتعلم فى معاهدها ويستفيد من هوائها؛ وكانت زانيتا والدة چاكومو يومئذ فى البندقية، فنزلت عند هذا النصح، وحملت چاكومو الى بادوا ورتبت مقامه هنالك وأقام چاكومو مدى حين عند امرأة سلافية، ولكنه، ما لبث أن عاف المكث لديها لسوء المعاملة ورداءة المسكن والطعام، ثم نقل على أثر ذلك الى منزل معلمه الأب چوزى، فارتاحت نفسه لمقامه الجديد، وأقام لدى أستاذه منعما مكرما .

وقضى كازانوفا بضعة أعوام عند معلمه، ودرس قليلا من اللاتينية واليونانية والنحو . وكان تقدمه سريعا حتى أن الأب چوزى ما لبث أن اختاره لمعاونته فى التدريس .

وكان كازانوفا قد ناهز يومئذ الخامسة عشرة، وأخذت تبدو عليه أمارات الاضطرام الكامنة فى جوانحه والتى ورثها عن والديه، فبدأ يقرأ الكتب المثيرة، ويزعج معلمه بمختلف الأسئلة المحرجة، ويحدج أخت معلمه بتينا — وهى فتاة فى نحو العشرين من عمرها — بنظرات ملتهبة . ولما انتهت دراسته الابتدائية، دخل مدرسة الحقوق فى جامعة بادوا الشهيرة، وأطلق لنفسه عنان الحرية وأخذ يغشى دور اللهو والميسر، فانزعج معلمه، وانزعجت جدته وبادرت الى بادوا وصحبته معها الى البندقية، وهنالك استأنف دراسته .

وفى البندقية تفتحت غرائزه وأهواؤه، وانكب على صنوف اللهو،

ولكنه مع ذلك كان يتذوق دراسته وحياته العلمية ؛ وكان ذلك الفتى اليافع الذى يضطرم ظمأ الى اللهـو والمرح ، يضطرم فى نفس الوقت ظمأ الى العرفان والدرس ؛ وكان فى الثامنـة عشرة يأخذ بقسط حسن من الأدب والفلسفة والمبادئ العلمية ، ولم يكن خلال عبثه ولهـوه ليغضى عن التفكير فى مستقبله ؛ فلم يمض سـوى قليل على عوده الى البندقية حتى استطاع أن ينتظم فى سلك رجال الدين ، وأن يحصل على وظيفة دينية صغيرة . أجل استهل كازانوفا حياته العملية قسا ، وهو الذى خاض فيما بعد غمارا من اللهو والفجور قلما يخوضها بشر ! ولم يكن ذلك منه ورعا أو رغبة فى خدمة الدين ، ولكن الانضواء تحت لواء الكنيسة كان يومئذ وسيلة فريدة لأبناء الشعب الذين يطمحون الى مستقبل ما ؛ وكان ذلك المنصب المتواضع الذى لا يحتم عليه الارتباط بعهد الكنيسة يفتح له كثيرا من الأبواب المغلقة ، ويحقق له كثيرا من المزايا التى تعاونه على التقدم فى سبيل الحياة .

ولم يمض سوى قليل حتى استطاع كازانوفا أن يجوز الى المجتمع الرفيع ، وأن يتعرف بكثير من الكبراء والنبلاء ؛ وكان بين هؤلاء غير صديقه وحاميه القديم بافو ، سيد يدعى مالبيرو وهو شيخ سابق ، وثرى منعم ، يعيش فى قصر فخم ، ويجمع حوله جمهرة من الخلان الظرفاء ، يتسامرون ويتحدثون عن اللهـو والنساء والحب ، كما يتحدثون عن السياسة والمسرح ؛ وألفى مالبيرو فى القس الفتى رفيقا مؤنسا ، فاصطفاه واتخذه سميره وخله الحميم ومعاونه على تنظيم حفلاته الأنيقة ؛ وكان كازانوفا فى الواقع يتمتع فى هذا الميدان بكثير من حسن الذوق والشمائل الرقيقة ، فيتقدم لخدمة السيدات برشاقة ويخلب ألبابهن بظرفه ، ويسبغ بحركاته وأحاديثه على الحفل كله مسحة من البهجة والرواء .

وكانت البندقية يومئذ — فى منتصف القرن الثامن عشر — منزل اللهو والمرح ، تموج فى الليل بالمسارح ودور اللهو ، وتغمرها لمحة ساطعة من بهائها

السابق ؛ وكان الحب يرفرف على أرجائها ، وتنساب القوارب النحيلة[1] فى قنواتها ، تحمل أزواج المحبين تحت جنح الظلام وأضواء القمر ، وتقرع كؤوس الهوى فى كل ناحية ، ويسود الحبور والبهجة ؛ وكان كازانوفا يخوض هذه الغمار المرحة سعيدا منعما ، ويستمرئ هذه المناظر البديعة التى تقدّمها إليه المدينة التالدة ، فى ظل الرعاية التى يشمله بها صديقه وحاميه السيد مالبيرو .

بيد أنه لم يلبث أن فقد هذه الرعاية . ذلك أنه كان للسيد مالبيرو صاحبة فتية تدعى تيريز ، وكان كازانوفا يرنو إليها ويحوم حولها ، ففى ذات يوم استطاع أن ينفرد بها فى أحد المخادع ، وبينما هو يثبها جواه ، إذ فاجأهما مالبيرو فانهال عليه ضربا بعصاه وطرده من منزله شر طرد ، وفقد كازانوفا بذلك أكبر عضد ، وأقصى عن ذلك المجتمع الساطع الذى كان يغشاه ؛ وتولته على أثر ذلك نوبة من اليأس والكمد ؛ وكانت جدّته قد توفيت قبل ذلك بقليل ، فأخذ يتصرف فى مقتنيات المنزل ويبدّدها ، واضطر الوصى على إخوته الى التدخل ، ووصل الأمر الى القضاء فقبض عليه وأودع السجن ؛ وفقد أثناء ذلك منصبه الدينى وأخرج من حظيرة الكنيسة ؛ ولما أطلق سراحه بعد ذلك بقليل ، شعر أن البندقية تضيق به وبمشاريعه وأنه لم يبق له فيها أمل أو مقام .

وكانت أمه قد كتبت إليه توصيه بالسفر الى أسقف كالابريا ، فهو صديق لها وفى وسعه أن يعاونه وأن يوصى به ، فعوّل عندئذ على السفر الى رومة ، ولكن الأسقف كان قد غادرها الى مقر وظيفته فى الجنوب ؛ وكانت نقوده القليلة قد نفدت ، وساءت حاله ، واضطر أن يلتمس العيش بأخس الوسائل ؛ وتعرّف أثناء الطريق بتاجر يونانى يتاجر فى الزئبق ، واتفق معه على طريقة لغش الزئبق وتحصيل ثمنه مضاعفا ، واستطاع بهذه الوسيلة أن

(١) هى القوارب المعروفة بالجوندولا وهى وسيلة النقل الوحيد داخل المدينة .

يكسب قدرا من المال؛ ووصل أخيرا الى مارتيرانو مقر الأسقف، ولكنه شعر بآماله تتحطم حينما رأى حالة الأسقف الزرية من منزل قفر متهدم، وبؤس ظاهر، وعزلة قاتلة؛ فارتد أدراجه الى نابولى ومعه بقية من المال؛ وهنالك بسم له الخط، وقضى بضعة أيام سعيدة، تعرّف خلالها بامرأة حسناء تدعى لوكريزيا وتوثقت علائقه معها بسرعة، وكانت فى الواقع أول صاحبة حقيقية خضعت لسلطان هواه .

ثم نراه بعد ذلك فى رومة يطرق الأبواب ويحاول أن يشق طريقه، وقد كان عندئذ موفقا إذ استطاع أن يلتحق بوظيفة فى حاشية الكردينال اكواڤيڤا ؛ وقضى حينا فى رومة يستزيد من الدرس وينعم بصحبة لوكريزيا، ويهيئ لنفسه جوّا من الرعاية والعطف بذكائه وذلاقته ورقة شمائله .

على أن هذه الحياة الهادئة المستقرة لم تكن لتروق فتى مضطرم الجوانح مثل كازانوڤا، فقد كانت نفسه الوثابة الظمأى الى المغامرة تحمله الى آفاق أخرى ؛ وكان شبح المرأة يثيره ويلهبه أينما وجد ؛ وسرعان ما لفت الأنظار بفضائحه ودسائسه الغرامية، وتفاقم الأمر حينما اتهم باغراء سيدة تمت الى بعض الأحبار بصلات وثيقة، وفقد وظيفته ومركزه مرة أخرى، ورأى نفسه مرغما على مغادرة رومة فغادرها الى قسطنطينية يحدوه دائما ظمأ المغامرة وتدفعه طلعة التجوّل .

ثم عاد الى البندقية ولكنه عاد إليها فى ثياب ضابط؛ ذلك أنه مر فى طريقه بالمعسكرات النمسوية والاسبانية، وحصل على ترخيص بالانتظام فى سلك الجيش، وقدّر أنه يستطيع أن يخلق له فى ظل هذا الثوب حياة جديدة؛ ولكنه لم يحرز ترقية نظرا لسوء سلوكه، فخلع ثوبه العسكرى واشتغل مدى حين كاتبا فى مكتب محام، ولكنه لم يسكن طويلا الى هذا المنصب الضئيل ؛ وأخيرا ذكر أنه يستطيع العزف على القيثارة مذ كان صبيا يدرس

فى بادوا، فانتظم عازفا فى إحدى الفرق المتواضعة ؛ وفى ذات ليلة تعرف بسيد كبير وشيخ سابق يدعى براجادين فى حفلة كان يعزف فيها ، وقدّر أن أصيب هذا الشيخ فى نفس الليلة بنوبة صرع ، وكان كازانوفا الى جانبه فى قاربه ، فهرع الى غوثه واستدعى له طبيبا ، ولبث يعنى به حتى شفى ؛ فعرف له براجادين هذه اليد ، وقرّبه اليه وأنزله بقصره الفخم وأجرى عليه النفقة الواسعة ؛ واستطاع كازانوفا فى نفس الوقت أن يؤثر فى مضيفه بمزاعمه فى معرفة الغيب وضروب السحر ، وأن يكسب ثقته ، وأن يعود بفضل رعايته فيغزو ذلك المجتمع الرفيع الذى أقصى عنه مدى حين .

* * *

قضى كازانوفا صباه وفتوّته الأولى محروما من عطف والديه ، يجوز حياة مضطربة ، ويتقلب بين شظف العيش ورفاهته ، ويلقى بنفسه المضطرمة الى غمار من اللهو والادمان والخلاعة ، ويلتمس متاع الحياة بأى الوسائل . وكان يرى الحياة لهوا ولعبا ، ولكن الحياة الناعمة تتطلب الرزق الوفير ، ولابدّ أن يجد كازانوفا لنفسه وسائل الارتزاق . وكانت المقامرة يومئذ رذيلة المجتمع الرفيع ، ولكنها كانت أيضا ملاذ المقامرين من كل ضرب ، يلتمسون بها الرزق والثراء ؛ وكازانوفا مقامر بارع ، فلم لا يتزل الى هذا الميدان ؟ وبسم له الحظ فى المقامرة ، وانتظم فى سلك المقامرين المحترفين الذين يستحلون كل الوسائل للكسب أو للسرقة المستترة ؛ ورأى فوق ذلك أن يتشح بثوب الخفاء ، وأن يحترف الشعوذة وكشف الأسرار ؛ وكانت الأذهان يومئذ تشغف بالخفى والمجهول ، وكان كازانوفا يجيد هذا الضرب من الشعوذة ، وقد رأيناه يتخذه سبيلا لتمكين نفوذه لدى صديقه وحاميه الجديد السيد براجادين .

وهكذا نزل كازانوفا الى هذا الميدان الجديد مسلحا بأسلحة العصر ، يلتمس الرزق من طريق المقامرة ، ويلتمس النفوذ من طريق الشعوذة ، ومن

ورائه عصبة من الأصدقاء الأقوياء الذين يخلبهم بروائه وظرفه وشعوذته ؛ وكانت هـذه الحياة فى نظر المقامر هى المثلى ؛ وكان يرى المجتمع من حوله موبوءا يموج رذيلة وفسادا ، ويرى الشرف والكرامة والنزاهة وكل ما اليها كلمات جوفاء لا يتحلى بهـا أرفع من يسودون المجتمع من أمراء وأحبـار وسادة ، فكيف يُطلب اليه هو أن يخضع حياته لمثل هذه الأباطيل ؟

وكان كازانوفا ينزل يومئذ عند السيد براجادين كما رأينا ، ويعيش منعما مرفها ، يقضى أيامه فى لهو ولعب ونزه وغزل لا ينقطع ، يجوب شـوارع البندقيـة المـائية فى قاربه الوثير ، ويتسقط مواعيـد الحب كل مساء .

وكانت المرأة عنده غاية الغايات ، وكان الحب فنـه ومهنته التى كأنه فطر عليها بطبيعتـه وخلاله وعواطفـه ؛ وكان مسلحا لهذه الغـاية بأخص الصفات التى تذلل له غزو القلوب ، فقد كان بديع القد والتكوين ، وسيم الطلعة ، ذا سمرة جذابة ؛ وكانت عيناه الواسعتان تشعان سحـرا وذكاء وشهوة ، وكان ذا شخصـية ساحرة ، حلو الحـديث والشمائل ، جوادا ، جم الأدب والظرف ، يضطرم حبا وجوى ؛ وكانت له فراسة خاصة فى تفهـم عقلية المرأة وميولها ، وكان ظفره المتوالى فى الحب يذكى عزائمه ورغباته ، ويدفعـه دائمـا الى البحث عن غزوات جديدة ؛ وكان يشـعر شيئا فشيئا أن البندقية لم يبق فيهـا ما يمكن أن يغزو وأن يستمرئ ، وأن ايطاليا كلها قد غدت تضيق بجولاته ومغامراته ؛ وكانت فرنسا تجذبه

جاكومو كازانوفا

يومئذ بشهرتها وروعة الحياة الساطعة التى يحياها المجتمع الرفيع فيها؛ وسرعان ما سنحت له الفرصة لتحقيق أمنيته ، فسافر الى باريس ليخوض غمار هذه الحياة الساطعة، وكان يومئذ فى نحو السادسة والعشرين .

وكان المجتمع الفرنسى ، ينحدر يومئذ، فى عهد لويس الخامس عشر، الى نوع من الخمول الباهر، ويستمرئ حياة عاطلة من المثل المعنوية الرفيعة، فياضة بالرغبات والشهوات الوضيعة ؛ وكانت دولة الغانيات ، من أمثال دو بارى و بومبادور هى صاحبة الحول والسلطان يومئذ، وكان يلتف حول هذا الملك الخليع بلاط وضيع الخلال، يضرب بتهتكه وانحلاله للمجتمع الرفيع أسوأ المثل ؛ وكانت حياة هـذا المجتمع — مجتمع النبلاء والسادة — كلها لهو ولعب وحب وغزل وفساد ورياء ؛ فالى هـذا المجتمع الباهر الخامل معا هبط كازانوفا يبحث عن طالعه فى عالم الحب؛ وهنالك تعرف منذ مقدمه بمواطنه الممثـل الشهير ماريو باليتى وزوجته سيلڤيا، وكان يومئذ من أعلام مسرح "الكوميديا الايطالية"، فعلمه شيئا من اللغة الفرنسية، وعرفه بكثير من الشخصيات البارزة من رجال ونساء ؛ واندفع كازانوفا الى هـذا العالم الجديد يتـذوق مسراته، ويتابع غزواته النسائية بين الممثلات والراقصات وسيدات المجتمع الرفيع؛ وهو يذكر لنا فى مذكراته التى نشـير اليها فيما بعد، طائفة من أسماء هؤلاء اللاتى ظفر بهنّ فى تلك الفترة مثل ميمى ابنة السيدة التى نزل عنـدها ، والآنسة فزيان وهى فتاة أجنبية زائرة، ولويزون مورفى الشهيرة التى أدخلت « حريم » لويس الخـامس عشر فيما بعـد ، والآنسة سنت هيلير، وسيلڤيا زوجة صديقه، وغيرهنّ؛ واستطاع كازانوفا فى نفس الوقت أن يتذوق طرفا من الحياة الأدبية ، وأن يتصل ببعض كبار الأدباء والكتّاب مثـل فونتنيل ودلامبير والأب فوازنون ومدام دى بوكاج ، وأن ينظم بعض القصائد، وأن يترجم بعض القطع والرسائل .

وعاد كازانوڤا الى البندقية (سنة ١٧٥٣) وقد فاضت نفسه غبطة و زهوا بما تذوق من صنوف اللهو الرفيع ، وما حقق لنفسه من ظفر فى ميدان الحب؛ و بدت له البندقية عندئذ ضيقة متواضعة، بالنسبة لما رأى وشهد فى باريس؛ وذكت أطماعه وأمانيه، وزاد غرورا وترفعا واستهتارا، وأخذ ينظر الى هذا المجتمع البندقى من علّ ، و يتصل بالكبراء والسفراء ولا سيما سفير فرنسا الأب دى برنى؛ ولم يكن كازانوڤا متحفظا فى أقواله أو أعماله فكان يطلق العنان لآرائه المتطرفة ، و يزاول الشعوذة علنا ، وكان يثير على نفسه السخط فى كل ناحية، وكانت علائقه الغرامية موضع الحديث ومثار النقمة؛ وكان ثمة جماعة من النبلاء والكبراء الذين يضايقهم بلسانه ومنافساته الغرامية يتربصون الفرص لسحقه، وكان من هؤلاء كبير من كبراء الدولة هو «الشيخ» كوندلمر النائب العام؛ وكان لهذا الشيخ القوى صاحبة تدعى مدام زورزى سطا عليها كازانوڤا وانتزعها منه، فاعتزم التنكيل به ، وأطلق فى أثره عيون الشرطة يقدّمون عنه التقارير القاذفة، وفيها أنه يتصل بالسفراء الأجانب بعلائق مريبة ، و يخدع البسطاء بمزاعمه السحرية ، و يعيش على نفقة الغير و يغوى البنات والنساء المتزوجات، و يسخر من الدين، و ينتمى الى البناء الحر (الماسونية) وغير ذلك من التهم الخطيرة التى تكفى لإدانته و إهلاكه .

وعلى أثر ذلك قررت محكمة التحقيق (التفتيش) اعتقال المتهم؛ وفى فجر ٢٦ يوليه سنة ١٧٥٥ ذهب مدير الشرطة مع ثلة من رجاله الى منزل كازانوڤا واعتقله ، وأخذه مصفدا الى قصر الدوجات ؛ وهنالك ألقى به الى السجن المواجه فى غرفة لاهواء فيها ولا نور تعمرها الجرذان والحشرات المختلفة، وتكاد لانخفاضها تقصر عن إيواء قامته المديدة؛ وفى الحادى والعشرين من أغسطس قضت محكمة التحقيق بإدانته فى التهم التى نسبت اليه ولا سيما الطعن فى الدين، وقضت بسجنه خمسة أعوام فى سجن " الرصاص " الشهير

(بيومبى) وهو الذى اعتقل فيه . وقضى كازانوفا أيامه الأولى فى السجن فى ذهول ويأس يكاد يمزقه الغيظ والكمد ؛ وكان منقطع الصلة بالعالم الخارجى ، لا يعرف شيئا عن سبب اعتقاله أو مداه ؛ وكان يؤمل بادئ ذى بدء أن يسترد حريته بسرعة بمؤازرة بعض أصدقائه الأقوياء ؛ ولكن الشهور تعاقبت عليه دون أن ينفذ الى وكره المظلم شعاع من الأمل ، وأعقب الصيف الخريف ثم تعاقبت الفصول ؛ عندئذ ترك اليأس جانبا ، واستعاد عزمه وقوة نفسه ، وعوّل على الفرار ؛ وما زال يعمل فى خفاء وصمت ، ويغالب الصعاب والرقابة الصارمة حتى نضج مشروعه . وفى ليل اليوم الأول من نوفمبر ، فرّ كازانوفا مع شريكه وجاره فى السجن الأب بالبى ، وذلك بأن خرقا عرش الغرفة الرصاص ؛ واستطاعا بعد مجهود عنيف مروع أن ينحدرا من جدران القصر الى ميدان القديس مرقص ، واستقلا زورقا حملهما فى جوف الظلام بعيدا عن مواطن الخطر ، ولم يأمن كازانوفا على نفسه حتى جاز حدود البندقية الى أرض بورجو دى فالزجانو المجاورة ، وبذلك أمن شر مطارديه واستطاع أن يتنفس نسيم الحرية مرة أخرى .

* * *

وتركت تلك المحنة فى نفس كازانوفا أعمق الأثر ، وكان قد جاوز الثلاثين يومئذ ، واستحالت لديه نزعات الحداثة الى نوع من التفكير المتزن ، وأخذت الأطماع والأمانى تغلب على نفسه ، وتخضع لديه نزواته المضطرمة ؛ وكان همه دائما أن يغزو المجتمع الرفيع ، ولكن غزو المجتمع الرفيع يقتضى مالا ومغامرة ؛ وكان المجتمع الباريزى الذى عرفه حينا وتذوق فيه لذة الظفر والأمل يجذبه دائما ويلوح له بأعظم الأمانى ، ولهذا نراه فى باريس فى يناير سنة ١٧٥٧ يبحث عن طالعه كرة أخرى ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين يمده بمرتب حسن ، وكان صديقه الأب دى برنى سفير

فرنسا السابق فى البندقية قد عاد الى فرنسا، وتولى وزارة الخارجية، فتقدم اليه يطلب عونه، فأوصى به بعض كبراء الدولة؛ وكانت المشكلة المالية أهم مايشغل فرنسا يومئذ وفى سبيل حلها تقدم أغرب المشاريع والاقتراحات؛ وكان من بين المشاريع التى وضعت لإيجاد بعض المال أن تصدر الدولة "أوراق نصيب" يغطى إيرادها نفقات المدرسة الحربية التى أنشئت يومئذ لتخريج ضباط للجيش الفرنسى؛ وكان يضطلع بالمشروع أخوان إيطاليان يدعوان كالسابيجى، فاتصل كازانوفا بذوى النفوذ والمشرفين على العمل، وكان يتمتع فى ذلك الميدان ببعض الخبرة ويقدم عن المشروع آراءه وملاحظاته، فرؤى أن يعين مديرا للمشروع بمرتب ضخم وعمولة حسنة، وصدر بالمشروع قرار وزارى فى أكتوبر سنة ١٧٥٧

وهكذا تبوأ كازانوفا منصبا خطيرا مربحا يحقق له تلك الحياة الناعمة المستقلة التى طالما طمح إليها، واتخذ له مسكنا فخما فى ضاحية سان دنى يموج بالنعم والحشم. وأقبل الناس على شراء أوراق النصيب الحكومية إقبالا حسنا؛ ووقع السحب الأول فى أبريل من العام التالى وأسفر عن نتائج مرضيه، ثم وقع مرارا خلال العامين التاليين وظفرت المدرسة الحربية بكل النفقات اللازمة؛ وحقق كازانوفا لنفسه ربحا وفيرا يقال إنه بلغ مائة ألف فى العام، هذا عدا ما كان يربحه من أعمال التنجيم والشعوذة التى لم ينقطع عن مزاولتها؛ وعهد إليه أثناء ذلك ببعض المهام الرسمية السرية فأداها بنجاح، وعهد اليه أيضا بمهمة مالية فى هولندة فأسفرت عن نتائج مرضية؛ وهكذا ذاع اسمه وتوطد مركزه، وزاد ثراؤه، وشعر لأول مرة فى حياته بأنه غدا الرجل الذى طمح أن يغدو، ينثر الذهب من حوله بلا حساب، ويحقق لنفسه أعز الرغبات والأهواء والأمانى.

واتخذ كازانوفا لنفسه خارج باريس مسكنا آخر غير مسكنه الباريسى

أنيقا وثيرا به حاشية باهرة ، ونيل مطهمة ؛ وهنالك كان يقضى معظم أوقاته فى متاع ومرح يطلق لنفسه عنان الهوى والحب ، ويستمرئ غزواته النسائية بلا انقطاع ؛ وكان كازانوفا يعشق الحياة الفخمة ، ويتعلق بمظاهر العظمة والأناقة ، ولكنه لبث دائما ذلك المحب النهم الذى تغلب لديه الغرائز الوضيعة ، والذى يسعى الى إرضاء شهواته المضطرمة بأى الوسائل ، وفى أى الظروف والمناسبات .

وأنفق كازانوفا فى باريس بضعة أعوام فى عيش طروب خفض يغزو جميع القلوب ، وينعم بوصل السيدات والغانيات من كل ضرب ، ويزاول التنجيم والشعوذة ؛ وكان يتسمى عندئذ بالشقالبيه دى سنجال ، أو الشقالبيه سنجال دى فاروزى ، ويبهر الناس بروعة مظاهره وأساليبه ، ويتقرب من الأكابر ، وينعم بالجاه والنفوذ والثراء . بيد أن هذه الحياة الباهرة كانت تنضح دائما عن جوانب وثغرات مريبة ؛ ذلك أن كازانوفا لم يكن متحوطا فى مغامراته وعبثه ، ولم يكن يحجم عن أى الوسائل لاستلاب المال أو القلوب ، ومن ذلك أنه اشترك فى حادث تزوير أوراق مالية ، وأغرى عددا من أكابر السيدات ، ومنهن المركيزة دورفى التى خدعها واستحوذ على قلبها ومالها بشعوذته ، وسطا على كثير من الأزواج والآباء ، فاستلب منهم زوجاتهم أو بناتهم ، واتصل بجماعة خطرة من الأفاقين ولصوص المجتمع الرفيع يدبر معها الخطط والمشاريع المريبة ؛ وذاعت هذه الوقائع والفضائح المزرية ، وكادت تدفع بالمغامر الجرىء الى غمار لا تحمد عواقبها ، ولكنه آثر الهجرة مرة أخرى ، ويمم عندئذ شطر هولندة مزودا ببقية من المال والجاه وتوصيات بعض الأكابر .

ونزل كازانوفا فى لاهاى سنة ١٧٥٩ ، واستأنف هنالك حياة البذخ والطرب ، يعيد سيرته التى جازها فى كل المواطن عاشقا مضطرما تحمله شهواته

حيثما يحمله ظفره، وتسقط فرائسه بين أذرعه تباعا، ويبتز المال من هنا وهنالك بكل الوسائل والحيل، ويستمرئ حياة الخديعة والشعوذة والغواية الى الذروة، ويثير حوله بعد حين نفس الشكوك والريب التى يثيرها أينما حل؛ وإذ يشعر بأن وسائله وحيله ومظاهره كلها قد نفقت، وان الجو يتجهم من حوله، يعتزم الرحيل والنقلة. وهكذا غادر كازانوفا لاهاى كما غادر باريس من قبل مثقلا بالريب والفضائح، وهبط الى لندن فى خريف سنة ١٧٦٣ تحدوه آمال وأمانى أخرى.

* * *

هبط كازانوفا لندن يبحث وراء طالعه، ويلتمس الوسائل لخوض مغامرات ومشاريع جديدة، ولكنه ما لبث أن شعر بأن المجتمع الانكليزى الرصين لا يغزى بسهولة، وأن الأفق لا يتسع لمزاعمه المريبة، وأن محاولاته الغرامية تلق مهادا صلبة؛ وشعر بالأخص بأن تلك الخلال والمؤثرات السحرية التى اجتذبت إليه من قبل عشرات الحسان لم يبق لها قوة على التأثير والإغراء. وهو يشير فى مذكراته الى ذلك الفشل فى حزن ومرارة: "لقد سجلت هذا التاريخ — سبتمبر سنة ١٧٦٣ — باعتباره لعنة من لعنات حياتى، ولقد شعرت من بعده بأن تيار الكهولة يحملنى مع أننى كنت فى الثامنة والثلاثين". وهكذا اضطر كازانوفا بعد بضعة أشهر ارتكب خلالها كالعادة عدة محاولات وأعمال مريبة، أن يغادر لندن مثقلا بأعباء الخيبة والفشل.

وأم كازانوفا برلين، واستطاع أن يقابل ملك بروسيا — فردريك الأكبر — ولكنه استقبله ببرود وتحفظ ولم يظفر منه بطائل.

عندئذ قصد الى روسيا حيث تروج سوق المغامرة، وهنالك تعرف بالأمير كارل فون كورلاند، وهو أمير مرح فاسد السيرة ينغمس فى مجالى

اللهو والخلاعة، و يلتمس اكتساب المال بأى الوسائل، فتفاهما وتوثقت بينهما عرى الصداقة ، واستطاع كازانوفا أن يجوز بواسطته الى المجتمعات الرفيعة فى ريغا و بطرسبرج وموسكو ، وأن يستعيد فيها شطرا من حياة السرور والبهجة ؛ ثم ذهب الى بولونيا ، وهنالك فى وارسو خاض نفس الغمار المرحة المريبة معا ، ولفت إليه أنظار البلاط والسلطات بمشاريعه فى عالم النساء والمقامرة ، ومزاعمه فى التأثير والشعوذة؛ واضطر غير بعيد الى مغادرة وارسو ، فتركها الى ڤينا ، ولكنه لم يستطع مكثا بها ، لأن عين الشرطة كانت ترقبه ؛ فذهب الى باريس كرة أخرى ، ولكن العاصمة الفرنسية كانت تعرفه حق المعرفة ، وترغب عن قبوله وإيوائه ؛ فغادرها الى اسبانيا فلق فيها نفس الرفض والمطاردة ؛ وكان صيته المشين قد غمر يومئذ جميع العواصم الأوربية ، فلم يبق أمامه سوى الرجوع الى ايطاليا .

فعاد اليها يتجول فيها من مدينة الى مدينة ، والنحس يسايره أينما حل ، والفاقة تفت فى عزمه وفى آماله وأمانيه ، وشبح الجوع يزعجه ، ونذير الكهولة يروعه ؛ لقد كان يومئذ فوق الأربعين ، وقد خمدت جذوة اضطرامه ، ولم يبق من ذلك الفتى المرح ، والمغامر الجرىء سوى طلل متهدم ؛ يقول لنا كازانوفا فى مذكراته مشيرا الى ذلك العهد : "لقد فكرت يومئذ وربما لأول مرة فى حياتى ، فى أيامى الخالية ، ورثيت مسلكى ، ولعنت الخمسين التى شارفت بلوغها ، والتى قضت على جميع أحلامى ، وحز فى نفسى ألا أرى أمامى سوى بؤس الشيخوخة والعطلة والفاقة ، وألا تغذينى سوى شهرة مريبة وحسرات عقيمة" . أجل كان كازانوفا يومئذ كهلا ، تغلق فى وجهه جميع الأبواب وترغب عنه النساء ! وكان أشد ما يحز فى نفسه المكلومة أن يرى تلك المخلوقات الساحرة التى اعتاد أن يجذبها بروائه وسحره وذلاقته ، تفر من كهولته الى أحضان الشباب النضر .

ولما بلغ به اليأس مبلغه فكر فى العودة الى البندقية وطنه ومسقط رأسه؛ فسعى فى استصدار العفو اللازم ، ولم يدخر وسعا فى التقرب الى السلطات والتضرع إليها ، وعاونه على ذلك رسالة كتبها ردا على تاريخ للبندقية ظهر من قبل بالفرنسية بقلم " املو دى لاهوسى " وفيه مطاعن شديدة ضد الجمهورية ونظمها ، وهى مطاعن يفندها كازانوفا فى رسالته بحماسة ، وكان لرسالته وقع حسن لدى السلطات ، فاستمعت أخيرا لتضرعه ومنحته جوازا أمينا بالعودة الى وطنه فى أوائل سبتمبر سنة ١٧٧٤

+
+ +

ولكنه عاد شيخا يجر جر أذيال البؤس والخيبة ، و يلفظه المجتمع الرفيع ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين قد توفى ، ولم يبق له عون ولا عضد ، فلبث مدى حين يعانى مضض الفاقة ؛ و بعد جهد جهيد عطفت عليه محكمة التحقيق وعينته مخبرا سريا بمكافآت تتناسب مع عمله وتقاريره ، ثم منحته مرتبا شهريا قدره خمس عشرة دوقة ، فاطمأن نوعا الى هذا المركز المتواضع ، واستطاع أن يغشى بعض الحفلات والمسارح ، وكان لا يزال يثير حوله بعض العطف بذكائه وظرفه ، وتعرف عندئذ بامرأة تدعى فرنشيسكا بوشينى ، وعاش معها فى نوع من الهدوء والاستقرار .

بيد أنه كان يلعن تلك الحرفة الوضيعة التى ألجئ الى احترافها ؛ أجل لقد كان كازانوفا جاسوسا زريا لمحكمة التحقيق التى يمقتها من صميم قلبه ، وكان بحكم عمله مكلفا بالتحرى عن المسائل السياسية والجرائم الأخلاقية والدينية ، التى طالما أمعن فى ارتكابها ؛ وكانت تغمر البندقية يومئذ موجة من الإلحاد والانحلال الخلقى ، فكان من سخرية القدر أن يسهر كازانوفا على مراقبة الفساق والملحدين ؛ وكان يوقع تقاريره بامضاء مستعار وهو مع ذلك يضطرم سخطا لذلك الدرك الأسفل الذى هبط اليه . وفى أواخر سنة ١٧٨١

رأت محكمة التحقيق أن تستغنى عن خدماته وقطعت مرتبه ، فتولاه يأس قاتل، ورأى شبح الجوع ماثلا أمامه، ورفع يومئذ الى محكمة التحقيق ذلك الالتماس المؤثر الذى يدل على ذلاقته وحسن بيانه :

" الى حضرات العظماء الأجلاء سادتى القضاة المحققين :

" أتقدم اليكم، أناچاكومو كازانوفا، وقد غمرتنى الحيرة، وسحقنى البؤس والندم، معترفا بأننى لست أهلا على الاطلاق لأن أرفع اليكم التماسى المتواضع؛ أتقدم جاثيا بطلب الرأفة من الدولة، وأسألها أن تمنحنى بطريق العطف والجود، مالا تستطيع بعد التأمل أن تأباه علىّ بطريق الانصاف .

"وأنى لأضرع الى الجود العالى أن يقوم بعونى حتى أستطيع الحياة، وأستطيع فى المستقبل أن أقوم بالخدمات التى درجت عليها .

"وأن حكمتكم لتأنس فى هذا التضرع الجليل صادق أهبتى ونياتى" .

ولكن محكمة التحقيق لم تصغ الى تضرعه؛ فزاد يأسا و بؤسا ، وعوّل على الرحيل معتصما بما بقى له من جلد وعزم، فسافر الى ڤينا ووصلها فى يناير سنة ١٧٨٣ فى حال مؤلمة من الإعياء والفاقة ؛ ولبث يتجوّل حينا فى ڤينا وباريس وهولندة فى ظروف نكدة مثيرة ؛ ومع ذلك فانا نراه أحيانا يحلم بمشاريع مدهشة فيفكر وهو فى باريس فى شق قنال أو اصدار جريدة ، بيد أنها كانت أحلام يائس مخرف؛ وأخيرا استقرّ به المطاف فى ڤينا، وهنالك تعرّف بسفير البندقية السنيور فوسكارينى فعطف عليه وعينه سكرتيرا له ، واستعاد الطريد البائس شيئا من بهجة الحياة ، واتصل مدى حين بالمجتمع الرفيع ، وظهر فى المآدب والمراقص، ولكن فوسكارينى لم يلبث أن توفى، فتولاه اليأس القاتل مرة أخرى .

وأقام مدى حين فى تبلتز فى شر حال حتى ساقته المقادير الى التعرف بالكونت فون ڤالدشتاين، فتأثر لفقره ويأسه، وأعجب بذكائه وخلاله ، فعينه

أمينا لمكتبة قصره فى " دوكس " من أعمال بوهميا بمرتب حسن ، وكان الكونت فتى طروبا طيب القلب يعشق حياة اللهو والخلاعة، ويجوب أنحاء أوربا فى طلب المسرة والمتاع، وكانت خلاله مزيجا من الشجاعة والضعف، والكبرياء والخجل، والبذخ والجود، فأغدق عطفه على المحب الشيخ الذى خاض غمار حياة باهرة مؤثرة، وألفى نفسه بعد طول التجوال فريسة البؤس واليأس.

* * *

وكان قصر دوكس مقاما بديعا فخما ينبئ بما لآله من النبل التالد، والغنى الباذخ، وكانت مكتبته الشاسعة المنيرة تضم أربعين ألف مجلد نفيس فى مختلف العلوم والفنون، فكان ذلك المقام النائى الذى يجد فيه المفكر الفيلسوف ضالته، هو المستقر والمثوى الأخير لذلك الذى ضاق به وطنه، وضاقت به عواصم أوربا .

ولكن كازانوفا لم يلق الهدوء الذى ينشد ؛ ذلك أنه أثار سخط الحشم والخدم بكبريائه وصلفه وجفائه، فكانوا يعكرون صفاءه بخبثهم ودسهم، وكانت نفسه تفيض مرارة من ذلك الصراع الوضيع الذى يجعله مع الخدم على قدم واحدة . وكان كلما شكا أمره الى الكونت أجابه بابتسامة رقيقة، فاذا شكا الى الكونتة والدته هدأت روعه وصرفته بأطيب الوعود .

وكان يخفف من وقع ذلك الجدل النكد على نفسه ما كان يغمره به الكونت من العطف ؛ ذلك أنه كان حين مقامه بالقصر يدعوه دائما الى مائدته، والى مختلف الحفلات والمآدب، وعندئذ يستطيع كازانوفا أن يمتع نفسه بقسط من الترف الناعم، ويبدى ما كمن من خلاله ومواهبه الساحرة، ويشعر بشىء من السعادة والغبطة .

وكان الدرس أشد ما يؤنسه ويملأ فراغه . ذلك أن كازانوفا كان مفكرا واسع الاطلاع ، وكان يعشق القراءة والدرس، ولكن تجواله المتواصل

كان يحول دون أمنيته ، فلما استقر فى هذا المثوى الهادئ الحافل بصنوف الآثار الممتعة ، ألفى فرصته ، وانكب على القراءة يترع من مناهلها ، ويدوّن ما عنّ له من زبدها . ومنذ سنة ١٧٨٦ يتحفنا كازانوڤا بطائفة من الكتب والرسائل الممتعة منها : "مناجاة مفكر" . (Soliloque d'un Penseur) (سنة ١٧٨٦) ، و "قصة ادوار واليزابيت" (Hist. D'Edouard et Elizabeth) (سنة ١٧٨٨) ، وهى مزيج غريب من الفلسفة والمغامرة والدين والتهكم . وفى سنة ١٧٨٨ ، أخرج كازانوڤا كتابا ممتعا عن سجنه وفراره الشهير عنوانه "قصة فرارى من سجون جمهورية البندقية المسماة بالرصاص" (L'Hist. de ma Fuite des Prisons de la République deVenise etc.) وفى سنة ١٧٩٠ نشر رسالتين فى مسائل رياضية ، وفى سنة ١٧٩٧ نشر رسالة فلسفية أخلاقية عنوانها "خطاب الى ليونار سنتلاج" (Lettre à Léonard Snetlage) . هذا الى رسائل أخرى ما زالت مخطوطة ، محفوظة الى يومنا فى مكتبة "دوكس" الشهيرة .

بيد أن أعظم أثر شغل فراغ كازانوڤا ، وخلد اسمه فيما بعد ، هو مذكراته الشهيرة التى بدا كتابتها منذ سنة ١٧٩١ ، والتى نعود الى الكلام عليها .

وكان مما يعتز به أيضا ويؤنس أعوامه الأخيرة اشتغاله بمكاتبة بعض العظماء الذين عرفهم مثل الكونت دى لانبرج ، والأمير دى لينى ، والأميرة كلارى ، والأمير بيلوزولسكى سفير روسيا فى درسدن ، والكونت كينج ، والأميرة لوبكوفتز ، والأب ديلاليتا ، وغيرهم ؛ وكذلك بعض صديقاته اللائى عرفهن فى أواخر حياته مثل فرنشيسكا بوشينى آخر صاحباته فى البندقية ، وسسليا روجندروف ، واليزا فون درريكى وغيرهن ؛ وكان يزور مكتبة "دوكس" كثير من العظماء والكبراء من كل فج ، فيسر بلقائهم ومحادثتهم ، وكان كازانوڤا يثير بذكائه ووفرة عرفانه حوله كثيرا من الاعجاب والعطف ،

وقد أعجب به كثير من كبراء عصره ، وقدروا مواهبه وتنوع معارفه وطرافة تفكيره، وبثوه إعجابهم وتقديرهم شفاها وكتابة ، وكان ذلك يغمره سعادة وغبطة ورضى .

بل لقد كان كازانوفا فى تلك الأعوام الأخيرة الهادئة من حياته الحافلة، يتصوّر حول نفسه أفقا من العظمة والشهرة، وكان أيام تجواله قد زار الفيلسوف الأكبر ڤولتير فى قصره ومستقره المنعزل فى فرنى، وأعجب بحياته الهادئة وشيخوخته الجليلة فكان يتصوّر نفسه فى أيامه الأخيرة، فى نفس الأفق والظروف التى شهد فيها ڤولتير فتغريه تلك المقارنة الخلابة ، وتثير فى نفسه الهائمة طائفة من الأحلام اللذيذة الرائعة .

وفى أوائل سنة ١٧٩٨ مرض كازانوفا وتفاقم مرضه بسرعة، وشعر باقتراب أجله فتوالت عليه زيارات الأصدقاء والمحبين يغمرونه بعطفهم وعنايتهم ويرسلون اليه الأطباء والهدايا ؛ وفى الرابع من يونيه قضى نحبه واختتم حياته العجيبة فى جوّ من العطف الذى طالما حرم منه أيام حياته، ودفن على الأغلب فى مقبرة قصر " دوكس" بيد أن قبره لبث مجهولا لم يكشف عنه البحث .

* * *

والآن وقد استعرضنا سيرة ذلك الجوّاب المرح والمغامر الجرىء، نحاول أن نستعرض جوانب شخصيته ومناحى نفسه ، وأن نقرأ فى حوادث حياته لمحة من خلال العصر الذى عاش فيه .

كان القرن الثامن عشر عصر تطوّر فكرى واجتماعى عميق، وكان أيضا عصر انحلال فكرى واجتماعى ، وكان المجتمع الأوربى القديم ينحدر يومئذ الى نوع من الخمول والدعة ، ويجنح الى تذوّق متاع الحياة المادى بكل ما وسع من رغبة وهوى؛ وكان كازانوفا يمثل روح عصره وخواص عصره ،

بل كان يمثل رذائل عصره أتم تمثيل وأصدقه، وكان يمثل بالأخص الجانب المادى من هذه الخواص والرذائل، فكانت خلاله مزيجا من الاستهتار والمرح، والجرأة والطموح، والعزم والخمول؛ وكانت غاية الحياة عنده هى الحياة ذاتها بما فيها من متاع ولذائذ وترف . كان كازانوفا يحب الحياة حبا جما، وهو يصفها فى مذكراته "بأنها هى الشيء الوحيد الذى يملكه الانسان حقا" ويشبهها "بغانية حسناء يعشقها الانسان، ويهبها ما شاءت ما دامت باقية عليه"، وهذه الفلسفة المادية المحضة هى التى تغمر حياة كازانوفا وتوجهها .

وهذه النظرة المادية الى الحياة، وهذه الفلسفة المستهترة المرحة، وهذه الخواص السقيمة المنحلة، تقدمها الينا مذكرات كازانوفا بصورة بارزة؛ والواقع أن هذه المذكرات الشهيرة التى تشغل عدة مجلدات كبيرة، إنما هى صورة قوية جامعة لمجتمع القرن الثامن عشر وخواصه وفضائله ورذائله؛ وهى ليست قصة كازانوفا فقط، ولكنها قصة جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية فى هذا العصر؛ ففيها نرى حياة المغامر الجرىء، والمشعوذ الأفاق، والعاشق المضطرم، والسيد المنعم، والشريد البائس ؛ وقد كان كازانوفا كل أولئك، وكان له كل خلالهم ورذائلهم، وهؤلاء جميعا يملأون فراغ حياته .

وهذه المذكرات الشهيرة هى أسطع ما فى حياة كازانوفا ، وهى التى خلدت ذكره. ذلك أن كازانوفا لم يكن فى ذاته شخصية هامة، ولم يكن من رجال التاريخ ، ولكن حياته العجيبة تقدم لنا مزيجا مدهشا من الفلسفة المادية والاجتماعية يستحق الدرس لذاته؛ وقد عنى فى أواخر حياته أن يدوّن سيرته بكل ما فيها من حوادث مدهشة ، وفلسفة مرحة ، وفضائح مزرية ، وكل ما فيها من شذوذ وخبائث . وقد رأيناه فى أواخر حياته يستقرّ فى قصر دوكس، فى ذلك المقام النائى المنعزل، ويقطع أوقاته بالقراءة والكتابة ،

وكان كازانوفا أديبا مفكرا ، حسن البيان والأسلوب ؛ وكان تدوين سيرة حياته أعظم عزاء له فى شيخوخته ، فقد كانت هذه الصحف الممتعة تحمله من ذلك القصر النائى ، ومن غمار الشيخوخة والعزلة والبؤس ، الى الماضى الباهر ، الى الأيام الخالية بكل ما فيها من متاع وترف ، الى أمسية الحبور والمرح ، الى المدن والمجتمعات التى جابها ، والى مختلف النساء اللائى ظفر بهن . وكان أثناء حياته الحافلة قد جمع كثيرا من المذكرات والمواد لكتابه ، ومنها رسائل من أصدقائه وصاحباته ، ومذكرات كان يدونها على الأثر ، هذا الى ما تعيه ذاكرته القوية من الحوادث والتفاصيل .

وقد بدأ كازانوفا كتابة مذكراته فى سنة ١٧٩١ ، واستمر فى كتابتها عدة أعوام ، فلبث يستعيدها ويهذبها حتى سنة ١٧٩٨ ، قبيل وفاته بأشهر قليلة ؛ وكان يكتبها بشغف وتأثر ، إذ كان يرى تلك الحياة الساطعة الذاهبة تمر أمام عينيه وتبعث اليه ذكريات المجد والصبا ؛ وكان يعتزم إصدار الجزء الأول منها منذ سنة ١٧٩٧ ، ولكن الموت عاجله ، ولم يتح له تنفيذ أمنيته .

ولم تظهر مذكرات كازانوفا إلا بعد وفاته بحين ، وكان ظهورها حادثا أدبيا كبيرا ؛ ذلك أنها لم تكن فياضة بالسير العجيبة فقط ، ولكنها كانت أيضا قطعة فنية بديعة تنعكس عليها جميع أحوال العصر الذى عاش فيه صاحبها ، أعنى القرن الثامن عشر ، وجميع صوره وأحواله مجتمعه . وتشغل هذه المذكرات الممتعة عدة مجلدات كبيرة ، وهى عمدتنا الأولى فى سير كازانوفا وفى تفهم نفسيته وخلاله ، وفيها يقص حياته منذ مولده بافاضة ، ويستعرض جميع وقائعه ومغامراته الغرامية مع نساء العصر من كل الطبقات ، ويصف رحلاته العديدة الى مختلف البلاد ، ويصف لنا مجتمعات العصر وأحواله وأخلاقه وعاداته ، كل ذلك بقوة وإفاضة وبيان شائق ؛ وقد كان كازانوفا فى الواقع رحالة عظيما ، وكان يتمتع بمواهب بديعة فى الملاحظة والدرس

والوصف، وفى تفهم عقلية الأفراد والطبقات ؛ هذا الى خيال خصب يسبغ على قصته كلها طابعا من السحر ؛ وقد يطبع بعض أقواله ومزاعمه أحيانا طابع من المبالغة، ولكن ذلك لا ينتقص من متاع قصته وسحرها .

وقد لفتت مذكرات كازانوفا منذ ظهورها فى أوائل القرن التاسع عشر أنظار النقد الأدبى ، فنوه بعض النقدة بقيمتها الأدبية ، وحمل عليها البعض الآخر؛ وأبدى سانت بيف أستاذ النقد نفسه عطفه عليها وعلى مؤلفها ، ذلك المحب الأمثل الذى لم يسمح قط للمرأة بأن تسوده؛ ولكن چول چانان وهو ناقد آخر يحمل عليها ولا يرى فى مؤلفها سوى دعى أفاق تحدوه شهوات مضطرمة ؛ وكذلك يرى فرانسوا ماسون فى كتابه عن « الأب برنى » أن هذه المذكرات ليست سوى مزيج من الأكاذيب المزرية ؛ بيد أن النقد المعاصر يرى فى مذكرات كازانوفا أثرا جديرا بالتقدير ، ويرى فى صاحبها شخصية جديرة بالعطف رغم عيوبها ومثالبها ؛ ومن ذلك ما يعلق به مسيو أوكتاف أوزان على المذكرات فى فصل كتبه فى هذا الموضوع : « لماذا نحمل باللوم على ذلك المحب المعاصر للويس الخامس عشر ، لأنه أرانا وعرض علينا خلال عصره المنحل ، وهى خلال كانت تعتنقها أعظم الشخصيات التى كتب عنها ؟ وهل يحق لنا أن نمعن فى الانتقاص من ذلك السرور الذى يتحفنا به عند قراءة « المذكرات » وأن نحمل على تلك الأخلاق الفردية المثيرة؟ ان كازانوفا لم يكن أفضل ولم يكن أسوأ من أعظم الشخصيات التى ظهرت على مسرح العالم فى القرن الثامن عشر»(١) .

*
* *

وتقدم إلينا هذه المذكرات الحافلة الممتعة كازانوفا فى جميع صوره ومناحيه ؛ فى صورة المحب المضطرم الذى يطارد المرأة بكل ما وسع من

(١) وقد ترجمت مذكرات كازانوفا من الايطالية الى معظم اللغات الأوربية .

شغف وجوى، ويأسرها بظرفه وسحره، ويظفر بها فى كل المواطن؛ وصورة المغامر الجرىء الذى يتسلح بذكائه وخبثه ومزاعمه ليغزو المجتمع ويعيش على هامشه بأى الوسائل؛ وصورة السائح المتجوّل الذى يجوب أوربا من أقصاها الى أقصاها باحثا عن المال والمتاع أنى استطاع؛ وصورة السيد الذى ينعم بالمال والثراء، أو صورة الشريد الذى لا يملك قوت يومه؛ وأخيرا صورة المفكر الأديب الذى يلتمس النسيان فى القراءة وتسطير الماضى.

وتبذ صورة المحب المضطرم فى شخصية كازانوفا كل صوره الأخرى، وهى بلا ريب أبرز صور حياته كما هى أبرز الصور فى مذكراته. أجل كان كازانوفا محبا شغوفا ملتهب الجوانح، وكانت المرأة عنده غاية الغايات؛ وقد حبته الطبيعة كما أسلفنا بكل ما ينبغى أن يتسلح به المحب الظافر من خلال وصفات خلابة، ويندر أن نجد بين غزاة المرأة من غص بالظفر فى هذا الميدان كما غص به كازانوفا، وما زال كازانوفا الى يومنا لقب المحب الظافر؛ ولقد كان كازانوفا ماديا فى حبه كما كان فى سائر وجهات حياته، ولم تكن العاطفة عنده شيئا مذكورا، وكان قلبا فى الحب لا يكاد يظفر بغزو حتى يسعى الى غزو آخر، وكان يرتفع فى طموحه الى أرفع البيئات والشخصيات، وينحط الى أسفل البيئات والمواطن؛ فنراه يظفر بطائفة من أكابر السيدات فى جميع المجتمعات التى تقلب فيها من نبيلات ونسوة متزوجات وممثلات ومغنيات وغيرهن، ونراه يهبط أحيانا الى مجتمع الشعب المتواضع فيغزو عاملة أو خادمة؛ واليك مثلا مما يقصه علينا فى مذكراته مما يوضح فلسفته فى الحب: ففى ذات يوم كان ينتظر جيادا لمركبته فى طريق رومة، فمرت به عربة تحمل مغنية حسناء ذائعة الصيت يومئذ، وكان كازانوفا يعشق المغنيات والممثلات بنوع خاص، ولكنه يقول لنا: «ومع أنها كانت فتية وكانت حسناء، فانها لم تثر فى نفسى رغبة ما، ذلك أنها كانت

حسناء جدا، بادنة جدا . ولكن خادمتها كانت بالعكس فتاة سمراء ساحرة ذات قدّ ممشوق وعينين وضاءتين؛ فوقعت فى حبها على الأثر» .

ويذكر لنا كازانوفا فى مذكراته عشرات وعشرات من النساء اللائى ظفر بهن خلال حياته الغرامية الحافلة . وهو تعداد لا يتسع له المقام هنا ؛ وقد ذكرنا فيما تقدّم طائفة من الأسماء التى غزاها إبان ازدهار مغامراته ؛ والظاهر أن كازانوفا لم يتأثر فى حياته بحب امرأة وسحرها قدر ما تأثر بحب راهبة حسناء من "ميران" يرمز لها فى مذكراته بحرفى « م . م »، ويصف لنا روعة قوامها وروعة جمالها بحماسة مؤثرة؛ وقد كانت « م . م » فى الواقع امرأة ساحرة الخلال تضطرم شغفا وجوى ، وكانت تخفى تحت ثيابها الكهنوتية نفسا ناعمة تواقة ملتهبة ، وكانت تقتحم أروع الأخطار لتحيا تلك الحياة المزدوجة : حياة التقشف فى الدير، وحياة اللهو والقصف خارج الدير؛ وبينما ترى بالنهار فى ثياب راهبة محتشمة، اذا بها تسطع بالليل كالحلية فى مرقص أو منتدى ، وتبذ بفائق حسنها وأناقتها كل حسناء أخرى؛ وقد كانت تطلق العنان لشهواتها المضطرمة ماشاءت ، ولكنها كانت قوية النفس تضبط هواها متى وجب ؛ ويصورها كازانوفا بأنها المحبوبة المثلى فى حسنها وفى خلالها وسحرها ، وقد ترك هواها فى نفسه بلا ريب أعمق الآثار وأبقاها .

ثم يأتى بعد صورة المحب ، صورة السائح ، وقد كان كازانوفا سائحا عظيما يجوب أرجاء القارة بلا انقطاع ، وكان يعشق التجوال فى عصر كان السفر فيه مشقة حقيقية؛ وكان يجد فى السفر لذة عظيمة ، ويتخذ أثناء تجواله مظاهر السيد العظيم فيستأجر أفخر المركبات والجياد ، وينزل فى أفخم الفنادق ، وينثر المال والعطاء من حوله ؛ ولكنه كان فى رحلاته مغامرا ، لا تغريه سوى رغباته وأمانيه ، ولا تغريه مشاهد الطبيعة الرائعة ، ولهذا نراه فى مذكراته يعنى بسرد مغامراته أثناء الطريق ، وسرد ملاحظاته عن الأشخاص والحياة

والنساء بنوع خاص، وقلما نراه يعنى بوصف البلاد أو مشاهد الطبيعة، بيد أنه يبدى فيما يصف من أحوال المجتمعات والأشخاص دقة تدلى بقوة ملاحظته وحسن آرائه .

ويقدم كازانوفا إلينا خلال حياته صورتين قويتين متباينتين ، فنراه إما سيدا كبيرا ينعم بالجاه والثراء وإما شريدا بائسا يتخبط بين براثن الفاقة ؛ وفى الحالة الأولى نراه يقتحم المجتمع الرفيع ، وينعم بكل ما فى الحياة من متاع وبذخ ، ويصل الى مجالسة الملوك والأمراء والعظماء من كل ضرب ؛ ألم يجالس لويس الخامس عشر وفردريك الأكبر ، والأمبراطورة كاترين ، والبابا ، وڤولتير ، وغيرهم من أكابر العصر ؟ ثم نراه فى كهولته شريدا بائسا يتقبل فى سبيل القوت مضض المهانة والمذلة ؛ بيد أنه فى الحالين يحتفظ بقوة نفسه ، وأثرته ، وأمانيه ؛ ذلك أن كازانوفا كان فيلسوفا يقصد الى الحياة بأى الوسائل، ولا يروعه أن يحقق متاعها بأى السبل، ولم يكن المال فى نظره إلا وسيلة من وسائلها .

وقد كان كازانوفا منذ نشأته رجلا مثقفا واسع المعرفة بالنسبة لمجتمع عصره ، وكان فى أواخر حياته يعتز بمواهبه العلمية والأدبية ، ويأنس سعادة عظيمة فى إطلاق العنان لقلمه ، ولم تكن المذكرات كل ما يكتب ، فقد كان يتصل بالمكاتبة بجماعة من أعلام عصره ، وكانت له آراؤه الخاصة فى أحوال العصر وأحداثه ، وكان يسخط على الثورة الفرنسية ويعتبرها حركة جنونية، وقد كتب برأيه الى روبسبيير فى رسالة مستفيضة .

والخلاصة أن كازانوفا، كان رغم رذائله ، شخصية عجيبة ، وكانت حياته صورة صادقة للعصر الذى عاش فيه، وهى من هذه الناحية تستحق التحليل والدرس ؛ ولقد كان لهذا المغامر المرح أصدق سلف وشبيه فى مواطنه بنڤنوتو تشلينى ؛ فقد خاض كلاهما حياة مماثلة ، واشتركا فى كثير من

الخلال والخواص النفسية، وسطر كل منهما حياته بقلمه ؛ ولكن تشلليني كان علما من أعلام الإحياء و بطلا من أبطال الفن ؛ أما كازانوفا فلم يعش إلا لنفسه ، ولم يتبوأ فى مجتمع عصره سوى مكان ثانوى ، وكانت حياته مزيجا من الأهواء الجامحة ، والأثرة العميقة والشهوات المادية ، والمسرح العقيم (١) .

(١) نرى أن نشير الى أننا انتفعنا فى كثير من نواحى هذا البحث بالأثر القيم الذى وضعه عن كازانوفا الكاتب الفرنسى الكبير Joseph Le Gras وعنوانه :

L'Extravagante Personalité de Jacques Casanova.

الفصل السابع

روســـو ومدام دى ڤرنس

١٧٢٨ — ١٧٤٠

تقدّم لنا «اعترافات» الكاتب والفيلسوف الاجتماعى جان جاك روسو صورا نفسية مؤثرة عن نشأته وحياته الأولى؛ ومن هذه الصور وأبدعها قصة روســو مع مدام دى ڤرنس Mme de Warens ، وهو اسم لاتثـير صاحبته فى ذاتها كبير اهتمام؛ ولكنها تغدو باقترانها بحياة روسو وسيرته، شخصية تاريخية حقــة . وقد خلد روسو ذكرها فى اعترافاته أو ترجمة حياته ، وأفـرد لهـا فى هــذه الاعترافات أكبر مكانة ، وقد كان لهــذه المرحلة من حياة روسو أعظم أثر فى تكوين تفكيره وفلسفته .

نلمس أثر المرأة فى حياة كثير من عظماء الرجال، وتمتاز هذه الشخصيات النسوية فى أغلب الأحيان بخلال قوية بارزة تمكن لهـا فى النفوذ والتأثير؛ ولكن مدام دى ڤرنس تبدو لنا فى صورتها وخلالها شخصية عادية ، لاتخلق فى ذاتهـا لأن توحى بشىء من مقومات العظمة أو البطولة ؛ وكان مثولها فى حياة روســو أيام أن كان فتى مغمورا شريدا لاقيمة له فى مجتمع وطنــه وعصره . على أن هــذه الصلة طبعت نفس روســو وروحه بأعمق طابع، وأثرت فى عواطفه وتفكيره أعظم تأثير، وأثارت من قلمه عن مدام دى ڤرنس وعن صلاته بهـا ، تلك الصحف المؤثرة البديعــة ، التى نعتقد أنها أجمــل ما فى « الاعترافات » .

كانت لروسو مع مدام دى ڤرنس قصة من أغرب القصص وأجملها :

قصة «أم» وولد ، ومربية وتلميذ، وحامية ومحسوب، وأخيرا قصة عاشق وحبيبة ، وصاحب وخليلة ؛ وكان اتصاله بها سنة ١٧٢٨ وهو حدث فى نحو السادسة عشرة من عمره ، ففى ذلك الحين فر روسو من جنيف مسقط رأسه ، وغادر أسرته بعد أن التحق مدى حين صبيا بمكتب محام ولم يأنس ميلا للعمل فيه، ثم بحانوت حفار لم يطق خشونته وسوء معاملته، وسافر على غير هدى الى بلدة كنفنيون من أعمال ساڤوا، وقصد قسيسها المسيو دى بونڤير وكانت بينه وبين أسرته صداقة ، فأرسله بتوصية منه الى سيدة خيرة محسنة هى مدام دى ڤرنس ، لكى تعاونه على البحث عن عمل يعيش منه .

وكانت مدام دى ڤرنس تقيم يومئذ فى بلدة « أنسى » ، فقصد اليها الفتى چان چاك وقلبه يتردّد بين الخيبة والأمل . ويقول لنا روسو إنه لما وصل الى « أنسى » فكر فى وسيلة مؤثرة يكسب بها عطف مدام دى ڤرنس ، فكتب اليها خطابا منمقا ضمنه كل ماوسع من الكلمات البليغة، ووضع معه خطاب المسيو دى بونڤير . ثم ذهب الى منزلها فلم يجدها هنالك، وقيل له إنها سارت توا الى الكنيسة على مقربة من المنزل ، فهرول فى أثرها ولحق بها وناداها . ثم يقول : "وانى أذكر هذه البقعة بلا ريب ، وكثيرا ما بللتها بعد بدموعى وغمرتها بقبلاتى . وأنى لأودّ أن أسور هذه البقعة السعيدة بقضبان من الذهب ، وأودّ أن التمس لها إجلال العالم . ومن يقدّس آثار سعادة الإنسان فعليه ألا يقربها إلا راكعا" . وشدّ ما كانت دهشة روسو حينما رأى مدام دى ڤرنس لأول مرة ، وكان يتصوّرها عانسا مظلمة المحيا شديدة الورع ، وما كانت المحسنة التى يختارها القس دى بونڤير لتكون فى نظره غير ذلك ، ولكنه رأى بالعكس محيا يفيض بالسحر ، وعينين زرقاوين نجلاوين تفيضان بالرقة ، وبشرة ناصعة باهرة ؛ فاستقبلته باسمة

وتناولت الخطابين وقرأتهما . ثم طلبت اليه برفق أن ينتظرها فى المنزل حتى تعود من القداس .

وهنا يحدثنا روسو طويلا عن مدام دى ڤرنس ، فهى لويز الينور دى ڤرنس واسمها العذرى « دى پايلس » ، ولدت سنة ١٦٩٩ فى أسرة نبيلة من لوزان ، وتزوجت صغيرة بالمسيو لويس دى ڤرنس ؛ وكان الزواج عقيما ، ولم يكن سعيدا ، فعافت حياة الأسرة ، وانتهزت فرصة وجود الملك ڤكتور أمديه (ملك ساڤوا) ذات يوم فى مصيفه فى إڤيان ، فغادرت أسرتها وموطنها واستغاثت به ، فمنحها حمايته ورعايته ورتب لها نفقة حسنة . ثم ذاع بعد ذلك أنه يهواها ، وأنه أبعدها الى " أنسى " ، وهنالك نبذت مذهبها البروتستانتى واعتنقت الكثلكة إرضاء لمليكها وكان كاثوليكيا متعصبا . وكان قد مضى عليها عامين فى أنسى يوم وفد عليها روسو ، وكانت يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها . وكانت حسناء " جمالها من ذلك النوع الباقى الذى يبدو فى المحيا أكثر مما يبدو فى التقاسيم ، هذا الى أن جمالها كان ما يزال فى ذروته الأولى . وكانت ذات هيئة ناعمة جذابة ، ونظرة ساحرة ، وبسمة ملائكية ؛ وكانت صغيرة القد أميل الى القصر ، عبلة نوعا ولكن دون قبح ، بيد أنه لم يك أجمل منها رأسا ، ولا أجمل صدرا ويدين ومعصمين " .

وقد تلقت مدام دى ڤرنس تربية مضطربة متنوعة ترجع الى أنها فقدت أمها عند مولدها ، فتعلمت شيئا من مربيتها ، وشيئا من والدها ، وشيئا من أساتذتها ، وكثيرا من عشاقها . وتلقت بالأخص عن والدها قشورا من الطب والسيمياء ، وكان للأفاقين من الأطباء والكيمائيين نفوذ كبير عليها ، فكانت تقلدهم فى عمل المركبات والأدوية ، وتبدد فى ذلك ذكاءها وسحرها اللذين كانا يخلقان بأرفع المجتمعات . بيد أنها لبثت خلال هذه الغمار محتفظة بطيبة قلبها ، ورقة شمائلها ، وبشرها وصراحتها ، وحبها للبائس والمسكين ؛ وكان

مدام دى فرنس

جديرا بذكائها ورفيع خلالها أن تشغل مكانة غير التى وجدت فيها، وأن تؤدّى عملا أجل من ذلك الذى كانت تؤدّيه .

ولقى روسو مدام دى ڤرنس " فغزت لبه وحازت ثقته من أوّل مقابلة وأوّل كلمة وأوّل نظرة " . ولا يستطيع روسو أن يدرك كنه هـذه العاطفة العميقة التى بثتها إليه مدام دى ڤرنس منذ الساعة الأولى ، وهو يتساءل عما إذا كانت هـذه العاطفة حبا، واذا كانت فكيف اقترنت منذ البداية بسـلام القلب، والسكينة ، والبشر ، والثقـة ؟ وكيف أنه وهو فى حضرة امرأة رفيعة رائعة الحسن، يتوقف عليها مصير مستقبله فى معنى من المعانى،

استطاع أن يشعر بمنتهى الحرية والطمأنينة ، ولم يخالجه أى اضطراب أو وجل ؟ هذا وهو الحدث الحيي الذى لايعرف شيئا عن العالم .

وسألته عن أحواله ورغباته ، فقص عليها قصته ، وبعد أن فكرت مليا فى أمره ولم تجد له حلا موافقا ، اقترح أحد ضيوف المنزل على مضيفته أن يسافر الفتى الشريد الى تورينو ليلتحق هنالك بمعهد لتخريج الكهنة ، وفيه يلقى العون المادى والروحى ؛ فوافقت مدام دى ڤرنس لأنها لم تجد حلا آخر ، وساعدت روسو ببعض المال ، فسافر الى تورينو بعد أن أقام لديها بضعة أيام أسرته فيها بساحر خلالها وبثت إليه شعورا خالدا بالمحبة والعرفان ؛ وهنالك قدم أوراق التوصية التى يحملها . وكان المعهد معهد تبشير للكثلكة ، فلم يمض حين حتى حمل روسو على تغيير مذهبه البروتستانتى واعتناق الكثلكة ، ثم أخرج على أثر ذلك من المعهد ونفح بمكافأة صغيرة ، فلبث حينا يتجول فى المدينة ، ويتنقل من مسكن الى آخر ، وهو شريد لايدرى ماذا يصنع ، حتى ألقى به القدر الى خدمة سيدة نبيلة تدعى الكونتة دى ڤرتشليس . وكانت أرملا متقدمة السن ولا ولد لها ، وكانت أديبة قارئة ، فكان روسو يكتب ما تمليه عليه من القطع والخطابات ؛ ولكنها لم تلبث طويلا حتى مرضت ثم توفيت ، وغادر روسو المنزل آسفا شريدا ؛ حتى سنحت له فرصة أخرى ، فألحق بتوصية من بعض الأصدقاء بخدمة الكونت دى جوڤون أحد رجال البطانة ، وتعرف عندئذ بالأب دى جوڤون أحد أعضاء هذه الأسرة ، وتلقى عليه دروسا فى اللاتينية والأدب القديم ، ولبث فى عمله الجديد أشهرا أخرى ، ثم أقيل منه فخرج خالى الوفاض مهموم النفس وكره البقاء فى تورينو ، واعتزم العودة الى أنسى والى مدام دى ڤرنس .

فغادر تورينو على قدميه ، ووصل الى أنسى بعد رحلة شاقة وقصد الى منزل المحسنة اليه ، وآنس فى الحال منها ذلك العطف القديم ، فارتمى على قدميها

وهو يلثم يدها فرحا، وفاض قلبه سعادة إذ علم أنها أعدت له غرفة بالمنزل، وأنه سيقيم الى جانبها باستمرار . وهنا يفيض روسو فى وصف عواطفه نحو هذه السيدة البارّة الساحرة ، فيقول لنا إن علائقهما لم تثر منذ الساعة الأولى أية كلفة ، فكانت تسميه " ولدها الصغير " ويسميها " أمه " وان هذه التسمية كانت أصدق معبر عن بساطة هذه العلائق وسذاجتها ، وبالأخص عن تجاذب قلبيهما ، وان الشهوة الجنسية كانت بعيدة عن ذهنه ، ولكنه كان سعيدا إذ وجد " أما " فتية حسناء تغمره مداعباتها وقبلاتها — أجل قبلاتها — سحرا، وأنه كان يشعر الى جانبها ولدى نظراتها وأحاديثها بمتعة خالدة لايستطيع أن يدرك كنهها، يقول روسو : " كان يأخذنى سحر المقام معها، ورغبتى المضطرمة فى أن أقضى حياتى الى جانبها ، فكنت أرى فيها دائما ، أكانت غائبة أم حاضرة، أما رؤوما، وأختا محبوبة وصديقا مؤنسا، ليس غير؛ وكانت صورتها التى لاتفارق قلبى قط لا تفسح مجالا لأية صورة أخرى، فلم أك أرى فى العالم امرأة سواها؛ وكانت عذوبة المشاعر التى تبثها الىّ تمنع حواسى من أن تنتبه الى مشاعر أخرى ، وتحمينى منها ومن جنسها كله ، وبعبارة أخرى كنت عفيفا لأنى أحببتها ، فتأمل هذه النتائج التى لا أكاد أحسن عرضها، وقل لى من ذا الذى يستطيع أن يصف طبيعة شغفى بها... ".

— ٢ —

والحقيقة أن مدام دى ڤرنس نفثت فى جان جاك ضربا غريبا من السحر والجوى لا هو بالحب الجنسى الخالص ، ولا هو بالحب البنوى الخالص ، ولا هو بالصداقة الحميمة ؛ بل كان مزيجا من ذلك كله ، يقرن بنوع من عبادة الجمال والسحر ، وعاطفة عميقة من العرفان وشكر الصنيعة . وسنرى أن له الى جانب هذه الناحية الأفلاطونية ناحية أخرى . وعلى أى حال فقد كان لهذا السحر الذى بثه مدام دى ڤرنس فى جان جاك أعظم

أثر فى تكوين عواطفه وفلسفته فى الجمال والحب والمرأة، وكان مستقى خياله ومشاعره فى بضعة الأعوام التالية التى اكتمل فيها شبابه ، وتفتحت أمامه عوالم الحياة . وفى ظلال هذه السعادة أقام چان چاك معززا مكرما ، يقضى أوقات فراغه فى القراءة ودرس الموسيقى ، والأحلام اللذيذة ، والسمر مع مدام دى ڤرنس . وكان يشعر أن السعادة قد بلغت ذروتها ، وأنها لذلك لن تدوم ، ويرتجف فرقا كلما تصوّر يوم البعاد وانقضاء هذا العهد الأمثل .

وأقام روسو على هذا النحو زهاء عام و بعضه ؛ ثم رأت مدام دى ڤرنس أن ترسله الى ليون لقضاء بعض المهام ، فسافر إليها ، ولم يغب سوى أيام قلائل . ولكنه لما عاد الى أنسى لم يجد «أمه» وموئل سعادته ، ولم يستطع أن يعلم شيئا عن غيابها سوى أنها سافرت الى باريس مع خادمها كلود آنيه ، فلم ير سبيلا سوى الانتظار ، وأقام وحده بالمنزل يتنسم أخبارها وموعد عودها ، وهو يدرس الموسيقى و يؤلف الأناشيد . وهنا يقص علينا روسو عدّة حوادث غرامية تافهة وقعت له خلال هذه الفترة . وكانت معرفته بالموسيقى سببا فى اتصاله ببعض الهواة . ولما طالت غيبة مدام دى ڤرنس ، سافر الى چنيف ، ثم الى نيوشاتل ، وهناك استقر حينا يكسب عيشه بتدريس الموسيقى ، ولكن شبح مدام دى ڤرنس كان يساوره أبدا ، وكان العود إليها أبدا أعز أمانيه ، فلم تمض عليه بضعة أشهر فى هذا التجوال حتى عاد الى ساڤوا . وكانت مدام دى ڤرنس ، قد غادرت يومئذ أنسى الى شامبرى واستقرت هناك . فسافر إليها وتحققت أمنيته بالمقام الى جانبها كرة أخرى ، واستطاع بنفوذها أن يحصل على وظيفة فى ديوان مسح الأراضى فى تلك الناحية نفسها ، فكانت سعادة مزدوجة ، وكان الهدوء والسكينة والاستقرار ، وكان ذلك سنة ١٧٣٢

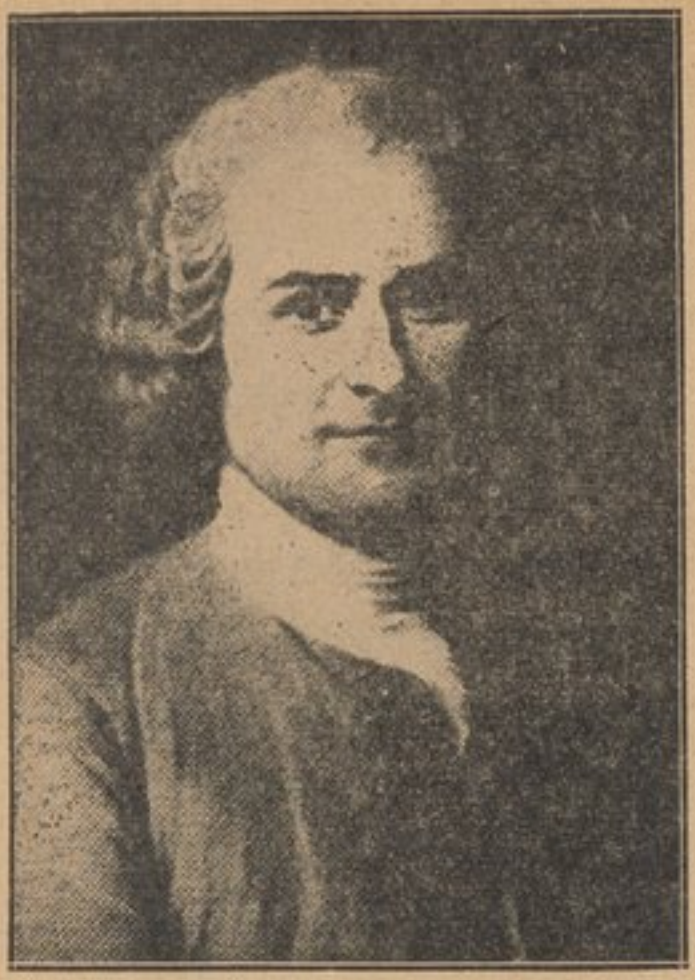

جان جاك روسو

وهنا فقط يكتشف روسو حقيقة مرة غابت عنه طيلة هـذه الأعوام الثلاثة ؛ تلك هى علاقة مدام دى ڤرنس بخادمها وأمينها كلود آنيه ؛ فقـد عرف روسو فجأة أن الخـادم ينعم بحب سيدته ، وعرف ذلك من مـدام دى ڤرنس ذاتها ؛ ففى ذات يوم ثارت بين السيدة وخادمها مناقشة عاصفة وجهت إليه خلالها بعض الألفاظ الجارحة ، فهرول كلود آنيـه خفية الى زجاجة من «اللادونوم» فابتلع ما فيها لكى يزهق نفسه ، ثم آوى الى غرفته ينتظر حشرجة الموت ؛ ورأت سيـدته وخليلته الزجاجة الفـارغة فأدركت الأمر ، وهرولت صارخة الى غرفته ، ونادت روسو واعترفت له بكل شىء

ورجت منه العون ؛ فعاونها على إسعافه ، ونجا الخادم المحبوب . ودهش روسو لغبائه إذ خفيت عنه هذه الحقيقة من قبل . ولكنه لم يشعر نحو كلود آنيه بشيء من الحقد ، برغم أنه يسلبه معبودة قلبه ، لأنه يحرص على سعادتها وهنائها .

ولبث روسو مدى الأعوام التالية الى جانب مدام دى ڤرنس ، ولم يفارقها إلا فى فترات قليلة ولأسباب طارئة . كانت شامبرى موطنه ومستقره ، وكانت مدام دى ڤرنس أمه وأسرته وكل شيء فى الوجود بالنسبة إليه . وكانت الحياة عندئذ هادئة منظمة ، وقد أخذ روسو يشعر بشيء من الثقة بنفسه وبمستقبله ، وكان يوزع وقته بين عمله ، ودرس الموسيقى ، ومدام دى ڤرنس . وكانت ثمة سعادة أخرى لم يكن يتوقعها روسو ، ترفرف عليه من ذلك المقام الرغد ؛ بل كان ثمة حادث لعله أعظم مفاجأة فى حياة روسو . ذلك أن علائقه الساذجة الأفلاطونية مع مدام دى ڤرنس تحولت بغتة الى علائق حب عملى . ولذلك التحول قصة غريبة يرويها لنا روسو فى عدة صفحات ساحرة مؤثرة . فقد كان روسو يعطى دروسا فى الموسيقى لبعض أكابر السيدات فى شامبرى ، وكانت علائقه النسوية تزداد بذلك يوما بعد يوم ؛ وكان بين أولئك السيدات ، سيدة تدعى الكونتة دى متون كان روسو يعلم ابنتها الغناء ، وكانت سيدة مضطرمة الأهواء تحب الدسائس الغرامية ، وبينها وبين مدام دى ڤرنس صلة ومنافسات نسوية . فلما اتصلت بجان جاك وقدرت ذكاءه ومقدرته على الكتابة الساخرة ونظم الأناشيد والأغانى ، فكرت فى استهوائه والانتفاع بمقدرته ، واستقبلته بعطف وإكرام ؛ وشعرت مدام دى ڤرنس بذلك ، ففكرت فى إنقاذ روسو من شراكها وشراك غيرها من النسوة اللائى يحطن به ، والتمست لذلك أغرب وسيلة يمكن تصورها .

فاختلت بروسو ذات يوم ، وأفهمته أنها لم تروسيلة لانقاذه من أخطار الشباب سوى أن تقدّم نفسها إليه ، وأن تفتدى بجسمها كل ما يهدّده من الأخطار، وأنها تمهله ثمانية أيام للتفكير والعزم . ويقول لنا روسو إنه دهش لهذه المفاجأة أيما دهشة، وإنه لم يكن يتوقع قط هذا المصير لعلائقه مع المحسنة إليه؛ بيد أنه يقول لنا إن ذهنه لم يكن بعيدا عن تصوّر هذه السعادة ، فقد كان يضطرم جوى نحو النساء، ولم يكن قد لامس إحداهن بعد ، وان مدام دى ڤرنس وإن كانت تكبره بنحو عشر سنين كانت ما تزال فتية فتانة وافرة الأنوثة والسحر، ولم يثره أنها كانت خليلة غيره، وأنها بذلك توزع متاعها على أكثر من رجل ، فقد كانت هذه الشركة مؤلمة حقا ، ولكنها لم تغير ذرّة من عواطفه نحوها .

ويحاول روسو أن يحلل عواطفه نحو مدام دى ڤرنس مرة أخرى . لقد كان يحبها حقا ، بل كان يهيم بها حبا؛ ولكن ذلك الهيام كان أقوى من أن يحمله على الرغبة فى وصالها . وقد أنفق هذه الأيام الثمانية فى اضطراب ذهنى لا يمكنه تصوّره وكأنها كانت قرونا ثمانية ، ولكنه كان يبغى المزيد منها . يقول لنا روسو : " ولست أدرى كيف أصف حالى عندئذ؛ لقد كانت نوعا من الروع الممزوج بفارغ الصبر؛ وكنت أخشى عندئذ تحقيق ما تمنيت، بل لقد حاولت أحيانا أن أفكر فى طريقة لائقة لاجتناب هذه السعادة الموعودة . ولكن تصوّر نفسى المضطرمة، ودمى الملتهب، وقلبى النشوان بالحب ، وتذكر أننى وإن كنت أضطرم نحو النساء جوى، فانى لم أكن قد لمست إحداهن بعد؛ وأن الخيال والحاجة والأثرة والفضول، كلها اجتمعت تلتهمنى ، ثم هواى المحرق كرجل ، ورغبتى فى أن أبدو كذلك . ولا تنس فوق ذلك كله أن حبى العميق لها كان يزداد على ممرّ الأيام، وأننى لم أكن سعيدا إلا بجانبها، وأننى لم أغادرها قط إلا لكى أفكر فيها، وأن قلبى

كان مليئـا ، لا بنبلها ورقتها فقط ، ولكن بجنسها ، وجسمها ، وشخصها ، وبعبارة أخرى بكل ما يجعلها حبيبة الى نفسى " .

ثم جاء اليـوم المروع أخيرا ؛ فهرول روسـو إليها ، وصرح بالقبـول والإذعان ، وبر فى الحال بوعده . ويصف لنـا روسو ذلك اللقاء المدهش فى تلك العبارات القـوية المؤثرة : " لقـد توج قلبى كل نذورى دون أن أرغب فى المكافأة . بيـد أنى حصلت عليها ، وألفيت نفسى لأول مرة ، بين ذراعى امرأة — وامرأة أعبدها . فهل كنت سعيدا ؟ كلا . ولقـد تذوقت السرور ، ولكن شعورا قاهرا من الحزن كان يسمم سحره ؛ وكنت أشعر أنى أرتكب عشرة محرم ؛ ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو ثلاث مرات ، بينما كنت أضمها الىّ فى شغف وهيام . أما هى فلم تكن حزينة ولا مضطرمة ، ولكنها كانت ناعمة هادئة . ولم تكن تحدوها الشهوة ، ولم تكن ترجو المتاع ، ولهذا لم تشعر بمتعة ، ولم يؤنبها الضمير قط " .

ويبدى بعض النقدة ريبا فى صدق هذه التفاصيل ، مع التسليم بصحة الواقعة الأساسـية ، وهى صلة روسو الغرامية بمدام دى ڤرنس . بيـد أننا لا نرى مبررا لهذا الشك ، فان هذه التفاصيل التى يقصها علينا روسو تقترن بحرارة قلبية هى فى نظرنا عنوان صدقه ، ولم يك ثمة مبرر للكذب أو المبالغة فى أمر لا يشهد للمعترف به بكثير من الشهامة أو العفة أو الوفاء .

وهنا يفيض روسو فى تحليل عواطف مدام دى ڤرنس وميولها الغرامية ، ويحاول أن يعتـذر عن أخطائها وزلاتها ؛ فقد نشأت نشأة حسنة ، ذات فضيلة واستقامة ، وذوق رفيع ، وخلال بديعـة ، ولكنها كانت تصغى الى العقل والفلسفة دون القلب ؛ وقد عنى معلمها وأول عشاقها ، مسيو دى تاڤل ، بأن يغرس فى ذهنها جميع المبادئ التى تسهل له إغواءها ؛ فعلمها أن الإخلاص الزوجى سخف ، وأن الاجتماع الجنسى أمر تافـه ، وأن الفضيلة والعفـة

والحشمة أمور ظاهرة فقط . فغزتها هـذه المبادئ وطغت عليهـا ، حتى أصبحت تعتقد دائمـا أنه لا يصفد الإنسـان بحب امرأة قدر الوصل . وفى تلك الصحف التى يصف لنـا فيها روسو ذلك التحوّل فى علائقـه مع مدام دى ڤرنس ، يبلغ روسـو ذروة البلاغة والافتنان ، ولعلها أبدع قطعة فى "الاعترافات" .

وهكذا تحوّلت القصة البنوية الأمومية الى قصة غرامية ، وغدا روسو خليل المرأة التى لبث بضعة أعوام يقدّسها كأم رؤوم . واستمرّت هذه العلاقة ما بقى الى جانبها ، واستمر الخادم كلود آنيه شريكه فى الوصل مدى حين ، ولكنه لم يلبث أن توفى . ثم انتقلت مدام دى ڤرنس وروسـو الى مـنزل خلوى فى ضيعة "لاشارميت" وهنالك قضى روسو ، فى ذلك المقام المنعزل أياما سعيدة فى الدرس ، مستأثرا بصحبة "أمه" وحبيبته ؛ وهو يشير الى هذه الفترة من حياته فى الاعترافات بقوله : " وهنا تبـدأ سعادة حياتى القصيرة المدى . وهنـا تأتى اللحظات الوديعة السريعة معـا وهى التى أعطتنى الحق فى أن أقول إنى قد حييت . ايه أيتها اللحظات الغالية الأسيفة ! عودى فمتعينى ثانية بسيرك المبهج ؛ واذا أمكن فامثلى بطيئة متعاقبة فى ذهنى بأكثر مما فعلت فى حقيقتك الطائرة . ماذا أستطيع أن أفعل لكى أفيض فى ذكر هذه القصة البسيطة المؤثرة ، وأعيد نفس الأشياء مرارا وتكرارا ، دون أن يمـل قرائى هذا التكرار ، كما أنى لا أمل ذكرها لو أنى استأنفت الحياة كرة بعد أخرى ؛ ولو كان ذلك كله يتكوّن من حقائق وأعمـال وأقوال فقط ، لاستطعت وصفها ، واستطعت أن أقدّم الى القارئ فكرة عنها ، ولكن أنى لى أن أصف ما ليس بالقول ولا بالعمل ، بل وما لم يجل بالخاطر ، وإنما كان متاعا وشعورا فقط ، ولم يكن ثمة سبب آخر لسعادتى سوى هـذا الشعور البسيط ؟ كنت أستيقظ عند شروق الشمس ، وكنت سعيدا ؛ وأتريض وأنا سعيد ؛ وكنت

أرى " أمى " وأنا سعيد ، وأغادرها وأنا كذلك ؛ وكنت أجوب الغابات والتلال والمروج، وأقرأ ولا أعمل شيئا ؛ وكنت أعمل فى الحديقة وأجنى الثمار ، وأعاون فى أعمال المنزل والسعادة تلاحقنى أينما سرت ؛ ولم تكن سعادة يمكن أن تحدد بغرض معين ، بل كانت سعادة تملأ نفسى ولم تفارقنى لحظة ما " .

عاش روسو فى ذلك المقام الرغد السعيد مدى حين ، ثم اعتلت صحته ، واشتد به الهزال والضعف ، وفكر فى السفر ينتجع العافية ، وأشير عليه أن يسافر الى مونپلييه حتى يجد من الأطباء من يستطيع معالجته ؛ ولم تمانع مدام دى ڤرنس فى تنفيذ ذلك العزم ، فسافر الى مونبلييه ، ووقعت له أثناء رحلته بعض حوادث غرامية بثت فى ذهنه اضطرابا وجوى ؛ وبعد أشهر عاد الى " أمه " وكانت تلك العاطفة المضطرمة التى لبثت مدى أعوام تدفعه الى جانب مدام دى ڤرنس قد خبت نوعا ، واستحالت الى نوع من الصداقة الهادئة ؛ والظاهر أيضا أن مدام دى ڤرنس كانت تبحث عن صداقة جديدة وغذاء جديد لعواطفها الهائمة ، فلما عاد روسو ألفى الى جانبها فى المنزل رجلا آخر يدعى ڤنزريد ، ولم يلبث روسو أن أدرك من تصرفاته ولهجته أنه غدا صاحبا لمدام دى ڤرنس ، وأنه قد حل مكانه ، فحزن روسو لذلك ولم يطق البقاء حيثما هدمت سعادته ؛ فسافر الى ليون ، ولم تبد " أمه " كبير أسف لسفره . و بعد أن أقام بها حينا عاد الى مدام دى ڤرنس كرة أخرى ، وأقام بالمنزل حينا فى عزلة عنها لا يكاد يراها إلا وقت الطعام ، وكانت آخر زياراته لها ؛ وكان يومئذ قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ونضجت دراساته ومواهبه وآنس فى نفسه طموحا الى غزو ميدان الحياة الواسع ، فاتجه ببصره الى باريس ، فودع " أمه " الوداع الأخير ، وسافر اليها تحدوه مختلف العواطف والآمال .

وكان ذلك فى صيف سنة ١٧٤٢؛ وكان ذلك ختام قصة روسو ومدام دى ڤرنس، فلم يرها بعد ذلك سوى مرة أخرى فى ظروف مؤسية. وألقى به القدر فى باريس الى غمار حياة جديدة؛ ولكنه قبل أن يستقر بها نهائيا عين بتوصية بعض الأصدقاء فى منصب أمين لسفير فرنسا فى البندقية، وأنفق فى البندقية زهاء عامين وهو يشكو ويتذمر. ثم عاد الى باريس فى سنة ١٧٤٥، وعاش مدى حين فى كنف أسرة "ديبان" التى عطفت عليه وقدرت نبوغه. وتعرّف عندئذ بديدرو واشتغل بتسطير المذكرات الموسيقية، واتخذ صاحبة جديدة هى تيريز ليڤاصير، وهى فتاة وضيعة النشأة، كانت خادمة فى الفندق الذى يعيش فيه، وليست حسناء. وشتان ما بين "أمه" وحبيبته الأولى — مدام دى ڤرنس — التى يصوّرها لنا ملاكا معبودا، وبين تيريز التى يفيض فى ذكر سخفها وغبائها ونكد تصرفاتها! ومن الغريب المدهش أنه أبقى على صداقتها أعواما طويلة، وأولدها حسبما يقص فى اعترافاته خمسة أطفال سلمهم جميعا الى ملجأ اللقطاء، ثم تزوّجها فى أواخر حياته. على أن تلك الفتاة الغبية النكدة لم تلعب فى حياته النفسية والعاطفية دورا يذكر، ولم تحل علاقته معها دون اتصاله بسيدات المجتمع الرفيع؛ فنراه منذ سنة ١٧٤٧ يتعرّف بمدام دبيناى، وتتوثق صلاتهما الودّية شيئا فشيئا، ويقبل ضيافتها مدى حين فى ضاحية مونمرانسى حيث أعدّت له مسكنا ريفيا خاصا هو "ليرميتاج" الشهير فى مذكراته. وهنا أيضا يبزغ مجده ويسطع نجمه، ويبدأ فيخرج كتبه الشهيرة: "هلوائيس الجديدة"، "العقد الاجتماعى"، "إميل" ورسائل عديدة، ويغمر صيته فرنسا وأوربا، ويتصل بجمهرة من أكابر العصر ما بين أمراء وكتّاب وسادة، وتتوثق صلاته بمعظم أقطاب التفكير المعاصرين مثل ڤولتير وديدرو وجريم ودلامبر، وغيرهم. وفى سنة ١٧٦٦ يزور انكلترا ثم يغادرها بعد حين ساخطا متبرما؛ ويبدأ كتابة اعترافاته من ذلك الحين.

ولم ينس روسو خلال هـذا التجوال المضنى ، وهـذه الحياة الشريدة ذكرى المحسنة اليه قط ، ذكرى "أمه" وحبيبته الأولى — مدام دى ڤرنس ؛ بيد أنه لم يستطع رؤيتها منذ غادرها إلا فى سنة ١٧٥٤ عند زيارته لجنيف مسقط رأسـه ، وقد رآها فى ظروف ينفطر لهـا الفؤاد . رآها وقد شاخت وحطمتها السنون والبأساء ، وذهبت بكل روائها وسحرها القديم ؛ وتأثر روسو يومئذ لمرآها أيمـا تأثر ، ومزقت نفسه الآلام والذكريات ، وحاول عبثا أن يقنعها بأن تعيش معـه فيتولى خدمتها هو وصاحبتـه تيريز ؛ ولكنها أبت وآثرت أن تحتمل مصيرها وبؤسها بصبر وجلد . ويقول لنا روسو إنه بكى تأثرا لحالها ، ولكنه لم يحاول أن يتبعها ، وانه ندم لذلك أشد الندم ، وشعر بأن تقصيره فى حقها كان أشـد على نفسه وضميره من أى خطأ آخر ، وأن تصرفه كان مستحقا لمـا أصابه بعد من عقاب وشـقاء ، وهو عقاب لم يبرح يلاحقه طوال حيـاته . ولمـا توفيت مدام دى ڤرنس بعد ذلك ببضـعة أعوام ، فى سنة ١٧٦٤ ، اشتد حزنه لفقدها ، وهو يعرب لنا عن ذلك الحزن فى نفثة مؤثرة من " الاعترافات " .

ولبث روسو يجر جر حياته المضطربة النكدة أعواما طويلة أخرى ، تزعجه الهواجس والخواطر المثيرة فى أواخر حياته ، حتى توفى فى يونيه سنة ١٧٧٨ بعد أن طبع مجتمعه وعصره بأعمق طابع من تفكيره وفلسفته .

الفصل الثامن

رستم مملوك الإمبراطور

يرقد نابوليون فى مثواه الخالد فى مؤخرة صرح الانفاليد بباريس فى تابوت من المرمر القاتم ، تظلله قبة فخمة رائعة ، وقد ركزت حوله عدّة من الأعلام التى ظفر بها فى الوقائع الشهيرة التى خاضها وكان النصر حليفه فيها مثل مارنجو ، وفاجرام ، وأيلو ، واسترلتز ، و بينا ، والأهرام ، وغيرها ؛ وقد استوقفنا يوم أتيحت لنا زيارة قبر الإمبراطور منظر ذينك العلمين الممزقين اللذين كتب أمامهما موقعة الأهرام ، فلم نستطع أن نميز لهما لونا أو علامة خاصة أو أن نقرأ فيهما شيئا .

كانت الحملة المصرية من أعظم الحوادث التى تركت فى ذهن نابوليون أثرا خالدا ؛ ومع أنها اختتمت بالفشل من الوجهتين العسكرية والسياسية فانها تركت من الوجهة المعنوية أعمق الآثار ، ولم يكن نابوليون حين مقدمه الى مصر فاتحا يبحث وراء طالعة فقط ، ولكنه كان يتصوّر أنه يستطيع أن يعيد حلم الاسكندر ، فيبدل الأمم والحضارات ؛ ومن ثم فقد حشد فى جيشه المطابع والأدوات العلمية الى جانب المدافع ، والعلماء المبرزين فى كل فن الى جانب الضباط والقادة ؛ ولم يكن ظفر نابوليون بفتح مصر والبقاء فيها مدى حين ، ليضارع تلك الجهود البديعة التى اضطلع بها علماء الحملة الفرنسية لدراسة مصر وحضارتها ، وتلك النتائج العلمية الباهرة التى وفقوا اليها ، ودوّنوها فيما بعد فى كتاب " وصف مصر " الذى يعد بحق من أنفس الآثار التى ظهرت عن مصر ، فى العصر الحديث .

ولما عاد نابوليون من مصر الى فرنسا حينما تعقدت الحوادث وتجهمت، (أكتوبر سنة ١٧٩٩)، لم يكن لديه أمل فى استبقاء مصر طويلا، ولكنه أراد أن يغادرها جنده فى أفضل الظروف والشروط ؛ وهذا ما وقع بعد قليل، فقد انتهت الحوادث بجلاء الفرنسيين عن مصر فى أواخر سنة ١٨٠١ ؛ ولكن نابوليون لم يقطع صلته بمصر، ولم ينقطع اهتمامه بشئونها ، فقد عنى بعد ذلك بتأليف لجنة من العلماء الذين رافقوا الحملة الى مصر مثل برتوليه ومونج، وفوريه، لتضع موسوعة شاملة عن مصر، وظهر أول مجلد من هذه الموسوعة ، أو كتاب " وصف مصر " الذى أشرنا اليه فى سنة ١٨٠٩ ، واستمر صدورها بعد ذلك أجزاء متعاقبة الى سنة ١٨٢٦ ، وكانت من أعظم ثمار الحملة العلمية .

ولبث نابوليون وثيق الصلة بمصر وذكرياتها عن طريق آخر ؛ ذلك هو حرسه الخاص الذى ألفه من بعض المماليك والأقباط والترك والسود الذين اصطحبهم معه من مصر ؛ وكانت هذه الفرقة المختارة التى يرتدى أفرادها الثياب الشرقية الزاهية ويركبون الخيول المطهمة تصحب القنصل الأول ، ثم الإمبراطور ، فى غدواته وروحاته الى التويلرى والميزون ؛ وكان منظرها الفخم المروع معا ، يثير طلعة الباريزيين ودهشتهم ، فيحتشدوا لرؤية أولئك الفرسان الشرقيين ، ذوى الشوارب المفتولة ، والعمائم الملونة ، والثياب الفضفاضة ، كلما مر ركب نابوليون .

وكان عميد هذه الكوكبة المختارة جندى مملوك يدعى رستم . ولرستم مع نابوليون قصة طريفة نرويها فى هذا الفصل . كان رستم أحد أولئك المماليك الذين يصعب تعقب أصولهم أو حياتهم الأولى ، ألقى به القدر الى القاهرة بعد أن بيع مرارا ولقى خطوبا ، وقدم الى بونابارت فى القاهرة حينما طلب أن يؤتى له ببعض الأدلاء الوطنيين . وكان رستم يومئذ فتى فى عنفوانه

وسيم المحيا ، فراق نابوليون منظره ، وسأله حسبما يقرر لنا رستم بعد ذلك فى مذكراته، هل يجيد الركوب والطعان، فأجاب رستم بالإيجاب . وسأله نابوليون عن اسمه، فأجاب أن اسمه الأخير يحيى، ولكن اسمه الحقيق الذى سمى به فى بلاد الكرج مسقط رأسه هو رستم ، فأمره نابوليون أن يتسمى بهذا الاسم ، ثم وهبه سيفا دمشقيا رصعت قبضته ببعض الجواهر ، ومسدسين زينا بالذهب وألحقه بخدمته .

ولم تمض أيام قلائل حتى اضطر نابوليون الى مغادرة مصر مسرعا الى فرنسا ، فلم ينس أن يصطحب معه مملوكه الجديد رستم على ظهر السفينة "موبرون" التى أقلته الى فرنسا مع بعض علماء الحملة من أصدقائه؛ وكان رستم يختص بخدمة سيده الجديد، ويقضى المساء على مقربة من الحلقة التى تتألف كل ليلة فى مؤخرة "موبرون" من نابوليون والعالمين برتوليه ومونج يتحدثون فى الشئون العامة أو يلعبون الورق ؛ وكان نابوليون كثيرا ما يقول لمملوكه أنه سيجد فى باريس كثيرا من المال والنساء الحسان ، فيطرب رستم ، وتضطرم مخيلته بالأحلام اللذيذة ، ويتذكر ماضيه التعس الحافل بصنوف البؤس والمخاطرة ، وما أسبغ الحظ عليه من رعاية ذلك السيد العظيم الذى سيقوده الى مستقبل حافل بصنوف السعادة والنعيم .

ووصلت " موبرون " الى المياه الفرنسية بعد رحلة خطرة دامت نحو خمسين يوما ؛ ولما وصل رستم فى ركب سيده الى باريس ، رأى منظرا رائعا لم يتصوره من قبل ، وسحرته عظمة العاصمة الفرنسية ، التى لم تكن القاهرة أعظم مدينة شاهدها فى الشرق الى جانبها شيئا مذكورا؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى ظفر نابوليون بالغاء الحكومة الادارية المؤقتة (الديركتوار) وصدر دستور القنصلية (ديسمبر سنة ١٧٩٩) ، وانتخب نابوليون قنصلا أولا ، وانتخب معه صديقاه كامباسير قنصلا ثانيا ولبرون

قنصلا ثالثا؛ وهنا جاء دور رستم فى الظهور الى جانب سيده فى المواكب العظيمة، وكان نابوليون يتشوق دائما الى أن يحيط نفسه بتلك المظاهر الشرقية الساحرة، فكان رستم يتقدم عربة القنصل الأول دائما، وهو على ظهر فرس بديع، وقد ارتدى صديرية من القطيفة الزاهية فوق ثوب واسع، ووضع على رأسه عمامة بيضاء أنيقة، وكان منظره الشائق الساحر معا أجمل ما فى ركب القنصل حين يغدو وحين يروح .

وجاء دور الإمبراطورية وتألق نجم رستم سراعا، وشهد الحفلة الدينية الكبرى التى توج فيها الامبراطور بالرغم من معارضة رجال الخاصة، وأعد له بهذه المناسبة ثوبان فاخران وضع رسمهما "أيسابى" مصور الإمبراطور، وظهر رستم فى كنيسة "الأنفاليد" وعليه صديرية من الكشمير الفاخر المطرز بالذهب وعمامة رائعة الحسن ، وذاعت شهرته حتى أصبح من طرائف باريس التى يعنى برؤيتها كل زائر للعاصمة ، وطبعت صورته ووزعت بالألوف فى جميع أنحاء فرنسا ، وأغدق الإمبراطور على مملوكه العطاء والصلة، ورتب له عدة رواتب حسنة حتى غدا من أهل اليسار والنعم. وكان الامبراطور يثق به ثقة لاحد لها، فلم يكن من أقطاب حرسه الخارجى فقط ولكنه كان حارسه الأمين فى حياته الداخلية أيضا ، فكان ينام عند عتبة غرفة الامبراطور فى البهو الملاصق ، وكان هو الذى يحمل العشاء الى الامبراطور والامبراطورة حينما يكونان فى الفراش ، وكان ملحوظا بالرعاية من جميع أعضاء الأسرة الملكية والحاشية حتى أن الملكة هورتنس ابنة الامبراطورة جوزفين ، وزوجة الجنرال مورات ، عنيت بتصويره وكانت تغنى له المقطوعات الساحرة حتى لا ينام أثناء التصوير .

وتاقت نفس رستم الى الزواج، وهام بحب آنسة تدعى دونقيل وهى ابنة أحد منادى الامبراطور، وكانت رائعة الحسن فى التاسعة عشرة من عمرها؛

ولما طلب رستم يدها قامت فى سبيله بعض صعاب شكلية لأنه لم يكن كالفتاة كاثوليكى المذهب ، ورفض الأسقف الموافقة على هذا الزواج ، فتدخل الامبراطور وقضى على هذه الصعاب ، وتم زواج رستم بالآنسة دوڤيل فى سنة ١٨٠٦ ، ورزق رستم منها غلاما سمى " أشيل " فطرب الإمبراطور لمولده وأغدق العطاء لمملوكه .

وظل رستم متمتعا برعاية الامبراطور ، يمرح فى ظلال النعماء والنفوذ ، حتى وقعت الكارثة ، وهزم نابوليون فى حرب التحرير واضطره الحلفاء الظافرون الى التنازل عن العرش والسفر الى جزيرة " إلبا " . وهنا سئل رستم كما سئل المخلصون من حاشية الامبراطور ، عما إذا كان يرغب فى مرافقة الامبراطور الى المنفى فتردد رستم فى اللحاق وهرول الى زوجه فى باريس مغادرا ذلك القصر الذى أنفق فيه أعواما طوالا متمتعا برعاية أعظم رجل فى فرنسا ، وفى أوربا بأسرها ، ودلل بذلك على أثرته ، وضعة نفسه ؛ بيد أنه ندم على فعلته فيما بعد ، حينما رأى بداية العهد الجديد تميل الى اضطهاد كل من كانت له صلة وثيقة بالعاهل المنفى ؛ وكانت فرقة المماليك التى ينتمى إليها رستم قد انحلت مع مرور الزمن وغادرها معظم رجالها ومات عدد منهم ، وبقى رستم بعد ذلك أبرز أعضائها القدماء ؛ ورأى رستم نفسه ينزل من علياء نفوذه بسرعة ، ويجرد من سيفه وعمامته ، وينظر إليه بعين الشك من الحكومة الجديدة . ألم يكن رستم أخلص حرس الامبراطور وأقربهم إليه وأشدهم وطأة على أعدائه ؟ وأحيط رستم برقابة صارمة ، ونقل عيون الحكومة الجديدة عنه أغرب الأخبار ، وقيل أنه يدبر مؤامرة لقلب الحكومة الملكية ؛ والواقع أن رستم كان أبعد الناس عن هذه الريب ، ولم يكن يودّ إلا أن يعيش فى سلام بعيدا عن ذلك الماضى الذى يريبه ويزعجه .

ولما عاد الامبراطور من منفاه فى إلبا توجس رستم شرا ، وهرول الى

سيده القديم يلتمس الصفح والإعادة، فأبى الإمبراطور رؤيته، وردّه باحتقار. وكان رستم يقيم عندئذ منزويا فى بعض ضواحى باريس، فلم يكن أحب الى نفسه من أن يستأنف حياة الانزواء والهدوء، ولم يمض غير قليل حتى وقعت الكارثة الحاسمة وهزم نابليون فى واترلو وحمل الى منفاه فى سنت هيلانه؛ ولم يهتز رستم لهذه الحوادث وقنع من الحياة بالهدوء والسكينة، وعاد الى سكنى باريس بعد أن نسيته الحكومة الجديدة، ولم تحاول إقلاق راحته؛ بيد أنه لم يكن يتمتع بعد برخائه القديم بعد أن أنقصت رواتبه، وكثر ولده، فنراه فى سنة ١٨٢٤ يسافر الى لندن إجابة لدعوة أحد أصحاب المسارح، وهنالك يعرض نفسه فى ثيابه الشرقية القديمة ويكسب بذلك بعض المال.

وقضى رستم فى لندن نحو عام، ثم عاد الى باريس، وانتقل بأسرته الى بلدة دوردان على مقربة من باريس ليعيش فيها، وهنالك لم تفارقه صفته القديمة "مملوك الامبراطور"؛ وكانت هذه الصفة تثير من حوله الفضول وتسبغ عليه مهابة خاصة، بيد أنه لم يكن يتمتع يومئذ بشىء من مظاهره الشرقية القديمة؛ وكان يحب الصيد، ويغشى مجتمعات المدينة، ويتصل بكثير من أهلها بأواصر الصداقة المتينة، وكان كثيرا ما يقص ذكرياته عن الامبراطور ويفاخر بما لديه من آثار الامبراطور مما أفاضه عليه أيام عزه، وكان بعض الساخطين عليه يرمونه بالخيانة، ويقولون عنه إنه خائن لبلاده خائن لولى نعمته، بيد أن رستم لم يكن ليعبأ بهذه المطاعن وكان يحتفظ دائما بسكينته وهدوء نفسه.

وتوفى رستم فى سنة ١٨٤٥، فى الرابعة والستين من عمره ودفن بمقبرة دوردان وكتب على قبره ما يأتى "هنا يثوى رستم رضا مملوك الامبراطور نابليون سابقا، ومولده بتفليس من أعمال الكرج" وكانت وفاته خاتمة لآخر الذكريات الحية فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر[1].

(١) استقينا معظم التفاصيل الخاصة بحياة رستم من المؤرخ الفرنسى لنوتر (Lenôtre)

الكتاب الثالث

أعاصير السياسة

الفصل الأول

مصرع القيصر اسكندر الثانى

سنة ١٨٨١

لم تكن الثورة البلشفية التى نشبت فى أكتوبر سنة ١٩١٧ ، والتى أسفرت عن قيام دولة السوفييت الاشتراكية فى روسيا سوى نتيجة طبيعية للمعركة التحريرية الرائعة ، التى اضطرمت منذ أواخر القرن الماضى بين القياصرة وبين الحركة الثورية الروسية .

كانت روسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر مسرح نضال عنيف بين طغيان القيصرية ، وبين العقلية الروسية الجديدة الطموح الى الاصلاح والتحرير ، وكانت روسيا الجديدة تنشد الاصلاح السلمى فى البداية ، وتحاول عن طريق الاصلاحات الدستورية والاجتماعية تحطيم الأصفاد المرهقة التى تطوق القيصرية بها أعناق الشعب الروسى ، وكان رسل روسيا الجديدة يومئذ جمهرة من الشباب المستنير الذى حفزته مؤثرات الثقافة الحرة الى التطلع الى آفاق جديدة . كان هؤلاء هم طلائع الحركة النهليستية أو " النهليزم " كما سماها ترجنيف ، وكانت هذه الدعوى الاصلاحية المتوثبة دعوة مثل ومبادئ يذكيها طائفة من الكتاب الأحرار بأقلامهم الملتهبة ، وكان أخص ما يميز الدعوة الحديثة على قول شتبنياك مؤرخ الثورة الروسية " هو إنكار كل مايفرض على الفرد إنكارا مطلقا تعززه الحرية الفرديه . وقد كانت النهليستية ثورة قوية مضطرمة لا على الطغيان السياسى ، ولكن على الطغيان المعنوى الذى يرهق حياة الفرد الخاصة " . على أن هذه الحركة الاصلاحية السلمية

لم تلبث إزاء عنت القيصريه وإغضائها عن الاستماع لدعوتها، أن تطورت بسرعة الى حركة ثورية تعتزم أن تحقق مثلها بالنضال والعنف . واحتشد الشباب المتوثب من جميع الطبقات تحت لواء الحركة الجديدة . بيد أنهم على قول شتبنياك " كانوا عزلا إلا من النظريات والمثل، وكانوا يحاربون قوة هائلة مدججة بالسلاح والعدد، ولم يك ثمة سبيل لأن يحركوا كتلة الشعب التى ترزح فى أغلال الرق والذلة " . وكانت القيصرية تضاعف اجراءات القمع وتمعن فى مطاردة أولئك الرجال والنساء الذين يتجاهلون حقيقة الحياة والنظم القومية الروسية .

وهنا يضطرم النضال وتنشب بين القوتين الخصيمتين : القيصرية والنهليستية ، تلك المعركة الهائلة التى تفيض فى كل مراحلها عنفا ، وتحف بها الجريمة من كل صوب ، ويتساقط فى حلبتها قياصرة وأمراء وقواد وحكام وشباب من كل الطبقات . كانت القيصرية وعميدها وكل المؤيدين لطغيانها ، هدفا لطائفة من المؤامرات والجرائم التحريرية المحكمة تعصف بهم وتثل أرواحهم بين آونة وأخرى ، وكانت هذه الجمهرة المستبسلة من الشباب الغض بين فتية وفتيات تلقى بنفسها الى تلك الغمار المروعة وهى تودع الحياة فى كل مرة أفرادا وجماعات ؛ وكان العنف يذكى العنف فكلما وقع اعتداء جديد على زعيم من زعماء الطغيان ، حشد الطغاة فى الحال حول المشانق رهطا من الشباب المجاهد وأعدموهم بعد محاكمات مرتبة تختتم دائما بمجازر بشريه . ذلك هو تاريخ النهليستية أو الحركة التحريرية الروسية التى سطرها التاريخ بمداد من الدم الغزير .

بدأ هذا النضال العنيف فى سنة ١٨٧٥ بعد أن نضجت الحركة الثورية ، واحتشد حول المثل الحرة الجديدة جيش حقيق من الفدائيين ، وكانت القيصرية كلما اشتد ساعد الحركة الثورية واشتدت مطالب الأحرار

فى سبيل الاصلاح الدستورى ، اشتدت من جانبها فى القمع والمطاردة ، وازدادت حرصا على سلطانها المطلق . وكانت سلطات الطغيان تبسط على انحاء روسيا الشاسعة حكما من الارهاب المطبق ، تدعمه جاسوسية بارعة خطرة، وكانت القيصرية هى الباغية المتجنية لأنها لم تستمع الى دعوة الإصلاح، بل آثرت سلاح القمع الهمجى، فمالت على الحركة الثورية تحاول تمزيقها ، ومالت على الأحرار تحاول إفناءهم، وأسرفت فى القبض والاعتقال والنفى الى سيبيريا ، وتدبير المحاكمات الصورية واتخاذها وسيلة لإعدام الزعماء والقادة والشباب المجاهد ؛ وأجاب الأحرار من جانبهم بتنظيم حركة من الإرهاب ذهب ضحيتها ثبت حافل من الوزراء والقضاة ورجال الشرطة وغيرهم من أعوان الطغيان . وكانت هذه المعركة الشهيرة فى صحف الكفاح الثورى ذروة الحركة النهليستية، وكان قوامها من جانب سلسلة من الجرائم السياسية المروعة ، ومن الجانب الآخر سلسلة من المحاكمات الرنانة . ففى سنة ١٨٧٧ قبضت الحكومة على خمسين من الأحرار النهليستيين وحوكموا فى موسكو بتهمة التآمر على سلامة الدولة ، وهى التهمة الخالدة التى يشهرها الطغيان دائما فى وجه خصومه، وكان منهم صوفيا باردين وهى فتاة ثورية نابهة عزفت مثل النهليستية أمام قضاتها بما يأتى " إن الجماعة التى أنتمى اليها هى جماعة الدعاة السلميين . إن غايتنا هى أن نبعث الى نفس الشعب مثلا نظم أفضل وأقرب الى العدالة، أو بالحرى أن نوقظ المثل الغامض الذى يجثم فى نفسه ، وأن نبين له عيوب النظام الحاضر حتى لا يعود فى المستقبل الى نفس الأخطاء التى يعانيها . أما متى تدق ساعة هذا المستقبل المنشود فهذا ما نجهله وليس علينا نحن أن نبينه " . وأسفرت المحاكمة عن القضاء على كثيرين بالإعدام والسجن والنفى . وفى العام التالى قبض على نحو مائتين منهم وقدموا الى المحاكمة فى بطرسبرج (لينجراد) فهلك فى بدء المحاكمة منهم

ثلاثة وتسعون بالتعذيب والانتحار ، وقتل النهليستيون من جانبهم عدة من الجواسيس ، وأطلقت فتاة تدعى ڤيرا زاسولتش النار على تريبوف مدير الشرطة فجرحته جرحا خطيرا (فبراير سنة ١٨٧٨) وقدمت الى المحاكمة فبرئت وحملت على الأعناق فى مظاهرة صاخبة ، ثم فرت خيفة المطاردة والانتقام. وفى أغسطس أعدم الزعيم الاشتراكى كڤالسكى فى أودسا فلم تمض بضعة أيام حتى انتقم له الثوار بقتل رئيس الشرطة مزنتريف . وفى فبراير سنة ١٨٧٩ قتلوا فى خاركوف حاكم المقاطعة البرنس الكسى كروبتكين ، وانتقمت القيصرية على الأثر باعدام الزعيم أوسنسكى وبعض رفاقه . وهكذا لبثت المعركة على اضطرامها أعواما طويلة تحصد أرواح الفريقين .

وكان مصرع القيصر اسكندر الثانى أعظم حوادث هذا النضال الدموى المروع ، وكان ذروة الحركة النهليستية ، وكانت المحاكمة التى تلت أعظم المحاكمات السياسية التى عرفتها هذه الحركة الفياضة بالحوادث والمحاكمات الرنانة . وكان اسكندر الثانى الذى تولى العرش سنة ١٨٥٥ يجنح فى بداية عهده الى نوع من الإصلاح ومسالمة الحركة التحريرية وتحقيق بعض غاياتها . وكان تحريره لرقيق الضياع فى سنة ١٨٦١ فاتحة طيبة لهذه السياسة الإصلاحية ، وكان يميل فى نفس الوقت الى إجراء بعض الإصلاحات الدستورية التى لا تؤثر فى مجموعها على حقوق السلطة العليا ، ولكن تتخذ فى الوقت نفسه صورة المنح والمزايا الدستورية ؛ وكان يعتقد أنه يستطيع تحقيق هذه الغاية بانشاء المجالس المحلية (زمستفوس) ، ولكن الحركة التحريرية لم تحفل بهذه المشاريع الجزئية ، بل اشتدت فى مطالبها وضاعفت جهودها فى سبيل الكفاح والنضال ، وشهرت على القيصرية حربها العوان ، وردت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمع الذريع ، واضطرمت بين اسكندر الثانى وبين النهليستية تلك المعركة الدموية المروعة التى أتينا على وصفها .

ورأت اللجنة التنفيذية الثورية أو اللجنة التنفيذية لإرادة الشعب كما كانت تسمى، أن تقضى على الشر من أصوله فقررت إعدام القيصر (٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩) ونظمت شعبها الفدائية، ودبرت تباعا عدة مشاريع لاغتيال القيصر. فبدأت فى شهر نوفمبر بوضع لغم فى طريق القطار الذى يسافر فيه القيصر ولكنه لم ينفجر. وفى ديسمبر وضع الفدائيون لغما آخر فى طريق القطار الملكى الى موسكو انفجر عند مرور القطار، ولكن القيصر وصل الى موسكو فى قطار سابق. وفى مساء ١٧ فبراير سنة ١٨٨٠ نسف الفدائيون قاعة الطعام فى قصر الشتاء على ظن أن القيصر كان عندئذ يتناول طعامه فيها، ولكن القيصر كان فى مكان آخر من القصر، ولم يكن قد جلس الى المائدة بعد، فقتل فى الحادث وجرح سبعة وستون من الجند والحشم. ونشطت القيصرية من جانبها الى مطاردة الجناة، فأعدم عدة من الفدائيين، ومنح لويس مليكوف وزير الداخلية سلطة مطلقة على العاصمة لكى يستطيع السهر على حياة القيصر وأسرته، وخول له الإشراف المطلق على القضايا السياسية وعلى جميع السلطات الادارية والمدنية. ورأى مليكوف من جهة أخرى أن يتخذ بعض إجراءات لاستمالة الشعب فأفرج عن كثير من المعتقلين وكانت تغص بهم السجون، وردّ آلاف الطلبة الى الجامعات التى أخرجوا منها. وأصدرت اللجنة التنفيذية بيانا قالت فيه: "انها لن تترك الكفاح حتى يتنازل اسكندر الثانى عن سلطانه للشعب ويترك مكانه لجمعية وطنية تأسيسية تضع مبادئ الإصلاح الاجتماعى". ولكن حدث فى مساء ٢٧ فبراير أن استطاعت الشرطة السرية أن تقبض على أندرى جليابوف زعيم اللجنة الثورية فى دار صديقه وزميله فى اللجنة المحامى تريجونى وقبض على تريجونى فى نفس الوقت، وحمل النبأ الى القيصر وزير الداخلية مليكوف فابتهج به أيما ابتهاج، لأنه كان يعتقد أن جليابوف رأس اللجنة المدبر ولن يهدأ له

بال ما دام حرا طليقا . ورفع الوزير الى القيصر فى نفس الوقت مشروع المجالس المحلية الذى اعتزمت الحكومة تنفيذه بعد أن وضع فى صيغته النهائية فوعد القيصر بالنظر فيه فى الغد .

وكان ذلك فى مساء يوم الجمعة ٢٧ فبراير سنة ١٨٨١ ، وكان القيصر يعتزم أن يشهد يوم الأحد أول مارس تمارين فرسان الحرس فى ميدان ميخايلوفسكى كعادته كل أحد . فرجاه وزير الداخلية ألا يفعل لأن جليابوف صرح أمامه أن القبض عليه لا يمنع وقوع اعتداء جديد على حياة القيصر ، ولكن القيصر لم يعبأ بهذا النصح وصمم على الذهاب .

وكان القبض على جليابوف ضربة شديدة للجنة التنفيذية . وكان يقيم منذ حين فى بطرسبرج باسم سلاتفنسكى مع صاحبته وزميلته صوفيا بيروفسكايا بزعم أنها أخته ، وكانت صوفيا ساعده الأيمن فى تدبير المشاريع وإدارة الشئون ، فلما قبض عليه ولم يعد ليلة ٢٧ فبراير جمعت صوفيا أعضاء اللجنة التنفيذية المقيمين فى بطرسبرج فى الحال ، وكان منهم ضابط البحرية سوخانوف ، والصحفى تيخوميرون ، وأسابيف وفرولتكو ، وجراتشفسكى ، وحنه كوربا ؛ واجتمعت اللجنة فى دار فيرا فنجر ، وبحثت الموقف الخطير الذى انتهت إليه ، وكيف أخفقت مشاريعها المتوالية فى الأشهر الأخيرة ، واستطاعت شرطة القيصر أن تشل كل حركاتها ، وأن تقبض أخيرا على زعيمها .

وبعد مناقشات عاصفة قررت اللجنة بالإجماع أن تنفذ مشروع جليابوف لاغتيال القيصر ، وعهدت الى صوفيا بيروفسكايا بالإشراف على التنفيذ ، وكانت اللجنة ترمى بهذه المشاريع الجنائية المتوالية فضلا عن الانتقام للضحايا العديدين ، الى غاية سياسية عملية هى أن تستغل ما يترتب على الاغتيالات السياسية من الاضطراب والروع ، فى تحقيق بعض مطالبها الدستورية .

ولكن هـذه الخطة لم تحـدث أثرها المنشـود بل زادت بالعكس فى سخط القيصرية وحرصها على سلطانها وزادتها إقداما وشدة فى تتبع خصومها .

* * *

اعترم القيصر شهود حفلة الاستعراض العسكرية فى ميدان ميخايلوفسكى كما قدّمنا ، وقام البوليس باتخاذ الاجراءات المعتادة للمحافظة على سلامة القيصر فزار الشوارع التى يمرّ بها الركب الملكى ، وكان ثمة فى شارع "ماليا سادوفيا" حانوت لبـان افتتح هنالك منذ ثلاثة أشهر يديره شخص يدعى كوبوزيف وزوجه ؛ وكان البوليس يشتبه فى أمر هذا الحانوت وأمر صاحبه ، فزاره فى عصر يوم السبت بحجة التفتيش الصحى فلم يجد فيـه ما يريب ؛ ولم يكن كوبوزيف فى الواقع سـوى عضو من أعضاء اللجنة التنفيذية وضعته اللجنة هنالك ليكون عونا لها على التنفيذ .

واعترمت اللجنة الثورية من جانبها أن تنتهز هذه الفرصة لتنفيذ قرارها باغتيال القيصر فغادرت بيروفسكايا مسكنها ، وذهب أسابيف الى حانوت كوبوزيف ليضع لغما قويا تحت شارع " مالياسا دوفيا " وانفق كالتشتش وهو عضو اللجنة المتخصص فى صنع القنابل ، طول الليل فى منزل فيرا فنجر مع جراتشفسكى و بيروفسكايا ، ولم يأت الصباح حتى تمّ صنع قنابل أربع حملها كالتشتش و بيروفسكايا . وفى صباح يوم الأحد أوّل مارس وزعت صـوفيا القنابل الأربع على أربعة من الشباب الفدائيين هم جرنفتسكى واملیانوف وميخايلوف وريساكوف وعمـره تسعة عشر عاما فقط ؛ وتفرّق الأربعة فى نقط أربع عينت فى خريطة التنفيذ حول منعطف نفسكى والطرق المفضية إليه . وفى الساعة الثانية بعد الظهر كان كل فى مكانه المعين ينتظر إشارة صوفيا ووقفت صوفيا مدى حين ترقب ميدان الاستعراض عن بعد . ولكنها ما لبثت أن علمت أن الركب الملكى لن يمرّ بالشارع الذى وضع فيه

القيصر اسكندر الثانى

اللغم، فسارت عندئذ صوب منعطف نفسكى فى اتجاه جرنفتسكى وأخرجت منديلها، ففطن الفتيان الى إشارتها وساروا تباعا صوب قناة سانت كاترين لمقابلة الركب الملكى، واستولى الفزع على أحدهم وهو ميخايلوف فانسل واختفى فى آخر لحظة، وبقى الثلاثة الآخرون يرقبون الإنذار الأخير.

وذهب القيصر الى ميدان الاستعراض نحو الظهر. ولما انتهى الاستعراض ذهب الى قصر ميخايلوفسكى القريب حيث تناول طعام الغذاء مع الجراندوقة كاترين ميخايلوفنا، وفى الساعة الثانية وبضع دقائق انتظم الركب الملكى للعودة، وأمر القيصر سائق مركبته أن يعود الى قصر الشتاء من نفس الطريق. وكان يحرس العربة الملكية ستة من الفرسان القوزاق، وتتبعها عربة أخرى يقف فيها مدير البوليس، ثم ثالثة بها ضباط الحاشية. وسار الركب مسرعا فى شارع انجزنايا، مجتنبا بذلك شارع ماليا سادوفيا

(الذى وضع به اللغم) ثم اتجه يمينا الى جسر قناة القديسة كاترين ، وكان المكان قفرا ليس فيه غير رجال الشرطة والمخبرين الذين ينتشرون على طول الطريق وسوى قليل من المارة .

بيد أن الركب ما كاد يقترب من جسر القناة حتى دوى انفجار هائل وانعقدت فوق الموكب سحابة من الدخان الكثيف ، وكانت هذه قنبلة ريساكوف انفجرت وراء العربة فأتلفت مؤخرتها ؛ وفى الحال أوقف السائق العربة ونزل القيصر منها سالما وكان قد سقط على مقربة منها قوزاق وثلاثة من الشرطة وغلام من المارة مصابين بجراح بالغة . وقاد رجال الشرطة صوب القيصر فتى عريض المحيا غائر العينين هو ريساكوف فسأل القيصر : أهو الفاعل ؟ وفى تلك اللحظة سأل أحد كبار الضباط : "هل جرح صاحب الجلالة ؟" فأجاب القيصر : "شكرا لله فإنى سليم معافى" وهنا قال ريساكوف "لا تعجل بشكر الله" . وسار القيصر ومن حوله الحاشية الى مكان الانفجار ليرى الجرحى ، ولكنه ما كاد يسير بضع خطوات حتى دوى انفجار آخر ، وانكشف الغبار والدخان عن منظر مروع :

سقط القيصر صريعا وقد كسر ساقاه ، وبقر بطنه ، واحترق وجهه ، ومن حوله عدّة من الجرحى . وفى الحال حمل القيصر مضرجا بدمائه الى قصر الشتاء ، ولكنه زهق بعد ذلك بقليل دون أن يعود الى رشاده أو يفوه ببنت شفة .

وعثر رجال البوليس بين الجرحى على الفتى الذى ألقى القنبلة الثانية ، وكان فى دور النزع وتوفى بعد ساعات قلائل دون أن يبوح باسمه للمحقق . ولكن البوليس وقف على اسمه بعد ذلك وقد كان اجناتوس جرنفتسكى الثورى البولونى وأحد الفدائيين الأربعة . أما الرابع وهو امليانوف فقد اختلط بالناس واستطاع الفرار .

واعترف ريساكوف بالقاء القنبلة الأولى ، وشرح للمحقق سيرته فذكر أنه طالب بمدرسة المناجم وعضو فى حزب " إرادة الشعب " وأنه يشتغل ببث الدعوة الثورية بين العمال ، وقدم بعض تفاصيل عن المؤامرة وتدبيرها ولكنه لم يعترف عن أحد زملائه . وفى ساعة متأخرة من الليل واجهه المحقق بجليابوف فحياه جليابوف بحرارة ، ولما علم بمقتل القيصر أبدى ابتهاجه ، وقال إنه وإن لم يشترك بنفسه فى تنفيذ الحادث بسبب اعتقاله فإنه يشترك فيه بكل قلبه ، وإنه اشترك فى عدة محاولات سابقة لاغتيال القيصر ، ولم يمنعه من الاشتراك فى قتله سوى مصادفة سخيفة ، ولذلك يطلب أن يحاكم مع ريساكوف وسوف يدلى للمحقق بكل ما يثبت مسئوليته .

ولم يمض يوم آخر حتى استطاع البوليس أن يظفر بآثار المرهبين . وفى مساء نفس اليوم هاجم مركزهم فى شارع تالينابا فانتحر صاحب الدار وهو ثورى يدعى سابلين قبل دخول البوليس ، وقبض البوليس على صاحبته المدعوة جسيا هلفمان وضبط لديها بعض القنابل ، وقبض فى صباح اليوم التالى على ميخايلوف ، ولاحظ البوليس فى الوقت نفسه أن حانوت اللبان فى شارع مالايا سادوفيا قد أغلق واختفى صاحباه ، ففتش الحانوت مرة أخرى فاكتشف فيه سردابا خفيا يصل حتى منتصف الشارع وقد وضع فيه لغم ثبت بسلك رفيع الى آلة كهربائية ؛ وفى يوم ١٠ مارس استطاع البوليس أن يقبض على صوفيا بيروفسكايا وكانت لا تزال مختفية فى العاصمة ترقب الحوادث ، فاعترفت فى الحال باشتراكها فى مقتل القيصر واشتراكها فى حادث القطار الملكى .

وهكذا استطاعت الشرطة أن تضع يدها على جميع الجناة ولم يفلت من يدها سوى أمليانوف الذى اختفى عقب الحادث ولم يعترف أحد عليه .

— ٣ —

وفى نفس اليوم الذى قبض فيه على صوفيا بيروفسكايا أعنى فى يوم ١٠ مارس سنة ١٨٨١، وجهت اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب الى القيصر الجديد — اسكندر الثالث — كتابا ضافيا تستهله بالاعتذار عن مخاطبته فى تلك الآونة الدقيقة . " إذ يوجد ما هو أسمى من أية عاطفة بشرية، وهو الواجب نحو الوطن " ثم تقول فيه :

" إن المأساة الدموية التى وقعت على جسر ترعة سانت كاترين لم تكن حادثا غامضا غير متوقع ، بل كانت بعد كل ما حدث فى الأعوام العشرة الأخيرة قضاء محتوما ، وهذا ما يجب أن يفهمه الرجل الذى ألقى إليه القدر مقاليد الحكم . ولقد نمت الحركة الثورية واشتد ساعدها بالرغم مما اتخذ من إجراءات القمع الذريع ، وبالرغم من أن حكومة القيصر الراحل قد ضحت حريات كل الطبقات ومصالحها ، ولم تدخروسعا فى إزهاق المجرم والبرىء ، وفى تعمير السجون النائية بالمعتقلين . ولقد شنق عشرات ممن يسمونهم بالمحرضين فماتوا فى هدوء الشهداء . ولم تقف الحركة الثورية بل استمرت قوتها فى ازدياد ، أجل يامولاى إن الحركة الثورية لا تتوقف على إرادة الفرد، بل هى عملية تقوم الأداة القومية، ولن تنجح المشانق التى تقام لصفوة قادة هذه الحركة فى إنقاذ النظام السياسى المحكوم عليه، كما أن صلب المسيح لم ينجح فى إنقاذ العالم القديم الفاسد من ظفر النصرانية المصلحة .

" ونحن أول من يعرف كم يحزن و يؤسى أن تبدّد هذه المواهب والعزائم كلها فى أعمال التخريب ، فهذه القوى يمكن فى ظروف أخرى أن تستخدم فى عمل الإنتاج : فى تربية الشعب وفى تثقيفه ، وفى زيادة رفاهته وتحسين نظمه ؛ فلماذا إذن نلجأ الى خوض هذا النضال الدموى ؟

" لأنه لا توجد لدينا يا مولاى حكومة بمعنى الكلمة ، وواجب

الحكومة هو أن تعبر عن أمانى الشعب وأن تمثل إرادته ، ولكن الحكومة عندنا قد انحطت الى عصابة قصر ، وغدت أحق من اللجنة التنفيذية بأن توصف بعصابة من الغاصبين " .

وتستعرض اللجنة بعد ذلك مثالب الحكم القيصرى و إمعانه فى استعباد الشعب وتسخيره، وما جلبته هذه السياسة على روسيا من الخراب والبؤس، وما يترتب عليها من فقدان الحكومة لكل نفوذ معنوى . وهذا هو السبب فى اضطرام الحركة الثورية ، بل هذا هو السبب فى ابتهاج الشعب لإزهاق القيصر ثم تقول :

" ولا مخرج لهذه الحالة سوى أمرين : فإما الثورة المحتومة التى لا يمكن أن يمنعها أى قمع ، و إما التوجه الى سلطة الأمة العليا ؛ و إن اللجنة التنفيذية لتنصح الى جلالتك باتباع الطريق الثانى ، ففى ذلك خير أمتنا وبه تجتنب المصائب المروعة التى تحملها الثورات . وثق بأنه متى عدلت السلطة العليا عن اتباع الهوى وقررت أن تستلهم فى عملها برغبات الأمة ، ففى وسعك أن تطرد الجواسيس الذين يلوثون الحكومة ، وأن تردّ حرسك الى ثكناته ، وأن تهدّ المشانق ؛ وسوف توقف اللجنة التنفيذية نضالها ، وتنفض القوى التى حولها ، لكى تعنى بالعمل الثقافى لخير الشعب . ونحن نؤمل ألا تطغى لديك عاطفة السخط الشخصى على الشعور بالواجب ، والرغبة فى تعرّف الحقيقة ، فنحن يحق لنا أن نشعر بالسخط أيضا ؛ واذا كنت قد فقدت أباك فقد فقدنا نحن أخوة ونساء و بنين وأصدقاء أعزاء ؛ ولكننا على أهبة لأن نخمد مشاعرنا الشخصية اذا اقتضى ذلك خير روسيا ، وننتظر منك أن تفعل مثلنا " .

" إن الشروط التى يجب تحقيقها لكى تترك الحركة الثورية المجال للعمل السلمى قد عينها التاريخ لا نحن ، وإنا لنذكرك بها فقط فهى :

(أولا) العفو العام عن الجرائم السياسية فهذه لم تكن جرائم ، بل هى أعمال يمليها الواجب الوطنى .

(ثانيا) استدعاء ممثلى الأمة الروسية لتعديل مناهج الحياة الاجتماعية والسياسية الحاضرة ، وصوغها وفقا لرغبات الشعب .

ثم تشير اللجنة الى الشروط التى يجب توافرها فى الانتخاب الحر ، ووجوب إطلاق حرية الصحافة والرأى والاجتماع ، وتختتم خطابها الى القيصر بما يأتى :

" هذه هى الوسيلة الوحيدة لتوجيه روسيا الى طريق التطور السلمى والنظامى ، و إنا لنعلن خاشعين أمام الوطن وأمام العالم أجمع أن حزبنا سيخضع من جانبه لقرار الجمعية الوطنية التى تنتخب طبقا للشروط المذكورة ، وأن لا يقوم بأى عمل عنيف لمعارضة الحكومة التى تستند الى ثقة الجمعية الوطنية .

" والآن فقرر لنفسك يا مولاى . أمامك طريقان ولك الخيار . و إنا لا يسعنا إلا أن نرجو القدر أن يملى عليك عقلك وضميرك الحل الوحيد الذى يقتضيه خير روسيا وتقتضيه كرامتك الشخصية وواجبك أمام الوطن — ١٠ مارس سنة ١٨٨١ " .

* * *

تلك هى الوثيقة التاريخية المؤثرة التى وجهتها اللجنة التنفيذية الى القيصر الجديد ، ولكنها لم تحدث أثرا . ولم تكن الدوائر القيصرية تفكر فى النزول عند نذير المرهبين ولما يجف دم الجريمة الرنانة التى كانت فى الواقع ذروة الإرهاب السياسى ؛ ومن ثم فقد ردّت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمع والإمعان فى مطاردة المرهبين والثوريين ، وقبض خلال شهر مارس فى بطرسبرج على عشرات منهم ؛ ولكن لم يقدّم فى النهاية الى المحاكمة القضائية سوى ستة ، هم اندرى جليابوف وصوفيا بيروفسكايا ونيكولا كالنشتش

وجسيا هلفمان وتيموتى ميخايلوف ونيكولا ريساكوف . و بدأت المحاكمة فى ٢٦ مارس سنة ١٨٨١ أمام محكمة عليا ألفت من ستة من الشيوخ وعضوين يمثلان النبلاء هما الكونت بوبرنسكى والبارون كورف، وممثل للتجار، وممثل للفلاحين، وعمدة موسكو، وممثل لبطرسبرج؛ وتولى الرياسة الشيخ فوكس، وتولى إجراءات الاتهام النائب مورافييف الذى غدا فيما بعد وزيرا للعدل .

وكان أهم المتهمين فى تلك القضية الشهيرة هما بلا ريب جليابوف وصوفيا بيروفسكايا عضوا اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب، وهما فى الواقع مدبرا الجريمة و رأسا الحركة الإرهابية يومئذ ؛ وكان جليابوف من أقطاب حزب إرادة الشعب وأعظمهم نفوذا، وكان يومئذ فتى فى الثلاثين من عمره؛ وكان مولده فى أسرة من الأرقاء، ولكن الرقيق حرر وهو طفل فتفتحت أمامه آفاق جديدة ، وتلقى تربية حسنة وتخرج من مدرسة الحقوق فى أودسا، وشغف منذ حداثته بالأدب الثورى والنظريات الاشتراكية والتحريرية، ولم يلبث أن لفت أنظار السلطات، واعتبر فى سلك المحرضين الخطرين ونفى من أودسا . فذهب الى كييف وهنالك اتصل بأسرة غنية كان يعطى لولدها درسا وتزوج من ابنتها "أولجا" وعاش حينا فى هدوء وعزلة، ولكنه لبث مع ذلك متصلا بالأوساط الثورية؛ ولما اضطرمت الحركة الثورية فى سنة ١٨٧٤ ونزل الى ميدانها ألوف من الفتية والفتيات الذين ألهبت عقولهم وأرواحهم النظريات التحريرية الحديثة ، نظمت القيصرية من جانبها حملة القمع الذريع، وقبض على ألوف من الدعاة والمحرضين، وعقدت المحاكمات الزنانة تباعا ، وكان منها المحاكمة الشهيرة التى عقدت فى بطرسبرج سنة ١٨٧٧ وقدم فيها الى المحكمة ١٩٣ متهما بينهم جليابوف و بيروفسكايا؛ ولكن جليابوف برىء، وما كان يغادر سجنه حتى اجتمع مع أقطاب زملائه وأسسوا حزب «إرادة الشعب» وقرر الحزب أن يلجأ الى سلاح الإرهاب

السياسى . وفى أغسطس سنة ١٨٧٩ قررت اللجنة التنفيذية إعدام القيصر اسكندر الثانى حسبما قدمنا ، ودبرت لذلك عدة محاولات متوالية، ولكنها أخفقت . وكان جليابوف رأس اللجنة المدبر، وكان يوجه الحزب بنفوذه القوى الى ميدان النضال العنيف، وكان شجاعا قوى العزم والإرادة لا يحجم عن شىء . وكان وقت المحاكمة كما قدمنا فتى فى الثلاثين من عمره ، مديد القامة، قوى البنية، وسيم الطلعة، حلو الحديث، يميل الى الدعابة، ويتدفق حين الجدل فصاحة و بيانا .

وكانت صوفيا بيروفسكايا تنتمى الى أسرة عريقة شغل كثير من أعضائها مراكز كبيرة فى الدولة ؛ وكان والدها حاكما لمقاطعة بطرسبرج ، ولكنها آثرت منذ حداثتها حياة الحرية والمغامرة ، فغادرت منزل الأسرة الى العاصمة وتلقت تربيتها فى إحدى مدارس المعلمات ، ثم عينت بعد ذلك معلمة فى إحدى مدارس الأقاليم ، ولكنها لم تجنح الى السكينة والعزلة بل اتصلت بالحركة الثورية، وقبض عليها لأول مرة بتهمة التحريض وهى دون العشرين . ولما أفرج عنها اشتغلت مدى حين ممرضة فى أحد المستشفيات ثم قبض عليها مرة أخرى فى قضية بطرسبرج الكبرى مع جليابوف وزملائه فبرئت، ولكنها نفيت الى إحدى المقاطعات الشمالية . بيد أنها تمكنت من الفرار وعادت الى العاصمة حيث التحقت عضوا بحزب « إرادة الشعب » . وكانت حينما قبض عليها فى مارس سنة ١٨٨١ فى السابعة والعشرين من عمرها، ولكنها كانت تبدو بنظراتها الساحرة، وعينيها الخضراوين، ومحياها الوسيم أصغر بكثير من عمرها . وكانت صوفيا تحب جليابوف حبا جما ، وتترسم خطاه ومغامراته بعزم مدهش، وكان هذا حبها الأول والأخير، وكان جليابوف يبادلها هذا الحب المضطرم ، وكانا يعيشان معا فى أفق ساحر من الجوى والمثل الثورية .

أما عن باقى المتهمين فكان كالتشتش مهندسا فى نحو الثلاثين من عمره، وكان ميخايلوف عاملا فتى من عمال المعادن ، وكانت جسيا هلفمان فتاة من أسرة متوسطة تخرجت فى مدرسة القابلات، ولم تكن حسناء ولكنها كانت مخلصة مطبوعة ، وكان تعمل فى مطبعة اللجنة السرية، وتدير المنزل الذى يجتمع فيه الأعضاء .

بقى ريساكوف، وقد كان فتى حدثا فى التاسعة عشرة ينتمى الى أصل متواضع ؛ وكان وقت القبض عليه طالبا بمدرسة المناجم يعنى ببث المبادئ الثورية بين العمال، وكان أهم متهم فى القضية بعد جليابوف وصوفيا، بل كان مفتاح القضية فى الواقع؛ ذلك أنه قبض عليه متلبسا بجريمته على أثر إلقائه القنبلة الأولى على موكب القيصر، وقد رأى فيه النائب المحقق دبرجنسكى منذ الساعة الأولى فريسة سهلة ، فمال عليه بالإغراء والألفاظ المعسولة، واستطاع أن يحمله على الاعتراف بكثير من الوقائع والمعلومات الهامة المتعلقة بالجريمة وحزب إرادة الشعب؛ وكان ريساكوف فتى هائم الذهن، مضطرب الأعصاب، فكان تارة يدون اعترافاته للمحقق وتارة يحاول تأييد مسلكه؛ وقد نشرت أقواله فيما بعد فى كتيب صغير ضمن ما نشر من وثائق هذا العهد ، وهى أقوال روح فتى هائم يتخبط بين الرغبة فى التمسك بمبادئه ومثله ، وبين الروع الذى يثيره فيه شبح الموت ؛ ويقص ريساكوف فى مذكراته كيف كانت مشاعره الحساسة التى شحذتها طفولة بائسة تتأثر أيما تأثر بما يراه بين الفلاحين والعمال من مناظر البؤس المطبق ، وكيف ترك لقاءه الأول لجليابوف فى نفسه أعظم أثر ، وكيف أذكى جليابوف فى نفسه عاطفة الكفاح ، فانضم الى جماعة المرهبين ، وارتكب جريمته على أنها عمل مجيد .

— ٤ —

ودام التحقيق زهاء ثلاثة أسابيع ؛ وفى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٨١ بدأت المحاكمة الشهيرة أمام المحكمة العليا التى ألفت على النحو الذى قدمنا وتولى رآستها الشيخ (السناتور) فوكس ، وتولى مهمة الاتهام مورافييف ، واعترف جميع المتهمين بانتمائهم الى حزب ارادة الشعب واشتراكهم فى تدبير المؤامرة وتنفيذها ، ما عدا جسيا فانها أنكرت قيامها بأى عمل ايجابى ، وميخايلوف فانه اعترف بانتمائه الى فرقة المرهبين ، ولكنه أنكر اشتراكه فى تنفيذ الجريمة .

وكان اعتراف جليابوف بالأخص رنانا مؤثرا ؛ فذكر أنه عضو فى اللجنة التنفيذية وأنه انضم الى الحزب نزولا على ايمانه وعقيدته ، وأنه وهب حياته منذ أعوام لخدمة قضية الحرية ، ثم قص فى بلاغة وقوة على المحكمة تاريخ أعمال اللجنة التنفيذية وما دبرته من مختلف المشاريع لإزهاق القيصر ، واعترف بأنه هو الذى دبر مؤامرة أول مارس ، وأنه هو الذى اختار المنفذين لها من بين المتطوعين الفدائيين ، ولكنه حاول جهده أن يبرئ ميخايلوف من تهمة الاشتراك .

وسمعت المحكمة عدة شهود من الشرطة وحجاب المنازل التى كان يتردد عليها المتهمون ، وعددا كبيرا من الضباط والمخبرين الذين شهدوا مصرع القيصر ، وبعض زملاء ريساكوف وأساتذته ، فنوهوا جميعا بذكائه ورقة خلاله . وسمعت تقارير الخبراء عن خواص القنابل والمفرقعات التى استعملت فى الجريمة ، ووقفت المحكمة بذلك على كثير من تفاصيل الحادث وسير الحركة الثورية .

وألقى النائب موارفييف ممثل الإتهام مرافعة قوية عنيفة ، فقدم المتهمين فى صورة مجرمين من أروع طراز ، وأبالسة من البشر ظمئين الى الدم ،

وحمل على الحركة الثورية وعلى مثلها ودعاتها بشدة، وقال إن هؤلاء القتلة لا محل لهم بين مخلوقات الله، وإنهم من عناصر الهدم والفوضى يعبدون طريقهم بالقتل، وإن الوطن الروسى الذى خضبوه بدم القيصر الثمين قد عانى كثيرا من أعمالهم، فعلى روسيا أن تصدر حكمها عليهم فى شخص هذه المحكمة، وليكن مصرع أعظم الملوك خاتمة حياتهم الإجرامية.

ثم جاء دور الدفاع وكان مهمة شاقة أمام هذا القضاء المسير، وهذه المحكمة التى عقدت لأداء مهمة معينة. وكان شاقا بالأخص أمام اعتراف المتهمين الشامل، ولم يكن للبواعث المعنوية والمثل العليا اعتبار فى هذا الجو الخانق. ومع ذلك فقد قام الدفاع بمهمته التقليدية، فتولى الأستاذ أونوفسكى الدفاع عن ريساكوف وصور للمحكمة عقليته الفتية الساذجة ورجا المحكمة أن تراعى فى تقديرها لجرمه، حداثة سنه واضطراب أعصابه. ودافع الأستاذ خارتولارى عن ميخايلوف ففند أدلة اتهامه، وبين أنها فيما عدا أقوال ريساكوف، لا تنهض دليلا على اشتراكه، وأن ريساكوف لم يكن متزنا ولا متفقا فى أقواله. ودافع الأستاذ جركى عن جسيا هلفمان وبين أنها لم تقم قط بأى دور إيجابى فى هذه المحاولات الإجرامية، وأن كل ما قامت به هو أنها كانت تؤجر المكان الذى اعتاد المتهمون أن يعقدوا فيه اجتماعاتهم. ودافع الأستاذ جيرادى عن كالنشتش وشرح للمحكمة العوامل والظروف القاسية التى دفعته الى سبيل الإجرام.

وتولى الأستاذ كدرين الدفاع عن صوفيا بيروفسكايا، وكانت مهمة فادحة لا تبعث الى شىء من الأمل، فقد لبثت صوفيا حتى آخر لحظة متمسكة باعترافاتها، واضطر الأستاذ كدرين أن يلجأ فى دفاعه الى ضروب من البلاغة المؤثرة، فصور صوفيا فتاة وديعة هادئة تجيش بأعظم حب لوطنها، وتعتقد بإيمان راسخ أن المثل الثورية هى سبيله الوحيد الى الخلاص

والمجد، واستعرض نشأتها النبيلة ، وحياتها المضطربة، ومثلها العليا؛ وبين أنها لم تنزلق الى الجريمة إلا مدفوعة بحبها للوطن .

أما جليابوف فقد آثر أن يتولى بنفسه الدفاع عن نفسه . وكان دفاعا رنانا تردّد صداه خارج روسيا، ووصفه مكاتب « التيمس » فى بطرسبرج بأنه أعظم ظاهرة فى القضية . وكان جليابوف يتدفق منطقا وبيانا، وكانت أقواله محاضرة فلسفية وسياسية مؤثرة، واستهل جليابوف دفاعه بقوله : إن المبادئ بالنسبة لأولى المبادئ أثمن لديهم من الحياة، وفند مطاعن النائب العام فى مبادئ حزب إرادة الشعب، وبسط مثل الحركة الثورية وغاياتها . ثم عطف على الوسائل العنيفة التى تلجأ إليها الحركة الثورية ، فذكر أنها ليست إلا مهمة من المهام العديدة التى يتطلبها تطوّر روسيا ، وأنه يجب لكى تفهم غايات الحزب ووسائله أن يدرس ماضى هذا الحزب، وهو ماضى قصير ولكنه حافل بالتجارب . وسترى المحكمة متى استعرضت كتاب حياته المفتوح أن أصدقاء الشعب الروسى لن يعمدوا دائما الى إلقاء القنابل، وأننا قد عرفنا خلال نشاطنا أحلام الشباب الوردية ، وأنه ليس خطأنا أن يكون هذا العهد قد انقضى .

« وأن حياتنا القصيرة التى قضيناها بين الشعب قد كشفت لنا عن حقيقة آرائه وآماله ، وعرفنا من جهة أخرى أن هنالك فى ضمير الشعب كثيرا من العناصر التى يجب تأييدها . وقد عوّلنا على أن نعمل باسم المصالح التى أخذ الشعب يشعر بها، وليس باسم النظريات الخالصة . وقد رأينا سبيلنا العملية الى ذلك أن ندبر مؤامرة لإحداث انقلاب حكومى، ونظمنا لذلك القوى الثورية أتم تنظيم؛ وقد كانت مهمتى الشخصية ومقصد حياتى أن أخدم الصالح العام ، وعملت لذلك طويلا بالوسائل السلمية ولكنى أيقنت فى النهاية أن الالتجاء الى العنف أمر محتوم » .

* * *

وكانت مرافعة جليابوف عن نفسة خاتمة المناظر العاصفة فى تلك القضية الشهيرة . وكان هذا الزعيم الثورى المضطرم حسبما يصفه مكاتب التيمس ، يحدج قضاته بنظرات ملتهبة كأنها نظرات وحش يطارد، وكانت ألفاظه وعباراته الرنانة تحدث أثرها فى المحكمة والنظارة ؛ وكلما ضجت الجلسة ألقى على الجمهور نظرته الملتهبة حتى يعود الى سكينته . ولما انتهى من مرافعته ، أذنت المحكمة للمتهمين تباعا بأن يقول كل منهم كلماته الأخيرة . فكرر كالتشتش أقواله عن نيات حزبه السلمية، وأنهم لم يسفكوا الدم رغبة فى السفك ، ونوه بأنه قد اخترع جهازا للطيران يرجو أن ينسب له بعد موته إذا أخرج الى حيز التطبيق . ونفت صوفيا عن نفسها ما اتهمها به النائب من القسوة وفساد الخلق واحتقار الرأى العام . وحاول ريساكوف أن يكرر نظرياته السياسية ؛ وأصر ميخايلوف على نفى اشتراكه فى الجريمة .

وبذا اختتمت المرافعات فى هذه القضية الشهيرة ولم تستغرق فى الواقع سوى ثلاثة أيام . وفى صباح يوم ٢٩ مارس أصدرت المحكمة حكمها وهو يقضى باعدام المتهمين الستة شنقا . فاستقبل المتهمون مصيرهم فى سكينة وثبات . وهل كانوا يتوقعون مصيرا آخر؟ إن الحكم بالإعدام كان قاعدة مقررة فى جميع الجرائم السياسية التى جرت فى الفترة الأخيرة، ولم يفلت من هذا المصير المروع سوى قلائل من الثوريين الذين اشتروا حياتهم بالاندماج فى سلك البوليس السياسى؛ ولم يطعن أحد من الستة المحكوم عليهم فى الحكم بطريق النقض، ولكن ريساكوف وميخايلوف رفعا التماسا بالعفو لم تر المحكمة أن تراجع القيصر فى شأنه ؛ وحاول ريساكوف ليلة التنفيذ أن يلجأ الى الخطوة الأخيرة فعرض أن يندمج فى البوليس السياسى ، وأن يفتدى حياته

بالعمل على مقاومة الإرهاب والمرهبين ، وأفضى بأسماء وبيانات جديدة عن الثوريين ونظم الحركة الثورية، فلم يقبل طلبه وخاب مسعاه .

وقدمت جسيا هلفمان الى المحكمة بلاغا قالت فيه إنها حامل لأربعة أشهر، وطلبت إرجاء التنفيذ حتى تضع حملها؛ فانتدبت لفحصها لجنة طبية أيدت دعواها، فقررت المحكمة أن ترجئ التنفيذ حتى تضع حملها ويمضى على وضعها أربعون يوما .

* * *

وكان التنفيذ فى اليوم الثالث من أبريل سنة ١٨٨١ ، ففى نحو الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم حمل المتهمون الخمسة على عربتين عاليتين الى ميدان سيمونفسكى حيث نصبت المشنقة، وكانت والدة صوفيا قد سعت الى رؤيتها فلم توفق الى ذلك إلا عند خروج الموكب من السجن . وكان المتهمون قد ألبسوا أردية سوداء، وأوثق كل منهم فى مكانه فى العربة، وظهره الى الخيل وقد وضعت على صدره لوحة كتب عليها بحروف بيضاء ظاهرة: "قاتل الملك" وكان يتبع المحكوم عليهم عربة بها خمسة قسس؛ وكان الموكب رهيبا يحف به حرس قوى من الفرسان والمشاة، وقد اصطف الجند على طول الطريق من السجن حتى ميدان التنفيذ . وكان الميدان غاصا بعشرات الألوف من النظارة إذ كان تنفيذ الإعدام يجرى فى ذلك العصر بطريقة علنية ؛ وكان الشعب يهرع دائما الى رؤية هذه المناظر المؤسية . وفى نحو الساعة التاسعة وصل موكب المحكوم عليهم الى ساحة التنفيذ فأنزلوا من العربات، وتلا عليهم سكرتير مجلس الشيوخ الحكم، ثم قرعت الطبول إيذانا بالاجراءات الأخيرة فكشف النظارة رؤوسهم ، وتقدم القسس من المحكوم عليهم وفى يدهم الصلبان فقبلوها، وأبدى المحكوم عليهم فى تلك اللحظات الرهيبة ثباتا يثير الإعجاب

والخشوع ، إلا ريساكوف فانه كان مضطربا ممتقع اللون ؛ وبعد اجراء المراسيم الدينية قبل كل صاحبه وودعه الوداع الأخير .

وقبل الساعة العاشرة بقليل تقدم الجلاد فرولوف بثوبه الأحمر الى فرائسه يحيط به معاونوه فألبس المحكوم عليهم الأكفان والقلنسوات . وبدئ التنفيذ باعدام كالتشتش ثم ميخايلوف فصوفيا بخليابوف فريساكوف ؛ وحدث حين إعدام ميخايلوف أن قطع حبله وسقط على النطع ثلاث مرات قبل أن يزهق ، فثار الجمهور لهذا المنظر المروع ، وعلت غمغمة السخط والروع . ولكن الجلاد أتم مهمته بهدوء ولم يحدث حادث . وكان هذا آخر إعدام علنى فى روسيا القيصرية . وكان له فى الرأى العام أيما أثر . ووجه كاتب روسيا الأكبر يومئذ الكونت ليون تولستوى الى القيصر اسكندر الثالث خطاب احتجاج على هذه الفظائع المثيرة .

وأما جسيا هلفمان فكان لها قصة أليمة أخرى ؛ ذلك أن حزب إرادة الشعب لجأ الى الرأى العام الخارجى ليحاول إنقاذ هذه الفتاة المنكودة من براثن الموت ، وأذاع شاعر فرنسا وكاتبها الأكبر يومئذ فكتور هوجو فى الصحف الفرنسية خطابا مفتوحا الى القيصر يناشده فيه الرأفة بالأم الفتية ؛ وردّدت صحافات القارة هذا النداء . وفى الثالث من يوليه سنة ١٨٨١ عدّلت عقوبة الاعدام الى الأشغال الشاقة المؤبدة . وفى شهر سبتمبر نقلت جسيا الى مستشفى السجن ووضعت طفلة لم يعرف مصيرها . وتوفيت الأم بعد ذلك بأشهر قلائل فى فبراير سنة ١٨٨٢ من جراح اصابتها وقت الوضع وقيل إنها أحدثت فيها عمدا .

* * *

هذه صفحة مؤسية مروعة معا من صحف الثورة على الطغيان ؛ وقد كانت النهليستية بلا ريب من أعظم الحركات التحريرية العنيفة التى عرفها

التاريخ، وكانت من أحفلها بمواطن النضال الدموية؛ وكانت القيصرية من جانبها من أشدّ النظم الطاغية إمعانا فى القسوة والعنف وإخماد النزعات الحرّة. وكان هذا النضال الذى يخضب أرض روسيا بدماء الفريقين، ويدفع بآلاف من الشباب المستنير الى ظلمات السجن والنفى، مسأله حياة أو موت للقيصرية ولروسيا الجديدة معا؛ وقد سار هذا النضال حينا بعد مصرع اسكندر الثانى ومصرع قاتليه. ولكن القيصرية ضاعفت أهباتها ووسائلها لقمع الإرهاب. ومع أن المرهبين استطاعوا أن ينزلوا بالقيصرية وأعوانها عدّة ضربات أخرى، وأن يدبروا اعتداءين جديدين على حياة القيصر، فان القيصرية استطاعت بوسائلها الذريعة أن تمزق شمل الحركة الثورية؛ وركدت ريح النهليستيه فى أواخر القرن الماضى بعد أن هلكت زهرة دعاتها وأنصارها، ثم استعادت شيئا من نشاطها فى أوائل هذا القرن؛ ولكن القيصرية استطاعت من جانبها أن تجتنب العاصفة بتحقيق بعض الاصلاحات الدستورية المنشودة، واصدار الدستور الروسى الجديد سنة ١٩٠٦؛ على أن المثل الثورية التى بعثتها النهليستية فى روسيا الجديدة لم تخمد جذوتها بل لبثت على اضطرامها حتى مهدت الحرب الكبرى أخيرا لانفجارها الرائع فى سنة ١٩١٧؛ وعندئذ لم تقف العاصفة عند سحق القيصرية وكل نظمها القديمة، بل دكت نظم المجتمع الروسى القديم كله؛ وقامت البلشفية على أنقاضه تطمح الى اضرام نار الثورة العالمية وتحقيق مثل ماركس ولنين.

كانت النهليستية حركة فريدة بين الحركات التحريرية. وكانت وسائلها العنيفة من طراز لم يعهد التاريخ كثيرا من أمثاله؛ ذلك أنها جعلت من المثل الثورية دينا تدين به الشبيبة المستنيرة ينبث الى أعمق عقولها وأرواحها، وجعلت من الحرية هيكلا مقدسا تتفانى هذه الشبيبة فى الج إليه، وتسقط فى سبيله صرعى لا تلوى على شىء إلا أن تموت فى سبيل العقيدة الجديدة.

وقد كانت ضحايا النهليستية عظيمة فادحة؛ ومن الصعب أن نقدّم عن هذه الضحايا بيانا شافيا لأن الأساليب الهمجية والوسائل السرية التى كانت تتبعها القيصرية فى مقاومة الحركة كانت تحصد المئات والألوف فى خفاء وصمت، يهلكون ألوفا فى أعماق السجون أو فى معسكرات الاعتقال النائية فى أعماق سيبريا، هذا عدا من حصدتهم المشانق وهم وحدهم ألوف؛ وليس من المبالغة أن نقول إن المناظر الدموية التى يقدّمها الينا كفاح النهليستية، تفوق فى روعتها مناظر عصر الإرهاب إبان الثورة الفرنسية؛ ذلك أن الثورة الفرنسية كانت بالرغم من اضطرامها وعنفها قصيرة الأجل محدودة المدى، وكانت آثارها المعنوية تفوق أحداثها المادية بكثير. أما الثورة النهليستية فقد استطالت نحو أربعين عاما، تضطرم آنا وتخبو آنا، ولكنها لبثت دائما تلتهم فرائسها من الجانبين. هذا الى أن نزعة الكفاح فى الحركة الثورية الروسية كانت أعرق أصولا وأبعد مدى. وبينما نرى الثورة الفرنسية تستسلم بعد أعوام قلائل الى الحركة العسكرية الرجعية وتغدو أداة ذلولا فى يد جندى طموح هو نابليون، إذا بالحركة الثورية الروسية تمضى فى طريقها برغم كل مقاومة حتى تفوز بتحقيق كل مثلها وغاياتها. بيد أنه كان ظفرا سلبيا فقط، وكان ظفرا قصير المدى؛ فقد مهدت الحركة النهليستية كما قدمنا الى الانقلاب العظيم الذى درج زعماؤه وقادته فى غمارها، وتغذت عقولهم وأرواحهم بتعاليمها ومثلها، وكان ظفر الثورة البلشفية كاملا شاملا، ولكنه لم يكن من النوع السمح الذى كانت تنشده الثورة النهليستية الفتية. أجل سقطت القيصرية صرعى المثل الجديدة، وأعلنت سيادة الكتلة العاملة بصورة رنانة، ولكنها كانت "سيادة الطوائف" ونودى بالحقوق والحريات العامة ولكن بصورة نظرية. واستطاعت الثورة الجديدة أن تحتفظ بوحدتها الظافرة مدى حين كان شعارها فيه مكافحة الخطر الخارجى؛ ولكن سرعان ما دب اليها التفرق، ورأت أن تسلك سبيلا جديدا.

ومع أنها استطاعت أن تسيطر على أقدار العالم الروسى القديم كله ، فانها لم تجعل شعارها سيادة الشعب الحقيقية ، ولم تؤمن بأن الأمة مصدر السلطات . على أنه مهما كانت سمة هذه الثورة الفريدة فى نوعها ، فقد أثبتت فى نهاية الأمر متانتها وحيويتها المدهشة فى ذلك الصراع الهائل الذى تخوضه للذود عن حياة روسيا وحرياتها أمام الغزو الألمانى البربرى . ولا ريب أن ظفرها فى هذا الصراع المميت هو أعظم ما حققته الأمة الروسية فى جميع أدوار تاريخها (١) .

---

(١) رجعنا فى كتابة هذا البحث الى : Rambaud: Histoire de la Russie ، ودائرة المعارف الفرنسية و V. Soukhomline; Procès Célèbres de la Russie والى كتابنا " تاريخ الجمعيات السرية " .

الفصل الثانى

القيصرة اليزابيت

١٨٣٧ – ١٨٩٨

كانت حياة القيصرة اليزابيت امبراطورة النمسا والمجر مزيجا مؤثرا من الروعة الملوكية والآلام النفيسة، بدأت ساطعة تحفها هالة من الجمال والمجد، ولكن تغشاها سحب الأشجان والكدر، التى كانت تظل بلاط آل هبسبورج فى أواخر القرن الماضى ؛ ثم انحدرت تباعا الى معترك الأحزان والمحن واختتمت بموت عنيف مؤسى .

وكانت هذه الأميرة البارعة فى الخلال والحسن ، ابنة للدوق ماكس الباڤارى سليل آل ڤتلباخ؛ وهم أسرة باڤاريه ملوكية؛ وأمها لويزا ولهلمينا ابنة مكسمليان الأول ملك باڤاريا ؛ ولدت فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٧ ، وقضت طفولة سعيدة ناعمة ؛ وكانت تنفق الشتاء فى قصر الأسرة بميونخ والصيف فى حديقة بوسنهوفن الساحرة على ضفاف بحيرة شتاربرجر؛ وعنيت والدتها بتنشئتها منذ الحداثة فى الآفاق الطلقة؛ وأطلقت لها العنان فى الطبيعة الحرة، تركب الخيل وتخوض الرياضات الشاقة؛ وتأثرت اليزابيت فى نفس الوقت بنفسية والدها وعواطفه أيما تأثير، فورثت عنه النزعة الحرة وحب الفنون ، وكانت ذهنا هائما يفيض بالأحلام والمثل ، تقرض الشعر الفتى الساذج وتجيد الرسم، بيد أنها لم تكن فى طفولتها تؤذن من حيث التكوين والمحيا بأن تبدو بذلك الجمال الرائع الذى بدت به فيما بعد فى مطلع شبابها .

وقد شاء القدر أن تجلس اليزابيت غير بعيد على عرش من أعظم وأعرق العروش الأوربية ، هو عرش آل هبسبورج، وذلك بزواجها من القيصر

فرانزيوسف إمبراطور النمسا والمجر فى سنة ١٨٥٤ ؛ ولهذا الزواج قصة طريفة ، ففى صيف العام السابق التقى القيصر فرانزيوسف ووالدته الارشيدوقة صوفى فى مصيف إيشل بخالته الأميرة لويزا ولهلمينا ، وابنتيها اليزابيت (أوسيسى وهو اسمها المدلل) وهيلين (أونينى) وكان المفهوم بين الأختين أن فرانزسيقترن بهيلين كبرى الأختين ، ولكن القيصر سحرته خلال "سيسى" وجمالها ؛ ولم تكن اليزابيت يومئذ قد جاوزت ربيعها السادس عشر ، ولكن جمالها الرائع غدا يأخذ بالألباب وكانت توصف يومئذ بأنها أجمل أميرة أوربية . وهكذا آثرها القيصر الفتى على أختها الكبرى هيلين ، وتمت الخطبة فى إيشل فى ١٨ أغسطس ، وهو عيد ميلاد القيصر وتم الزواج فى ٢٤ أبريل من العام التالى (١٨٥٤) وغدت "سيسى" قيصرة (إمبراطورة) النمسا والمجر .

وبدأ الزواج سعيدا فى ظل الحب والوئام ، ولكن هذه السعادة لم يطل أمدها . بل إن مأساة القيصرة الفتية لتبدأ فى الواقع بهذا الزواج . ذلك أنه ما كادت تنتهى غمرة السعادة الأولى حتى بدأ التنافر بين الزوجين قويا فى الطباع والخلال ؛ وكان القيصر محافظا بطبيعته وتقاليد أسرته ، وكانت القيصرة تجنح الى الحرية التى أشربت حبها منذ الحداثة ، وتميل الى الصيد والفروسة والرياضات الشاقة ، ولكنها ألفت كل شىء فى حياة شونبرون (القصر الامبراطورى) على غير ما ألفت وغير ما تهوى ؛ ألفت جوا صارما من العزلة والتحفظ ، ومجانبة كل ما هو ممتع وبهيج ؛ ولم يكن يروقها ذلك التحفظ الصارم الذى يسود البلاط والمجتمع الفينى الرفيع ، فكانت تجانب الحياة والحفلات العامة ما استطاعت ، وكان البلاط يأخذ عليها هذا المسلك ، وتسوءه محاولتها للخروج على رسومه ؛ وكذلك كان المجتمع الفينى يمتعض لسلوكها ونأيها ؛ وكانت خالتها الأرشيدوقه صوفى والدة القيصر امرأة صارمة الطبع ،

رجعية التفكير والميول، تشدد فى الاعتراض على ميولها وأهوائها، وتحاول دائما أن تخضعها لرسوم البلاط و واجباب العرش بأساليب جافة؛ وكانت القيصرة الشابة تثور لهذا المسلك الخشن، خصوصا وقد كان القيصر بالرغم من حبه لها يخذلها فى معظم الأحيان، وينزل عند رأى والدته ووحيها.

عاشت القيصرة اليزابيت أعواما طويلة فى ظل هذا الجو الخانق، وتلك الرقابة الصارمة، تؤثر السكينة والعزلة؛ بيد أنها لم تترك مزاولة رياضتها المحبوبة: الصيد وركوب الخيل، محافظة على صحتها وروائها، وكانت تفرط فى ذلك أحيانا؛ وكانت تدخن "السيكار" حتى لقد أنشأت بذلك تقليدا ذاع بين سيدات الاستقراطية الفينية؛ وكانت هذه النزعة الى الاستقلال والحرية تذكى اعتراض الفريق المحافظ من البلاط وخصومته، وكان لهذا الصدام المستمر فى نفس اليزابيت وقع عميق استحال فيما بعد الى نوع من البغض لهذه الحياة النكدة. كانت القيصرة الشابة فى الواقع تعيش فى عالم آخر غير عالم قصرها المصفد "وكان تصويرها للحياة كأنها حلم بديع لعالم لاحزن فيه ولا اكراه، ومن ثم فقد كانت حياة القصر فى نظرها حياة رق، وكانت واجبات العرش نوعا من الاستشهاد، ولم تكن قد أعدت للاضطلاع بأعباء هذا المركز السامى الذى دعيت الى تبوئه فيما بعد": هكذا تصف لنا الأميرة ستيفانى ولية العهد فيما بعد فى مذكراتها حياة القيصرة اليزابيت.

— ٢ —

فى ٢١ اغسطس سنة ١٨٥٧ وقع فى البلاط النمسوى حادث سعيد خطير معا، هو مولد ولى العهد الأرشيدوق رودلف. وكانت القيصرة اليزابيت قد رزقت قبل مولده بابنتين توفيت أولاهما فى المهد، وولدت الثانية وهى الأرشيدوقة جزيلا سنة ١٨٥٦، وتزوجت فيما بعد بالأمير

ليو بولد الباڤارى ؛ ورزقت اليزابيت بعد ذلك بابنة ثالثة هى مارى ڤاليرى التى ولدت سنة ١٨٦٨ وتزوجت فيما بعد بالأرشيدوق فرانز سلڤاتور .

كان مولد رودلف فون هبسبورج بالنسبة للامبراطورية حادثا بعيد الأهمية والمدى ؛ ذلك أن العرش كان دائما أوثق الروابط بين عناصرها المتنافرة، وكان ولى العهد معقد آمال العرش والأسرة . ولكن هذا الحادث الذى كان خليقا بأن يوطد نفوذ القيصرة اليزابيت فى الأسرة والبلاط، لم يحدث أثره المنشود ، ولبث الخلاف الداخلى القديم على حاله بين القيصرة الشابة وبين الأرشيدوقة صوفى والدة القيصر؛ وقد كانت تزداد على كر الأعوام صرامة وجفاء، وتعتقد دائما أن مسلك القيصرة وميولها الحرة خطر على مصالح العرش والأمبراطورية ، وكان هذا الخلاف فى التفكير والميول يتعدى أثره الى ولى العهد رودلف وتربيته ؛ وكانت القيصرة تخشى دائما أن تجنى تقاليد البلاط العتيقة على صحة ولدها وعقليته؛ وراعها فى الواقع ما آلت اليه حالة الأمير الطفل حينما بلغ السابعة من عمره فأرسلت من غرفتها بالقصر « بلاغا نهائيا » الى القيصر تنذره فيه بأنها ستعنى بتربية ولى العهد بنفسها وتحت مسئوليتها ، وسلم لها القيصر يومئذ بما أرادت . وكان لها أعظم الأثر فى تكوين نفس رودلف وعقليته، فنشأ كأمه حر التفكير والنزعة فى الحياة الخاصة والعامة، يعشق الرياضات الشاقة، ويرغب عن حياة القصر المصفدة العابسة، الى حياة طليقة بهجة، ويهوى الآداب والفنون .

وحملت القيصرة اليزابيت على خوض غمار السياسة . ولما زار القيصر المناطق الإيطالية الواقعة تحت الحكم النمسوى اصطحب معه القيصرة الفتية الحسناء، لتجذب الشعب بجمالها وظرف خلالها . ولكن هذه المحاولة لم تفلح، واستطاع الإيطاليون غير بعيد أن يفوزوا بحرياتهم، وفقدت الإمبراطورية مناطقها الإيطالية على أثر هزيمة جيوشها فى موقعة سولفرينو (سنة ١٨٥٩)

ولم تمض أعوام قلائل حتى هزمت الجيوش الإمبراطورية أمام الجيوش البروسية فى موقعة كينج جرايتز (سنة ١٨٦٦) وفقدت النمسا زعامتها الجرمانية؛ وكان لهذه الحوادث أثر واضح فى تطور السياسة الهبسبورجية وتطور أساليبها المحافظة القديمة ؛ وكانت القيصرة اليزابيت قد بدأت من ذلك الحين تلعب دورها السياسى فى الاتجاه الذى يتفق مع تفكيرها وميولها، وكانت النزعة الحرة التى ما فتئت القيصرة تعشقها، وتدعو الى اتباعها فى سياسة الإمبراطورية مكان النزعة الاستبدادية القديمة، قد أخذت تشق طريقها ببطىء؛ وظهر تأثير القيصرة فى هذا الميدان واضحا فى حوادث الثورة الوطنية المجربة . وكان البلاط القيصرى كعادته يرى مكافحة الثورة واخمادها بأشد الوسائل ، ولكن القيصرة كانت من جانبها تؤثر اتباع سياسة اللين والرفق، وكانت تعطف على أمانى الشعب المجرى وتنكر الوسائل المرهقة التى تتخذ لاخضاعه ومحاربة أمانيه؛ وكان تعلمها للغة المجرية وشغفها بكل ما هو مجرى من آيات ذلك العطف الواضح . ومع أن القيصر والبلاط كانا ينكران عليها هذا الموقف الشاذ فانهما لم يريا فى النهاية بدا من النزول عند أمانى الشعب المجرى ؛ وعقدت مع المجر معاهدة "التسوية" الشهيرة Ausgleich (١٨٦٧) التى اعتبرت المجر بمقتضاها دولة مستقلة يتولى عرشها القيصر؛ وكان لنفوذ القيصرة اليزابيت بلا ريب أثر واضح فى عقدها . وتوج القيصر وزوجه ملكين فى بودابست فى ٨ يونيه من نفس العام ، وكان القيصر يرتدى ثوب مارشال مجرى ،وكانت القيصرة ترتدى ثوبا وطنيا مجريا، وقد استقبلت باعظم مظاهرة الحماسة والترحيب .

وكانت القيصره اليزابيت بالرغم من نشأتها الرياضية رقيقة البنية، ينتابها المرض من آن لآخر . وقد سافرت فى سنة ١٨٦١ الى جزيرة ماديرا انتجاعا للصحة ، وقيل انها أصيبت يومئذ بالسل الرئوى . ثم سافرت بعد ذلك

القيصرة اليزابيت

الى جزيرة كورفو التى غدت فيما بعد احب الأماكن اليها، وهنالك ابتنت قصرا على الطراز اليونانى القديم أسمته "أشليون"، وكانت تزوره من آن لآخر، وتقضى هنالك أياما سعيدة فى السكينة والعزلة، بعيدة عن غمر السياسة وضجيج البلاط .

وكانت القيصرة تعانى الى جانب مرضها آلاما نفسية مبرحة ، وكانت الهواجس تنتابها وتعذبها ، وكانت حياتها تميل من ذلك الحين شيئا فشيئا الى الذيول والكآبة . على أنها كانت تغالب المرض والآلام وتحاول أن تبدو دائما ضاحكة مستبشرة .

وبدأت أحزان القيصرة الحقيقية بمأساة ابن عمها لودفيج الثانى ملك باڤاريا . وكان لودفيج أميرا نابها يعضد الآداب والفنون ؛ وهو الذى أسبغ

رعايته على ڤاجنروفنه، وابتنى له مسرحه الشهير فى "بايرويت" . بيد أنه كان ذهنا شعريا هائما كثير التشاؤم، وكان مقررا أن يتزوج من أختها الأميرة صوفى، ولكنه كان يشعر نحوها بحب عميق كانت تستقبله بمزيج من العطف والروع؛ وكان ولدها الأرشيدوق رودلف ولى العهد يشغف بصداقته ويزوره فى ميونيخ من آن لآخر، ويقضى معه أوقاتا سعيدة . ثم أصيب لودڤيج بغاة بالجنون وحجر عليه، ولم تمض أشهر قلائل حتى انتحر مع طبيبه غرقا فى بحيرة شتاربرجر (١٨٨٦) فتأثرت اليزابيت وتأثر ولدها رودلف لمحنته أعظم تأثير، وتركت هذه المأساة فى نفسها أثرا لا يمحى .

— ٣ —

على أن القدر كان يخبىء لهذه النفس المكلومة محنة أروع وأفدح ، ويسير بخطى سريعة نحو فجيعتها فى أعز عزيز عليها فى هذا العالم ، ونعنى ولدها الوحيد الأرشيدوق رودلف .

كان ولى العهد رودلف قد بلغ أشده وغدا شابا تعقد عليه آمال الإمبراطورية وآمال آل هبسبورج؛ ولكن هذا الأمير الفتى كان كأمه ذهنا حرا جريئا يهوى الآداب والفنون ، ويطلق العنان لتفكيره وقلمه ؛ ولم تكن ميوله ونزعاته مما يتفق مع تقاليد أسرته المحافظة، وكان يرغب عن حياة القصر وما يحيط بها من رسوم وتقاليد مرهقة، ويحيا حياته الخاصة، ويمتزج بالبيئات الشعبية ، ويطلق العنان لأهوائه المضطرمة فى مجتمع الحسان الفينى ويقتطف من أزاهيره ما شاء، وكان يذهب فى تلك الحياة الغرامية الصاخبة الى حدود مغرقة؛ وكان المعتقد فى البلاط وفى الأسرة أن زواج الأمير سيضع حدا لهذا الاضطرام ويعاونه على تنظيم حياته ، ويلطف من حدة ميوله ونزعاته .

وتزوج رودلف فى سنة ١٨٨٠ بالأميرة ستيفانى، ابنة ليوبولد الثانى ملك البلچيك ؛ ولكن هذا الزواج الذى لاح سعيدا فى البداية لم يلبث أن

تكشف عن مأساة حقيقية . ذلك أن رودلف الذى لبث تحمله نزعاته وأهواؤه المضطرمة لم يستطع أن يستكين الى تلك الحياة الهادئة ، ولم يلبث أن بدا التباين شديدا بينه و بين زوجه الهادئة الساذجة ؛ وكان رودلف يحيا دائما حياته الخاصة ويتابع جولاته ومغامراته بلا انقطاع ، ويجانب زوجته الفتية . وكانت هاوية الخلاف بين الزوجين تزداد مرارة وتفاقما ؛ ولم يحدث مولد ابنته الأميرة اليزابيت أثره المنشود فى تلطيف حدة هذا النكد الزوجى المؤلم ؛ ولم يلبث رودولف أن عاف حياته الزوجية ، وكادت العلائق بين الزوجين تنفصم لولا ان كانت تسترها المظاهر الرسمية .

وتعرف الأمير خلال جولاته ومغامراته الغرامية بفتاة رائعة الحسن من الأستقراطية الفينية هى البارونة مارى ڤيتشرا ؛ وكان أبوها البارون ڤيتشرا من رجال السلك السياسى ، وأمها البارونة هيلينى ڤيتشرا من أصل يونانى ؛ وكانت أسرة ڤيتشرا تعرف بالثراء وكرم المحتد ، والظهور فى ميدان الحياة الاجتماعية . وكانت مارى فى ذلك العهد فى نحو السابعة عشرة ، بارعة الحسن ، ذات عينين رائعتين ؛ وقد عملت على توثيق أواصر علائقها بالأمير سيدة من سيدات البلاط هى الكونتة لاريش التى تمت الى القيصرة وولى العهد بصلة القرابة ؛ وأثارت مارى ڤيتشرا بسحرها الأخاذ فى نفس الأمير جوى يضطرم ، بيد أنه لم يكن سوى نفثة جديدة من نفثاته الغرامية ، وكانت مارى من جانبها تشعر نحو الأمير بعاطفة حب مبرح . وكثرت مقابلات العاشقين ؛ وفى يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٩ غادرت مارى ڤيتشرا منزلها لآخر مرة وذهبت خفية عن أسرتها الى جناح الأمير بقصر البورج (القصر الامبراطورى) . وفى يوم ٢٩ يناير وجد رودلف فون هبسبورج ومارى ڤيتشرا ميتين معا فى قصر الصيد فى ضاحية مايرلنج على مقربة من ڤينا ؛ وكان الأمير قد غادر قصر البورج فى اليوم السابق ليشهد حفلة صيد تقررت اقامتها فى تلك

الضاحية ، ولم يعرف شيء عن سفر البارونة الى مايرلنج حتى وجدت ميتة الى جانبه فى قصر الصيد .

وكانت مأساة مروعة حمل نبؤها الى القيصرة والقيصر فى الصباح الباكر من يوم الأربعاء ٣٠ يناير ؛ وكانت القيصرة اليزابيت تتلقى عندئذ درسا فى اليونانية، فنفذت مدام فرينشى كبيرة وصيفاتها اليها، وألقت اليها النبأ المروع بصوت متهدج، فوضعت القيصرة يدها على قلبها وهى ترتجف فرقا وحزنا، ولكن دون أن تندى عيناها بالدمع ، وسارت نحو النافذة الكبرى وألصقت رأسها بزجاجها البارد، ولبثت دقائق لا تبدى حراكا . ثم سمع وقع خطوات القيصر الخفيفة ، وقد أتى لتحيتها كعادته كل صباح ، فغادرتهما مدام فرينشى ، ولم يعرف انسان قط كيف ولا بأى عبارة أبلغت القيصرة النبأ المحزن الى زوجها .

وقد ألقى على مأساة مايرلنج حجاب كثيف من الغموض، ولم يعرف حتى اليوم كثير من تفاصيلها الحقيقية ؛ ولكن البحث الحديث والوثائق التى ظهرت بعد عن المأساة، تسمح لنا بالقول بأن موت العاشقين وقع بطريق التفاهم بينهما ، وأن ولى العهد رودلف قتل حبيبته البارونة مارى ڤيتشرا ثم انتحر بعد ذلك، وأن انتحاره يرجع الى أسباب نفسية وسياسية معا .

— ٤ —

كانت وفاة ولى العهد رودلف من أعظم المحن التى نزلت بآل هبسبورج، وكانت للقيصرة المسكينة صدمة عنيفة لم تنهض من آثارها قط ، فقد كانت اليزابيت تشعر نحو ولدها الوحيد ومعقد آمالها بأعمق حب، وكانت تشهد ذبول حياته ونفسيته فى أعوامه الأخيرة بحزن لا يوصف؛ ولم تستقر للقيصرة بعد فقد ولدها حياة ، ولم تهدأ لها نفس ، ولم يطب لها مقام فى العاصمة النمسوية أو القصر الامبراطورى، وتفاقمت أوصابها وآلامها النفسية المبرحة؛

وازدادت نفورا من المجتمع ونأيا عنه، وحاولت أن تلتمس النسيان والسلوى فى السياحة والسفر الدائم ، وكان القيصر يمنحها ما شاءت من الحريات ، وكانت تقضى معظم أوقاتها بعيدة عن ڤينا ولاسيما فى قصرها اليونانى فى جزيرة "كورفو" . وفى خريف سنة ١٨٩٨ نراها فى سويسرا تحاول ترويح النفس وتتردد بين ضاحية مونترو حيث كان يطيب لها المقام وبين چنيف .

وكانت القيصرة قد جاوزت يومئذ عامها الستين وهدمتها الأوصاب والأحزان، وذهبت بروائها القديم الباهر؛ وكان القيصر يكاتبها أينما كانت ويوافيها تباعا بأنبائه وتحياته، وفى التاسع من سبتمبر سنة ١٨٩٨ تلقت من القيصر خطابا شاء القدر أن يكون آخر تحياته اليها، وكان يختتمه باللغة المجرية الحبيبة الى نفسها بالعبارة الآتية "إنى أكلك الى رعاية الله ياملاكى المحبوب". وتلقت القيصرة خطاب القيصر فى چنيف حيث قدمت من مونترو ونزلت فى فندق "بوريڤاج" الذى اعتادت النزول فيه؛ وفى صباح اليوم التالى غادرت الفندق وسارت برفقة وصيفتها الى رصيف "مون بلان" لتركب المركب البخارى عائدة الى مونترو ، وكان القدر الذى لم يهادنها قط جاثما يتربص بها ، فما كادت تقترب من مرسى الباخرة حتى اقترب منها رجل وفاجأها بطعنة من خنجره أصابتها فى الصدر على مقربة من القلب، وكان المعتدى ايطالى من عصبة "اللاحكوميين" (الفوضويين) يدعى لويجى لوكى؛ وكان اللاحكوميون قد انبثوا يومئذ فى أنحاء أوربا يبحثون عن فرائسهم بين الرؤوس المتوجة أينما استطاعوا، وجاء لوكى الى چنيف وحاول عبثا أن يغتال البرنس هنرى دورليان، وعندئذ ألفى فى القيصرة المسكينة فريسة سهلة، وكانت ترفض الحماية البوليسية التى تقدمها اليها السلطات؛ ولم تفطن القيصرة لحقيقة ما وقع فى البداية واعتقدت أن المعتدى لص يحاول السرقة كرها، ولم تشعر عند الطعنة إلا بألم خفيف لم يشعرها بخطورة ما وقع، ومن ثم فقد استطاعت

أن تتابع سيرها حتى وصلت الى الباخرة. بيد أن الباخرة ما كادت تتحرك حتى سقطت القيصرة مغميا عليها ؛ ولما كشف عن صدرها وجد جرح صغير فى دائرة القلب ، فعاد الربان بالباخرة فورا الى المرسى، واستطاعت القيصرة أن تعود ثانية الى مقربة من الفندق، بيد أنها توفيت بعد ذلك بوقت قصير.

وهكذا اختتمت حياة القيصرة اليزابيت ، فكان مصرعها المؤسى حلقة جديدة فى ثبت المحن التى توالت على آل هبسبورج؛ وأصيب القيصر الشيخ فرانزيوسف بصدمة أليمة أثارت كوامن شجنه وجراحه؛ بيد أنها لم تكن خاتمة المحن التى يخبئها له القدر؛ فقد عاش القيصر الشيخ أعواما طويلة أخرى رأى خلالها الامبراطورية تنحدر سراعا الى هاوية الانحلال والتفكك ، وشهد مصرع ولى عهده الجديد الأرشيدوق فرديناند فى سرايفو (سنة ١٩١٤) ثم شهد نشبوب الحرب الكبرى وتوفى إبان اضطرابها (نوفمبر سنة ١٩١٦) بعد أن عمر ستة وثمانين عاما وحكم ثمانية وستين عاما ، تاركا تراث آل هبسبورج يسير الى قدره المحتوم .

الفصل الثالث

پارنل زعيم الوطنية الإرلندية

١٨٤٦ — ١٨٩١

كانت مسألة إرلندة القومية أو مسألة الحكم الذاتى الإرلندى من أهم ظواهر الحياة السياسية والبرلمانية الانكليزية فى أواخر القرن الماضى ، وكانت فورات الوطنية الإرلندية تثير من وقت الى آخر أزمات سياسية واجتماعية تهتز لها أركان الحياة العامة سواء فى إرلندة أو فى انكلترا ؛ وكان قائد الوطنية الإرلندية فى تلك الفترة المليئة بالأحداث السياسية زعيم وسياسى موهوب هو تشارلس ستيوارت پارنل .

وقد ولد پارنل فى سنة ١٨٤٦ فى أسرة عريقة كانت فى الأصل انكليزية ، ثم هاجرت الى إرلندة ، ونبغ فيها ساسة وشعراء ؛ ودرس پارنل فى الجامعات الانكليزية ، ولكنه لبث إرلنديا فى عقليته وشعوره ، وكانت تحدوه عاطفة بغض لانكلترا ورثها عن أسرته ؛ ولم يشتغل پارنل فى شبابه الأول بالسياسة ، ولم يدخل البرلمان (مجلس العموم) إلا فى ربيع سنة ١٨٧٥ حيث انتخب نائبا عن دائرة "ميث" . وسرعان ما ظهرت مواهبه السياسية والخطابية ، ولم يمض عامان حتى انتخب زعيما لجماعة "اتحاد الحكم الذاتى" . وكانت إرلندة تجوز يومئذ فترة سيئة من الاضطراب السياسى والأزمات الاقتصادية ؛ وفى سنة ١٨٧٩ ، أسس ميخائيل داڤيت مجمع الأراضى ، ليقوم بحركة التهييج الزراعى ووافق پارنل على برنامجه ، وكان هذا المجمع يرمى الى الضغط على ملاك الأراضى الزراعية وإرهابهم وتمكين واضعى

اليد من الاستيلاء عليها . وزار پارنل أمريكا فى أواخر سنة ١٨٧٩ ، وهنالك وضعت الخطط الشاملة للعمل على تحرير إرلندة . ومذ قامت وزارة الأحرار فى سنة ١٨٨٠ برياسة جلادستون غدا پارنل زعيم الحركة القومية الإرلندية ورئيسا " لحزب الاستقلال الذاتى " (هوم رول) ، وأخذ يقود المعارك البرلمانية الرنانة التى تضطرم حول الأمانى الإرلندية بقوة و براعة ؛ وكان الهياج فى إرلندة يزداد شيئا فشيئا ، ومجمع الأراضى يبث دعايته و يذكى تحريضاته ، حتى تفاقم الأمر وكثرت الاعتداءات والمقاطعة ، واتهم پارنل و بعض زملائه بالتحريض على ارتكاب الجرائم ، ولكن الحكومة لم تجد سبيلا الى اتهامهم ؛ وعندئذ دعى البرلمان على عجل ، ووافق على قانون قدمته الحكومة بوقف سريان " قانون الحرية الشخصية " (هابياس كورپاس) لمدة عام ، وإباحة القبض على المشتبه فيهم دون إجراءات قضائية ، فاعتبر پارنل وزملاؤه هذا القانون إعلانا للحرب ، واعتزموا أن يقابلوا الأمر بما يجب من حزم وعنف .

ولكن الحكومة بادرت بالقبض على پارنل و بعض زملائه بمقتضى القانون الجديد (أكتو بر ١٨٨١) ، وأودع پارنل سجن كلمنهام فكان هذا الإجراء مثار سخط شديد فى إرلندة ، ولم يرحب الرأى العام الانكليزى بهذه الإجراءات التعسفية ، وألفت الحكومة نفسها فى مأزق حرج ، وآثرت فى النهاية أن تهادن الوطنيين الإرلنديين ، وأفرج عن پارنل وزملائه بعد أن قضوا أشهرا فى السجن (٢ مايو ١٨٨٢) ، و بدئت بين الفريقين مفاوضات لتسوية الشئون الإرلندية بوساطة الكبتن " أوشى " صديق پارنل وزميله فى الكفاح ، عرفت بمفاوضات كلمنهام ، فاستقال حاكم ارلنده ووزيرها فى الحال احتجاجا على مسلك الحكومة ، وخلفهما لورد سپنسر ولورد كاڤندش ، ووصلا الى دبلن فى السادس من مايو ليتوليا مهام منصبيهما

وفى عصر هذا اليوم ذاته وقع فى " فينكس پارك " ، وهو بستان قصر الحاكم فى دبلن حادث مروع ، اذ قتل لورد كاڤندش الوزير الجديد وسكرتيره الدائم توماس بيرك بخناجر القتلة فى ضوء النهار. وفر الجناة دون أن يعثر بأثرهم أحد، وقطعت المفاوضات الارلندية فى الحال؛ واسدل على الجريمة المروعة مدى حين حجاب كثيف من الغموض، ولم يعرف أثرها الأول الاحينما اعتدت نفس العصابة على محلف قضائى يدعى «فيلد» واصابته بجراح بالغة ، وقبض على سائق العربة التى كانت تحمل الجناة ؛ وعندئذ استطاعت السلطات أن تضع يدها على أفراد العصابة كلها ، واعترف أحد الشركاء واسمه چيمس كارى على زملائه، وأقسم أنهم أمروا بتدبير الجريمة عقب مقال ظهر فى جريدة « فريمانس چورنال » ، طالبت فيه « بتطهير قصر دبلن » وحكم بالإدانة على عشرين من الجناة أعدم منهم خمسة، وسجن الباقون لمدد مختلفة. وحاول الشاهد كارى أن ينجو بحياته بالسفر الى جنوب إفريقية، ولكنه قتل على ظهر السفينة التى أقلته بيد وطنى ارلندى يدعى دونيل، فقبض عليه بدوره وحوكم وأعدم (سنة ١٨٨٣) .

— ٢ —

وهكذا اتخذت المسألة الإرلندية صورا من العنف المثير وسالت من حولها دماء الفريقين ، وثار الرأى العام الانكليزى سخطا على الوطنيين الارلنديين، وعلت الصيحات ضد الحزب الوطنى الإرلندى ومجمع الأراضى ،وألقيت عليهما تبعة الجريمة؛ ووقعت الجريمة على پارنل وقع الصاعقة؛ ومع أنه أبدى فى بيانه الذى أذاعه على الشعب الإرلندى شديد استنكاره لوقوعها وصرح فيه بأنه لم يصم اسم ارلندة الكريمة ، خلال كفاحها الطويل لنيل حقوقها السياسية والاجتماعية مثل هذا الاغتيال الدنىء ، ومع أنه تأثر للحادث أيما تأثر واعتبره ضربة لآماله وجهوده، فانه لم يخل من مظنة التحريض ولم يبرأ من التبعات.

بارنـــل

والواقع أن حادث فينكس بارك كان ضربة شديدة لنفوذ پارنل ومكانته سواء داخل البرلمان أو خارجه ، وقد أفضى پارنل على أثره الى أصدقائه والى مستر جلادستون أنه يود الانسحاب من الحياة العامة ؛ وقاست ارلنده من جراء هذا الحادث بضعة أعوام من الحكم الرادع ، وضعفت قضية الاستقلال الذاتى ؛ ولبث پارنل من ذلك الحين تحيط به الشكوك والريب ، وتجتمع حوله المطاعن من كل صوب . وفى الوقت الذى أخذت فيه هيبة الزعيم الارلندى فى الانحلال ، بدأت علائقه الغرامية مع مسز أوشى O'Shea زوج صديقه القديم الكابتن أوشى ، وهى علائق كان لها فيما بعد أكبر الأثر فى تحطيم حياته السياسية والأدبية .

وفى ربيع سنة ١٨٨٧ بدأت "التيمس" حملاتها العنيفة على پارنل فى سلسلة من المقالات عنوانها " مبادئ پارنل والجريمة " Parnellism and crime ذكرت فيها أمورا ووقائع كثيرة، ونسبت الى پارنل تهمة التحريض على ارتكاب الجرائم، وزعمت أنه قد اشترك فعلا فى تدبير الجريمة التى ارتكبها الوطنيون الإرلنديون فى فينكس بارك، وقرنت مقالها المنشور فى عدد ١٨ أبريل بصورة خطاب زعمت أنه ممهور بتوقيع پارنل و إن لم يكن بخطه، وفيه يعتذر پارنل عن موقفه إزاء الجريمة، ويبرر بالأخص مقتل مستر بيرك وكيل الحاكم العام .

وفى مساء نفس هذا اليوم أعلن پارنل فى مجلس العموم أن الخطاب الذى نشرته التيمس هو خطاب مزور ، وأنه لم يصدر منه قط مثل هذا الخطاب؛ وثارت فى المجلس حول هذا الموضوع مناقشات عنيفة، ورفضت الحكومة اقتراحا قدمه مستر جلادستون زعيم الأحرار بانتداب لجنة خاصة لبحثه؛ وعلى أثر ذلك رفع مستر أودنيل O'Dennel وهو نائب سابق، وعضو سابق فى الحزب الوطنى الإرلندى دعوى على التيمس فى هذا الشأن؛ وأعلن محامى التيمس انها على استعداد لإثبات جميع التهم التى وردت فى مقالاتها ومنها صحة الخطاب المنسوب الى پارنل ؛ وهنا طلب پارنل الى مجلس العموم أن يحيل هذه المسألة الى لجنة خاصة لتحقيقها فوافقت الحكومة عندئذ بعد تردد، وصدر قرار المجلس بانتداب لجنة مؤلفة من ثلاثة من قضاة المحكمة العليا لتفحص جميع التهم التى ذكرتها التيمس . وباشرت اللجنة مهمتها منذ سبتمبر سنة ١٨٨٨ وقامت بتحقيقات عديدة ، وسمعت شهودا كثيرين وألقى إليها پارنل أقواله بتفصيل شاف، وأتمت مهمتها فى سبتمبر سنة ١٨٩٠، وأصدرت نتائج تحقيقها وقراراتها فى مجلد ضخم؛ وكان الرأى العام خلال ذلك يتتبع أدوار التحقيق بأعظم اهتمام، وكانت فى الواقع قضية من أعظم القضايا

السياسية والصحفية التى عرفها الشعب الانكليزى فى ذلك الحين . و إليك ملخص قرارات اللجنة :

(١) أنها ألفت أن بعض النواب الإرلنديين قد أسس واشترك فى عضوية " مجمع الأراضى " بقصد العمل على تحقيق استقلال إرلندة ، وأنهم ائتمروا على استعمال وسائل التهديد والإرغام ضد ملاك الأراضى الإرلندية ، وأنهم لم يحرضوا على ارتكاب الجرائم مباشرة ولكن وسائل الإرغام والوعيد التى لجأوا اليها ، كانت تؤدى الى ارتكاب الجرائم ، وأنهم لم يفعلوا شيئا لمنع الجرائم ولم يستنكروا وقوعها باخلاص ونزاهة ، وأنهم كانوا يحمون أشخاصا متهمين بارتكاب الجرائم الزراعية ، وكانوا يدفعون أموالا للأشخاص الذين أضرت الجرائم بمصالحهم .

(٢) وأما عن التهم المنسوبة الى پارنل فقد قررت اللجنة ما يأتى : أنه لم يثبت أن پارنل كان يعلم وقت مفاوضات كلمنهام (Kilmainham) أن جريمة تعد وأنه عاون فى ارتكابها ، وأنه لا أساس للقول بأن پارنل كان على تفاهم مع زعماء المؤامرة أو على علم بأنهم كانوا ينوون تنفيذها ، أو أنه اعترف بأن القتل كان من صنعهم أو أنه لم يكن مخلصا فى استنكاره للجريمة .

وأما تهمة الخطاب الذى نسب صدوره الى پارنل فقد انهارت من أساسها ، وثبت أن الخطاب مزوّر ، وأنه اشترى مع وثائق أخرى من شخص يدعى رتشارد بيجوت (Pigott) وهو صحفى إرلندى بائس ، وقد اعترف بالتزوير أمام اللجنة ثم فرّ الى مدريد وانتحر هنالك .

وعندئذ سحب النائب العمومى الخطاب من ملف القضية بالنيابة عن " التيمس " وقررت اللجنة أنه مزوّر .

وعلى أثر ذلك رفع پارنل دعوى على التيمس مطالبا إياها بتعويض

قدره مائة ألف جنيه ، ولكن المسألة لم تلبث أن سويت بطريق المفاوضة والصلح على أن تدفع التيمس اليه تعويضا قدره خمسة آلاف جنيه .

وهكذا انتهت هـذه المعركة العنيفة بظفر پارنل ، وكانت تبرئتـه الزنانة عاملا فى استعادة مكانته السياسية . بيـد أن المتطرفين من خصوم المسألة الإرلندية (الهوم رول) لبثوا على ريبهم فى نزاهته ؛ ولم يمض قليل على ذلك حتى حدث حادث جديد كان هو الضربة الأخيرة . ذلك أن الكبتن أوشى رفع قضية طلاق بسبب الزنا ضد زوجه وضد پارنل ، وكانت علائق پارنل بهذه الزوجة الحسناء قد بدأت قبل ذلك بأعوام ، ولم يكن من المعقول أن تستمر طوال هذه المدة دون أن يعلم بها الزوج ؛ وكان الكبتن أوشى صديقا لپارنل ، وقـد أدى له پارنل خدمات سياسـية قيمة وساعده على النجاح فى الانتخاب ، ولم تعرف الأسباب التى دفعت الكبتن أوشى الى هذا المسلك بعـد أن تغاضى عن علائق العاشقين مدى أعوام ؛ وعلى أى حال فقد حكم بصحة الدعوى و بالطلاق (يونيه ١٨٩١) ، وفى الحال اقترن پارنل بخليلته القديمة ؛ وكان للحادث اخطر أثر ، فقد أعلن جلادستون أنه لا يصح بعد هذه الفضائح أن يبقى پارنل زعيما للحزب الوطنى ، وأصيبت هيبة الزعيم الإرلندى بضربة مميتة ، وهجره معظم زملائه القدماء ، واضطر پارنل الى ترك الرياسة والزعامة مرغمـا . وكانت الخاتمة المؤسية بعـد ذلك بأشهر قلائل . ذلك أن هذه الحيـاة العنيفة المليئة بصـنوف الكفاح المضنى والانفعالات النفسانية المضطرمة انتهت بتحطيم پارنل ، فانهـارت صحته سراعا ولم يلبث أن توفى فى ٦ أكتوبر سـنة ١٨٩١ فى مـنزله فى بريتـون ، فنقلت رفاته الى ارلنـده ، حيث دفن على مقربة من قبر « أوكل » سلفه وزميله فى الكفاح الوطنى .

وكان پارنل من أعظم زعماء الوطنية الإرلنديه اخلاصا وأشدهم غيرة وكفاحا ؛ وكان لجهوده العنيفة المتواليـة أعظم أثر فى التمهيد لتحقيق أمانى إرلندة واستقلالها الذاتى .

* * *

وقد فازت ارلندة بالفعل بأمانيها القومية فى عصرنا ، بعد وفاة پارنل بنحو ربع قرن ؛ وخلف چون ردموند ، پارنل فى زعامة الحزب الوطنى الارلندى مدى حين ؛ وكان حزب الأحرار الإنكليزى وزعيمه يومئـذ جلاد ستون يعطف على الأمانى الارلندية ؛ وبالفعل حاول الأحرار ، أثناء توليهم الحكم أن يعملوا على تحقيق بعض هـذه الأمانى ، وقـدم جلاد ستون الى البرلمـان فى سنة ١٨٩٣ مشروع قانون يمنح ارلندة نوعا من الاستقلال الذاتى المقيد وحق انشاء مجلس تشريعى ارلندى خاص يتمتع بسلطات محـدودة ، ولكن هـذه المحاولة لم تفلح ؛ وفى سـنة ١٩١٢ ، قدمت وزارة الأحرار برياسـة أسـكويث مشروعا جديدا للاسـتقلال الذاتى الارلندى على نمـط المشروع الأول ، ولكنه أكثر وضوحا وسخاء ؛ وأثار هذا المشروع بالرغم من مروره فى مجلس العموم معارضة شديدة من مجلس اللوردات ، واستمر مثار الجدل العنيف حينا ، وثارت من جرائه ألصتر (شمـال ارلندة) وعارضت أشـد المعارضة فى تطبيقه عليهـا ؛ وأخيرا وافق عليـه مجلس اللوردات مع استثناء ألصتر (مايو سـنة ١٩١٤) ؛ وعقدت باشراف الملك فى قصر بوكنجهام مفاوضات للتوفيق بين مختلف الأحزاب وبين الوطنيين الارلنديين ولكنها أخفقت ؛ ولمـا نشبت الحـرب الكبرى تغـير وضع الأمـور ، وتراضت الأحزاب ، وأصبح المشروع قانونا فى سبتمبر من هـذا العام ، ولكن تأجل تنفيذه الى ما بعد نهاية الحرب ؛ بيد أنه لم يتح له التطبيق قط .

ولمـا انتهت الحرب الكبرى عادت الحركة الوطنية الارلندية الى سابق

اضطرامها ، ونشبت بين الوطنيين الإرلنديين والقوات الإنكليزية مصادمات ومعارك دموية عديدة ، وكان حزب السين فين يومئذ يقود الحركة الارلندية ؛ وفى سنة ١٩٢١ عقدت هدنة بين الفريقين ، ثم جرت مفاوضات بين الحكومة البريطانية وممثلى السين فين ، انتهت بعقد معاهدة تحقق استقلال ارلندة الجنوبية وتمنحها نظام الدومنيون ، ووافق عليها البرلمان الوطنى ، ولكن عارضها الجمهوريون المتطرفون وعلى رأسهم ديڤاليرا ؛ ونشبت على أثر ذلك حرب أهلية فى ارلندة بين المعتدلين والمتطرفين ؛ وكانت الأغلبية فى جانب المعاهدة ؛ وأخيرا رجح جانب المعتدلين ، وقامت حكومة ارلندية قومية ، وأصدر البرلمان الارلندى (الديل) أول دستور قومى ينص على أن الأمة الارلندية هى مصدر كل السلطات ؛ وهكذا قامت دولة ارلندة الحرة محققة لآمال الوطنية الارلندية بعد كفاح عنيف استطال فى مرحلته الأخيرة أكثر من نصف قرن .

الفصل الرابع

قضـــية لورور وزولا

ســنة ١٨٩٨

يقترن اسم الكاتب والقصصى الكبير إميل زولا بقضية من القضـايا السياسية والصحفية الرنانة ، هى قضية جريدة " لورور " (L'Aurore) التى نشأت عن قضية دريفوس الشهيرة . وقد وقعت قضـية لورور فى ظروف مثيرة ، وكان الرأى العـام الفرنسى كله يومئذ يجيش انفعالا لحوادث قضية دريفوس التى بدأت قبـل ذلك بنحو أربعة أعوام . وخلاصتها أن ضابطا يهوديا فى الجيش برتبة « كبتين » هو ألفريد دريفوس ، أتهم بالتجسس لحساب دولة أجنبية بناء على ورقة سرية ظفر بها قلم التحريات ، وقيل إنها أخذت من دار السفارة الألمـانية وعرفت فيما بعد باسم " البردرو " فقبض على دريفوس ، وحوكم أمام المجلس الحربى فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، وقضى عليه بالإدانة بعـد إجراءات وجيزة أحيطت بالتكتم والغموض ، وحكم عليه بالنفى المؤبد ، وأخذ الى جـويانا الفرنسية ليقضى عقوبته (١) .

على أن الحادث كان أخطر وأعمـق أثرا ؛ ذلك أن القبض على الضابط اليهودى والحكم بإدانته بهذه الوسيلة الغامضة ، لم يكن مسألة قضائية فقط تأخذ مجراها العادى ، ولكنه كان فى الواقع نتيجة مؤامرة واسعة النطاق دبرتها العناصر الرجعية التى تضطرم بخصومة السامية فى الجيش وغيره لتحطيم النفوذ

---

(١) تناولنا خصومة السامية وحوادث قضية دريفوس فى كتابنا « ديوان التحقيق » والمحاكمات الكبرى ص ٤٠٤ — ٥٣٧

اليهودى ، وألفت فى الضابط اليهودى فريسة رمزية لدعايتها وجهودها ، وكانت إجراءات القضية منذ البداية مدعاة للريب ، ولم تقتنع بوجاهتها أو عدالتها العناصر المفكرة المعتدلة البعيدة عن الأهواء .

ومن ثم فقد اضطرب الرأى العام لهذا الحادث أيما اضطراب ، وانقسم الى فريقين : فريق العسكرية والوطنيين الرجعيين ، الذين رحبوا بالحكم على دريفوس ؛ وفريق الأحرار والجمهوريين الذين لم يقنعهم حكم الإدانة بل وجدوا فيه نذيرا بما يحاك ضد الجمهورية من المؤامرات والدسائس الخفية . وانقسمت الصحافة تبعا لانقسام الرأى العام الى فريقين : فريق يناصر دريفوس و يطلب إعادة النظر فى الحكم ، وفريق يعارض هذه الحركة ، بكل قواه .

وكان فى مقدمة الصحف التى تنادى بإعادة النظر فى قضية الضابط البرىء جرائد « لى سيكل » و « لورور » و « الفيجارو » ، و « لى سولى » وغيرها ، ويحرر فيها نخبة ممتازة من أكابر الكتاب والساسة منهم إيف جيو ، وجوزف ريناخ ، وكليمنصو ، وچوريس ، وكاسنياك ، و إميل زولا . وكان زولا يكتب فى جريدة الفيجارو مقالات قوية ضد خصومة السامية (بغض اليهودية) ، وكانت الريب والظنون تحوم منذ البداية حول ضابط من زملاء دريفوس يدعى إسترهازى ، و يظن الكثيرون أنه هو الذى زور وثيقة « البردرو » ؛ وكانت الفيجارو قد نشرت صور رسائل بخط إسترهازى لتدلل على صحة هذا الرأى فأثار نشرها اهتماما عظيما ، ولم تر السلطات بدا من القبض على إسترهازى واحالته على المحاكمة ؛ ولكن المحاكمة كانت مهزلة مدبرة لتهدئة الرأى العام ، و إخماد صيحة الدريفوسيين بطلب إعادة النظر ، وعلى ذلك فقد أصدر المجلس الحربى حكمه ببراءة إسترهازى ، وكان ذلك فى يوم ١٢ يناير سنة ١٨٩٨

وفى اليوم التالى أى فى يوم ١٣ يناير سنة ١٨٩٨ نشرت ، جريدة لورور

خطابا مفتوحا موجها الى رئيس الجمهورية وهو يومئذ فيلكس فور بتوقيع إميل زولا ، بعنوان " إنى أتهم " (J'accuse) يفتتحه بالتنويه بعظمة الرئيس وعظمة عصره ثم يقول :

" ولكن أى وصمة هذه ، تلك التى تصم اسمك وتصم عصرك وأعنى تلك القضية المروعة ، قضية دريفوس ؟ ان مجلسا حربيا قد جرؤ نزولا على الأمر أن يبرئ إسترهازى ، وهى ضربة ساحقة لكل حقيقة وكل عدالة ، وقد قضى الأمر وتلقت فرنسا تلك الوصمة على وجناتها ، وسيكتب التاريخ انه فى عهدك قد ارتكبت مثل هذه الجريمة الاجتماعية " .

ثم يستعرض زولا تفاصيل قضية دريفوس فى أسلوب روائى مؤثر ، وتحليل بديع لاذع ، ويوجه الاتهام الى رجال أركان الحرب والقادة الذين اشتركوا فى تدبير الحادث وتنظيم المحاكمة قائلا :

"إنى أتهم الجنرال دى پاتى بأنه هو الذى دبر هذا الجرم القضائى بطريقة شيطانية ، وأنه يعلم حقيقة هذا الجرم ، وأنه يدافع عن سلوكه منذ ثلاثة أعوام بأشنع الوسائل وأفظعها .

وأتهم الجنرال مرسييه بأنه شريك فى الإثم ، وفى أعظم ظلم وقع فى هذا القرن .

وأتهم الجنرال بيلو بأن لديه الأدلة الحاسمة على براءة دريفوس ، وأنه سحقها وارتكب جريمة الاعتداء على الإنسانية والعدالة لغاية سياسية ، ولكى ينقذ أركان الحرب الأثيم " .

ثم يوجه زولا اتهامه الى باقى القواد على هذا النحو ، ويتهم الخبراء بأنهم زوروا فى تقريرهم ، ويتهم المكتب الحربى بأنه نظم فى الصحف ، ولا سيما فى جريدتى لكلير ، والايكو دى پارى ، حملة شنيعة لتضليل الرأى العام .

ويختتم زولا خطابه بالعبارة الآتية " إنى أتهم المجلس الحربى الأول بأنه

الفريد دريفوس

انتهك القانون وقضى على متهم بناء على وثيقة سرية ، وأتهم المجلس الحربى الثانى بأنه تستر على هذا الانتهاك ، تنفيذا للأوامر ، وأنه ارتكب بدوره جريمة قضائية وهى أنه قضى عن عمد وعلم ببراءة مجرم أثيم " .

تلك هى محتويات هـذا الخطاب الرنان ؛ وكان زولا قد وضع لخطابه عنوانا بسـيطا هو " خطاب الى فيلكس فور " (Lettre à Félix Faure) ولكن كليمنصو هو الذى أعطاه عنوانه الذى اشتهر به فيما بعد ، وهو " إنى أتهم " (J'accuse) .

وطلعت " الأورور " بهذا الخطاب فى يوم ١٣ يناير فكان له فى الرأى العام أعظم وقع ، وتخاطف الناس أعداد الجريدة بحماسة لامثيل لها ، ووزع منها نحو مائتى ألف فى بضع ساعات فقط ؛ واضطرمت الأنفس ، وضجت

أروقة البرلمان، واشتد سخط الصحف الوطنية، واهتزت دوائر الحكومة والعسكرية؛ وكان ميلين رئيس الوزارة يؤثر تجاهل الخطاب وألا يقدم زولا الى المحاكمة حتى لا تتاح له الفرصة من إثارة الضجة التى يريدها حول قضية دريفوس؛ وكان معظم الوزراء يشاطره هذا الرأى، ولكن الدوائر العسكرية لم تطق صبرا على هذا التحدى، وكان السكوت ينطوى على اعتبارات مثيرة محرجة، إذ ماذا عسى أن يرى فيه الرأى العام ويرى الجيش؟ وأخيرا تقرر أن يتقدم بيلو وزير الحربية وحده بالشكوى الى القضاء مما نسب اليه والى الجيش من الوقائع القاذفة؛ وكان هذا ما يرمى اليه زولا بالذات فقد أراد أن يثير خطابه على قوله "فورة من الحق والعدالة" وأن تقام عليه دعوى القذف، فيتمكن أنصار الإعادة من إثارة القضية كلها أمام القضاء.

ورفعت القضية أمام محكمة جنايات السين فى ٢١ يناير، وكان زولا أثناء ذلك موضع مظاهر مستفيضة من العطف والسخط؛ وانقسم الشعب فى شأنه الى شيعتين: خصوم وأنصار، وانقسم الطلبة كما انقسم الشعب؛ واتهمه الوطنيون وخصوم السامية بأنه قبض مليونين للدفاع عن دريفوس، وزاد الرأى العام اضطراما وطارت أغرب الاشاعات، واختار زولا للدفاع عنه الأستاذين لابورى والبركليمنصو، ودعا لتأييده نحو مائتى شاهد بينهم أناتول فرانس، والفيلسوف سياى (Séailles). وبدأت محكمة الجنايات بنظر القضية فى السابع من فبراير سنة ١٨٩٨، وكانت جموع الوطنيين تجوب الشوارع وتهتف للجيش وتحيي كل ضابط، وتهدد أنصار الاعادة "أعداء الجيش". وكانت المناظر العاصفة تقع فى كل يوم فى شوارع باريس، وفى المقاهى والأندية العامة، وكان زولا يسير الى المحكمة ومن حوله دائما جماعة من الأنصار لحمايته من الاعتداء. واستمرت المرافعات الصاخبة أمام المحكمة حتى اليوم الثالث والعشرين من فبراير، وأبت المحكمة أن تسمع أية شهادة

أو تناقش أى دليل ليست له علاقة بالتهمة الأصلية ، والتجأت الى كل حيلة للتفرقة بين قضية دريفوس وقضية إسترهازى . ولكن محامى دريفوس الأستاذ ديمانج استطاع أن يثير مسألة "الملف السرى" . وكان أهم شهود القضية الكولونيل پيكار وقد كان رئيسا لقلم التحريات السرية ، ووقف يومئذ على أمور حملته على الاعتقاد ببراءة دريفوس والسعى الى تأييد قضيته ، ووقع من أجل ذلك خلاف شديد بينه وبين رؤسائه ، وكان خصومه من القواد والرؤساء يحاولون الطعن فى شهادته بأنه كان يعمل لاستبدال إسترهازى بدريفوس ، وأنه افتض المراسلات الخاصة والأحراز السرية ؛ وشغل الخبراء أهم قسم فى المرافعات ، وأكد جماعة من العلماء الأعلام أمام المحكمة أن خط البردرو ، هو نفس خط إسترهازى ؛ وطعن القواد فى هذا الرأى لأن المضاهاة لم تقع إلا على صور فتوغرافية للبردرو ومعظمها مزور على قولهم ، وأشاروا الى الوثائق السرية الأخرى التى تثبت جرم دريفوس .

اميل زولا

وفى الثالث والعشرين من فبراير أصدر المحلفون قرارا بالإدانة المطلقة ، وقضى على زولا بأقصى عقوبة أعنى بالحبس سنة وغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك وقضى على مدير جريدة "لورور" بالحبس أربعة أشهر وثلاثة آلاف فرنك غرامة ؛ فطعن المتهمان فى الحكم بطريق النقض ، فقبل الطعن وألغت محكمة النقض الحكم باعتبار أن المبلغ فى القضية لم يكن ذا صفة ، وأن التبليغ من شأن المجلس العسكرى وهو المطعون فى حقه ،

وليس من شأن وزير الحربية، فبادر المجلس العسكرى برفع دعوى القذف، ونظرت القضية ثانية فى ١٨ يوليه (سنة ١٨٩٨) أمام محكمة جنايات ڤرساى؛ ولكن زولا لم يمثل أمام قضائه هـذه المرة وآثر نزولا على نصح أصـدقائه ومحاميه، الفرار الى انكلترا، وقضى عليه بالإدانة مرة أخرى وبمثل الحكم الأول، كما قضى بشطب اسمه من ثبت فرقة الشرف. ولبث زولا مختفيا فى منفاه يكتب قصته الشهيرة (Fécondité) حتى ٤ يونيـه سنة ١٨٩٩، ثم عاد الى باريس عند ما علم بأن مساعى أنصار الإعادة قد كللت بالنجاح، وأنه يوشك أن يعاد النظر فى قضية دريفوس من جديد.

وتوفى زولا فى ظروف مؤسية، بعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام، إذ وجد فى صباح يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٢ ميتا فى غرفة نومه فى منزله الباريزى؛ وكانت وفاته اختناقا بالغاز من أنبوبة فاسدة، فشيع الى قبره فى حفل رسمى فخم، وكان دريفوس بين المشيعين، وأبنه على القبر صديقه أناتول فرانس؛ وكان دريفوس قد صدر العفو عنه فى تلك الأثنـاء، وأطلق سراحه بقرار من رئيس الجمهورية، وذلك بالرغم من الحكم عليه بالإدانة مرة أخرى. ولم تنته القضية الشهيرة إلا فى يوليه سنة ١٩٠٦ حينما أصـدرت دوائر النقض مجتمعة حكمها بالغاء حكم المجلس العسكرى، وبراءة دريفوس براءة مطلقة؛ وردّ دريفوس الى منصبه فى الجيش ورقى ومنح وسام فرقة الشرف، ونال زولا نصيبه من التكريم بنقـل رفاته الى البانتيون مثوى العظماء والخالدين.

***

على أن انتهاء قضية دريفوس على هذا النحو لم يكن هـو القول الحسم فى شأنها، فقد لبثت بعد ذلك حقبة من الدهر مثار بحوث تاريخية وقضائية عديدة ترمى الى اجتلاء الحقيقة الكاملة عنها. وكان ثمة جانب قاتم فى وقائعها يمثل حلقة مفقودة هو الجانب الألمـانى. فقد كانت ألمـانيا هى الدولة التى

اتهمت بتقصى أسرار الدفاع الفرنسى، واتهم دريفوس بالاتصال بها، وقيل إن وثيقة « البردرو » التى كانت أساس الحكم على دريفوس وجدت فى دار السفارة الألمانية فى سلة الأوراق المهملة. ولم تصدر عن الجانب الألمانى أثناء القضية أو بعدها أية كلمة أو تصريح يميط اللثام عن الحقيقة، وكل ما فعلته الحكومة الألمانية والسفارة الألمانية هو التأكيد بأنه لم تكن لهما أية صلة بدريفوس أو الحادث . وقد كان ثمة رجل يستطيع بكلمة واحدة أن يلقى على الحقيقة أعظم ضوء . ذلك هو الجنرال ماكس فون شفارتزكوبن الملحق الحربى للسفارة الألمانية أثناء قضية دريفوس . ولكن هذه الكلمة لم يستطع أن يقولها ولم يسمح له بقولها يومئذ، وقضت الاعتبارات السياسة أن ينوء بالسر حتى مرض موته، وعندئذ أفضى به الى زوجه وأوصاها بنشر مذكراته ووثائقه ، فنشرت فى سنة ١٩٣٠ بعنوان : « الحقيقة عن دريفوس »[(١)] .

يقول إميل زولا فى كتابه الذى وضعه عن قضية دريفوس بعنوان : « الحقيقة تسير »[(٢)] إن فون شفارتزكوبن هو وحده الذى يستطيع أن يذيع الحقيقة الناصعة . ولكن شفارتزكوبن لم يستطع يومئذ أن يتكلم ؛ ومات زولا وبرئ دريفوس دون أن تعرف الحقيقة . ولم يتحدث شفارتزكوبن عن قضية دريفوس إلا فى حينما شعر بدنو أجله فى أواخر ديسمبر سنة ١٩١٦ . فأفضى بهذه الألفاظ التى حرصت زوجه على تدوينها : « أيها الفرنسيون، استمعوا الىّ : إن الفريد دريفوس برىء ولم يرتكب جرما قط. وكان الأمر كله دسائس وتزويرا ، إن دريفوس برىء » . وفى المذكرات

---

(١) Von Schwartz Koppen : Die Wahrheit ueber Dreyfus. Berlin 1930

(٢) La Vérite en Marche.

والوثائق التى تركها شـڤارتزكوپن أدلة الحقيقـة الناصـعة التى طالب زولا بكشفها . فان «البردرو» . الذى كان أساس الاتهام كان من صنع إسترهازى وبخطه ، وكان المجـرم والخائن هو إسترهازى ؛ وتلك حقيقة ثبتت أثنـاء المأساة القضائية ذاتهـا ؛ ويفصل لنـا شڤارتزكوپن علائقه بذلك الضابط المجرم وكيف أنه لبث فى خدمته عامين يمدّه بأسرار الدفاع الفرنسى ؛ ثم يقول لنـا إن « البردرو » لم يصل الى يده قط ، ولم تلتقطه مدام بستيان خادمة السفارة الألمـانية من سـلة الأوراق المهملة ، وتوصله الى قـلم التحريات الفرنسية كما هو ذائع . والواقع أن شڤارتزكوپن لم يقف على أمر « البردرو » إلا بعد القبض على دريفوس والحكم عليه بعامين ، حيث رأى صورة الوثيقة منشورة فى جريدة « المـاتان » فعرف لفوره أن كاتبها هو إسـترهازى ، وأدرك فى الحال روعة الخطأ القضائى الذى ارتكب .

وفى الرسائل التى تبادلهـا شڤارتزكوپن مع الكونت منستر سفير ألمـانيا فى باريس وقتئذ ما يدل على التأثر العميق الذى كانت تشـعر به السلطات الألمـانية فى تتبع أدوار هذه المأساة القضائية . وقد لبث الكونت منستر نفسه مدى حين بعيدا عن فهـم الحقيقة معتقدا مسئولية شڤارتزكوپن ، حتى أنه حمل عليه فى بعض رسائله بقسوة ، واتهمه بأن تصرفاته المريبة كانت أكبر سبب فى الحملات العنيفة التى شهرتها الصحافة الفرنسية يومئذ على ألمـانيا . وقد وقف الكونت منستر بعـد ذلك على طرف من الحقيقة ، وكان أركان الحرب الألمـانى يعرفها منذ الساعة الأولى ويعرفها القيصر أيضا . أجل كان القيصر يعرف ويثق بأن السفارة الالمـانية فى باريس لم تتصل بدريفوس قط ؛ ولمـا صرح له الكونت منستر حين مقابلته بأنه لا يشك لحظة فى براءة دريفوس ، أجابه القيصر بأنه لا يشك فيها كذلك . ويعرض لنا شڤارتزكوپن فوق ذلك فى مذكراته كثيرا من الوثائق والتفاصيل التى تلقى أكبر ضوء على

حقائق تلك المأساة القضائية الكبرى، وتعرضها فى كثير من نواحيها عرضا جديدا مؤثرا .

ونستطيع اليوم أن نقول إن التاريخ قد استكمل عناصر الحقيقة فى قضية دريفوس ، وإن مذكرات فون شڤارتزكوپن جاءت لتبدّد أخر لمحة من الغموض والحلك كانت تحجبها . وقد نعم دريفوس بظهور هذه الحقيقة قبل وفاته ببضعة أعوام، ثم توفى فى يوليه سنة ١٩٣٥ فى الخامسة والسبعين من عمره ، قرير العين باستكمال براءته ، ومحو الآثار الأخيرة لظلم جيله وعصره، عن شخصه وعن ذكراه[1] .

---

(١) رجعنا فى هذا البحث الى :

J. Reinach : L'Histoire, de l'Affaire Dreyfus Vol. III p. 339 et Suiv.

والى مذكرات شڤارتزكوپن Die Wahrheit ueber Dreyfus وراجع كتابى «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى» ص ٥٠٤ الى ٥٣٧ والمراجع .

الفصل الخامس

قضية الفيجارو ومدام كايو

سنة ١٩١٤

فى أوائل سنة ١٩١٤ كان الجدول السياسى فى فرنسا على أشده حول مسألة الدفاع الوطنى ونقص أهباته وحول قانون الخدمة العسكرية ، ففى ذلك الأفق المضطرب وقعت جناية سياسية اجتماعية كان لها أعظم وقع فى فرنسا وفى جميع انحاء أوربا .

ففى عصر يوم الاثنين ١٦ مارس سنة ١٩١٤ قصدت مدام كايو زوجة الوزير والسياسى الأشهر يوسف كايو الى دار جريدة الفيجارو (Le Figaro) فى ناصية شارع الشانزليزيه ، وكانت الفيجارو يومئذ من أشهر الصحف الباريزية وأشدها ذيوعا ونفوذا بين الطبقات الرفيعة وفى أوساط المال والسياسة .

وطلبت مدام كايو رؤية رئيس التحرير مسيو جاستون كاليت ، وانتظرت نحو ساعة حتى استدعيت لمقابلته ، وما كادت تجوز الى مكتبه حتى بادرته باطلاق خمس رصاصات من مسدسها ، فسقط كاليت صريعا ، وهرول الحاجب عند سماع الصوت ليشهد المنظر المروع ، ولم تمض بضع ساعات أخرى حتى توفى كاليت فى المساء .

وكان كاليت قد التحق بتحرير جريدة الفيجارو فتى منذ سنة ١٨٨٠ وظل يتدرج فى أعماله حتى غدا رئيسا للتحرير منذ سنة ١٩٠٣ ، وذاع اسمه وسمت مكانته الصحفية والاجتماعية ؛ وكان مسيو كايو قد وصل بعد حياة سياسية حافلة الى رياسة الوزارة فى سنة ١٩١١ ، ولكنه استقال عقب النقد

الذى وجه الى وزارته من جراء موقفها فى المفاوضات مع ألمانيا على المسألة المراكشية . وفى مارس سنة ١٩١٣ دخل فى وزارة "دومرج" الراديكالية الاشتراكية وزيرا للمالية، وفازت الوزارة فى البرلمان بالتصديق على سياستها المالية بأغلبية كبيرة؛ وكانت ثمة جبهة قوية تعارض كايو وسياسته المالية، وكانت جريدة "الفيجارو" تؤيد هذه المعارضة بسلسلة من الحملات العنيفة، وكانت تنشر كل يوم تقريبا مقالات وصورا لوثائق ورسائل تخدش من سمعة كايو وشرف زوجته . وكانت هذه الحملات والوثائق ترمى الى التدليل على أن كايو لم يتورع خلال حياته السياسية من أن يستغل مركزه كوزير للمالية وأن ينمى ثروته الخاصة على حساب الأموال العامة ، وانه استعمل نفوذه للتأثير على القضاء فى قضية الفضيحة المالية التى ارتكبها أفاق يدعى "روشيت" سنة ١٩١١ ، وانه عاونه على الفرار من قبضة العدالة . ولم تقف الفيجارو عند هذا الحد ، ولكنها هاجمت كايو فى حياته الخاصة، وأخذت تنشر صورا لبعض خطابات غرامية كان كايو يكتبها الى خليلته التى تزوجها فيما بعد وهى الزوج القاتلة، وكانت لا تزال يومئذ فى عصمة زوجها القديم مسيو ليون كلارتى ابن مدير مسرح "الكوميدى فرانسيز" . وظهر فيما بعد أن الفيجارو استطاعت أن تحصل على بعض هذه الخطابات من مدام جويدان زوجة كايو الأولى التى طلقها ليتزوج من خليلته ؛ وكان كايو يستميح لنفسه فى هذه الرسائل أن يفضى الى خليلته بكثير من أسرار الدولة والشئون العامة خلال الأقوال والوقائع الغرامية؛ وكان كاميت رئيس التحرير يسبغ على هذه الحملات بقلمه اللاذع صورا مثيرة ويطعن الوزير وزوجه طعنات نجلاء . ولبثت الفيجارو فى حملتها العنيفة مدى ثلاثة أشهر؛ وفى يوم من أيام مارس نشرت مقالا جامعا بتوقيع كاميت ضمنته جميع التهم والفضائح التى تنسبها الى كايو وهذه خلاصتها :

(١) أن كايو لم يكن يرمى فى جميع أعماله العمومية إلا الى جمع المال لنفسه، وانه لم يكن يتورع عن التدخل فى أعمال البورصة، ومساعدة أعوانه وأصدقائه فى الاستفادة من تقلباتها .

(٢) أن موقفه فى المفاوضات المتعلقة بالمسألة المراكشية مع ألمانيا كان موقف تفريط وخيانة، وأنه عمد الى مفاوضة ألمانيا بطريقة سرية، للتنازل لها عن جزء من الكونغو الفرنسى، نظير تنازلها عن دعاويها فى مراكش .

(٣) أنه ما كاد يلى وزارة المالية فى ٣ مارس سنة ١٩١٢ حتى بادر بالعمل على معاونة صديقه الأفاق "روشيت" واستطاع بنفوذه وتدخله لدى النيابة العمومية والقضاء، أن يعمل على تأجيل قضيته الجنائية أشهرا حتى استطاع روشيت أن يفر من قبضة العدالة؛ وقد صرح مسيو چوريس النائب الاشتراكى ورئيس لجنة التحقيق فى مسألة روشيت باستيائه من التدخلات الرسمية فى الاجراءات القضائية ؛ ومع أن فضيحة روشيت المالية ، وقعت فى أبريل سنة ١٩١١ ، فقد لبث كايو يسعى الى تأجيل قضيتها حتى تسقط بمضى المدة أو يفر روشيت، وهو ما حدث بالفعل .

(٤) أن كايو بصفته مديرا للبنك العقارى بالقاهرة (أى لمركزه العمومى بباريس) طرح أسهم هذا البنك فى البورصة واجتنى من وراء ذلك أرباحا طائلة ، وأنه أضاع أموال العمال وأموال الاقتصاد الوطنى وساعد الأفاقين على اغتيالها .

تلك خلاصة المقال اللاذع الذى نشرته الفيجارو والذى بلغ فيه محررها كاليت الذروة فى النيل من كايو ومن نزاهته وسمعته السياسية؛ ولم يك ثمة ما يدل على أن كاليت قد أفرغ كل ما فى جعبته من المطاعن والسهام المسمومة ، وكانت الفيجارو تطلع كل يوم بطعنة جديدة، وكانت زوجة الوزير تضطرم حفيظة وسخطا لتلك الحملات الهدامة لمكانة

زوجها وحياته العامة والخاصة ، وتحاول أن تجد الوسيلة لدرء هذه الطعنات القاتلة . ولما نشر كالميت مقاله الجامع فى اتهام الوزير اعترمت مدام كايو أمرها واشترت مسدسا فى خفية عن زوجها ، وتمرنت على إطلاقه ؛ ووصلت المأساة الى ذروتها فى يوم ١٦ مارس حينما خر كالميت صريعا برصاص الزوج المنتقمة حسبما قدمنا .

* * *

وعلى أثر وقوع الجريمة ، اضطرب الرأى العام الباريزى واعتقلت مدام كايو وأودعت سجن الحقانية ؛ وشيع جناز كالميت فى ٢١ مارس وشهده جمهور غفير من علية القوم ، ووقعت أثناء الجناز و بعده مظاهرات عديدة ، واستمرت العاصمة أياما فى هرج ومرج ، واستقال مسيو كايو فى الحال من وزارة المالية ، وندب البرلمان لجنة للتحقيق فيما أثير من الوقائع والفضائح ؛ وعرضت نتيجة التحقيق على المجلس وأسندت فيه أمور كثيرة الى الوزير المستقيل و بعض زملائه السابقين ، وأصدر المجلس فى حقهم قرارا باللوم بعد مناقشات عاصفة ، واستمر الأفق السياسى على تجهمه بضعة أسابيع حتى انتهت الدورة البرلمانية القائمة و بدأت الانتخابات للمجلس الجديد .

وكشف التحقيق مع الزوج القاتلة عن كثير من الوقائع والمثالب المؤلمة ، واعترف مسيو مونيس وزير العدل فى التحقيق بأن كايو رجاه فى العمل على تأجيل قضيه روشيت خشية أن ينفذ محاميه تهديده بإثارة بعض الفضائح الرسمية ، وأنه نقل هذا الرجاء الى مسيو فابر النائب العمومى ، وأيد كايو وزير العدل فى هذا الاعتراف .

و بدأت محاكمة مدام كايو فى ٢٠ يوليه سنة ١٩١٤ ، وكان مسيو كايو بالرغم من وقع الحادث المروع الذى ارتكبته زوجه ، و بالرغم مما ثار حول اسمه ومكانته من الضجيج ، قد تقدم للانتخابات الجديدة ، وفاز فيها ؛ وكان

يعمل جاهدا لكى يسبغ على هذه المحاكمة الجنائية لونا سمياسيا عميقا ، وكان يحشد حوله بعض الصحف و يغذيها بحملات سياسية ظاهرة الوحى ؛ وغدت محاكمة مدام كايو يومئذ أعظم حوادث العصر ولم يحجب من رنينها مصرع الأرشيدوق فرديناند ولى عهد النمسا والمجر فى سيرايبفو ، وما بدا على أثره من انحدار أوربا نحو هاوية الحرب بخطى سريعة .

مدام كايو

وتولى الدفاع عن الزوج القاتلة الأستاذ لابورى وعن أسرة كاليت الأستاذ شنى (Chenu) ، وسمح لجمهور من سيدات الطبقة الرفيعة بشهود المحاكمة من وراء حاجز حديدى ، وشهد النائب العمومى المحاكمة بنفسه ممثلا للاتهام ؛ وقالت مدام كايو فى بدء المحاكمة إنها لم تقصد القتل ولكنها قصدت معاقبة القاذف و إرهابه ، وقال مسيو كايو إن نهجه فى حياته الخاصة قد يكون السبب فى وقوع الحادث ولكنه دافع عن نفسه وعن سياسته دفاعا رنانا ، وقال بأن خصومه كانوا يهددونه بنشر وثائق تقضى على سمعته ومكانته ؛ وحدثت أثناء الجلسة مناقشة عاصفة بين الوزير و بين المسيو لازاروس مدير إدارة الفيجارو إذ زعم أن مسيو كاليت أطلعه على أوراق تؤيد خيانة كايو

ونذالته ؛ ولما ألح المحامي في طلب هذه الأوراق أعلن النائب العمومى أن الوثائق المزعومة ليست سوى صور من أصول غير موجودة ؛ واتهم كايو جريدة الفيجارو بأنها كانت فى خدمة ألمانيا وأنها تتقاضى أموالا منها .

وسمعت المحكمة أقوال كثيرين من محررى الفيجارو ، وكان من شهود القضية القصصى الكبير بول بورجيه والكاتب المسرحى هنرى برنشتين ؛ وأدلت مدام جويدان زوجة كايو الأولى بأقوالها فروت قصة الرسائل الخاصة التى سرقتها من مكتب زوجها السابق (المسيو كايو) والتى نشرت الفيجارو بعضها ، وأبت أن تقدم أصولها الى المحكمة ولكنها قدمت صورا فتوغرافية منها الى الأستاذ لابورى ، فأبى بدوره أن يقرأها . وكانت هذه الرسائل التى تبادلها مسيو كايو مع خليلته مدام كلارتى وهى التى غدت زوجه فيما بعد ، ثم غدت بطلة القضية ، مستقى خصيبا لمحرر الفيجارو فيما كان يكشفه من أسرار حياة كايو الخاصة وعلائقه الغرامية .

واستمرت المرافعات فى القضية أسبوعا ، واستعرضت خلالها أبشع الصور عن فساد الحياة الفرنسية العامة وفضائحها المثيرة ؛ ولم يتورع الاتهام أو الدفاع عن أن يلطخ بالعار والإثم كل شخصية تناولها مهما كان مقامها أو مكانتها ، مابين وزراء ونواب وكتاب من جميع الأحزاب ، ولم تحدث الوقائع المادية الحاسمة أثرها فى هيئة المحلفين كشراء مدام كايو للمسدس الذى ارتكبت به الجريمة ، وتمرنها على اطلاقه ، وكذلك المذكرة التى كتبتها الى زوجها تنبئه بأنها ستأخذ حقها بيدها ؛ ولم يتأثر المحلفون بما فى ذلك من عمد ظاهر وسبق أصرار على ارتكاب الجريمة ؛ وغلبت الدعاية السياسية على جو المحكمة ، وقضى الأستاذ لابورى بدفاعه الرنان الساحر على كل عنصر للادانة . وفى يوم ٢٩ يوليه أصدرت المحكمة حكمها ببراءة مدام كايو خلال مناظر عاصفة . وما كادت الزوج القاتلة تسمع الحكم ببراءتها حتى سقطت مغميا عليها بين

ذراعى محاميها، واشتد الضجيج والهرج فى ساحة الجلسة، وامتزجت أصوات الهاتفين لكايو بهتافات "يا للقاتل" وأمثالها، واشتد اضطراب الرأى العام الباريزى، وعادت المظاهرات السياسية أشد مما كانت، يهتف بعضها لكايو وللاشتراكيين، ويهتف البعض الآخر للملكيين والوطنيين.

وجاء هذا الحكم دليلا جديدا على انحلال القضاء الفرنسى، وتأثره بالاعتبارات السياسية، وخضوعه الواضح لوحى السلطة التنفيذية؛ ولم يمض يومان على ذلك حتى سقط الزعيم الاشتراكى چان چوريس قتيلا برصاص قاتله راول ڤيلان وهو جالس فى بعض مقاهى باريس (٣١ يوليه) فازداد الرأى العام اضطرابا، وكان الأفق الدولى المتجهم خلال ذلك ينذر فرنسا وأوربا بالويل، وكانت الحرب الكبرى على الأبواب.

كمُل طبع كتاب "المآسى والصور الغوامض" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم السبت ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣٦٣ (٨ أبريل سنة ١٩٤٤) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٢/١٩٤٣/١٣٥٠)

DATE DUE

D
106
I 5
1944

عنان، محمد عبد الله
المآسى والصور الفواحش

Toti Nahil | 73/605

BINDERY

D
106
I 5
1944

JAN 1985

i 14942525
B 13142070

D
106
I 5.
1944